مد الطرّاح

مدونة ابو عبدو

أفواه مُكمَّمة

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أحمد محمد الطرّاح

أفواه مُكمَّمة

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: تشرين الأول/أكتوبر 2020 م - 1442 هـ

ردمك 978-614-01-3093-7

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

تساؤل!

مَن أسس أول عادة وفرضها علينا! مَن يا تُرى بدأ العرف الأوّل وألزم به الجميع؟ مَن الذي فرض نمط حياته على الآخرين، ثم أحاطه بهذه الهالة من القدسية؟! وكيف لنا أن نعيش حياة أُناسٍ هلكوا منذُ آلاف السنين!؟

ياسين

"العودة من العزلة"

- 1 -

"في طريقٍ مُظلمٍ، يغمرُ معظمه أدخنةٌ مُتناثرة، أقفُ في منتصفه والذعر يجتاحني من رأسي حتى أخمص قدميّ، بين الفينةِ والفينةِ تطرقُ مسمعي صرخات استغاثة تقشعرُّ لها الأبدان تارة، وضحكات مجنونة تارة أُخرى، يتردد صداها على نحو مُخيف، ارتعدت أطرافي مع كُلِّ صرخةٍ استغاثة، واضطربت أنفاسي كلّما ردّد المكان صدًى لضحكةٍ مجنونةٍ.

أدرتُ وجهي حولي مرعوبًا، ومن بهيمِ الظُلمة على حينِ غرّة، وسط الأدخنةِ المتناثرة ينطلقُ رجلٌ من العدم، ضخمةٌ بُنيته، مبهمةٌ ملامحه، يجري نحوي وبيدهِ حبلُ مشنقةٍ، تسمّرتُ في مكاني للوهلةِ الأولى، ثمّ ضرب الأدرينالين ناقوس الخطر في شراييني، هرعتُ هاربًا أتخبطُ في الظلام، لا أملكُ أدنى فكرة عن هذا الذي يُطاردني، ولا أعرفُ لماذا يُطاردني، ولا أدري إلى متى سوف أهرب، تسارعَ قلبي في خفقانه بينما كنتُ أجري، وانعقد لساني عن طلبِ النجدة، وهطل العرق من جبيني دون توقّف...".

انتفضتُ من نومي كأنما روحي أوشكت على مغادرةِ جسدي. وليتها قد فعلت، فتحتُ عينيّ المرهقتين وحدّقتُ بالسقفِ مُتعبًا، مُمددًا فوق السرير في وهن، مُتعرّقَ الجسد، كأنما كان الهرب في الواقع لا في المنام، وكان الحُزن يتوسدُ وجهي، ويتّكئ على قلبي.

- يا له من كابوسٍ مُزعج.

هكذا قلتُ لنفسي خائر القوى. اعتدلتُ فوق السرير مستعينًا بكلتا يدي، ثم أطبقتُ جفنيّ مرهقًا، وملأتُ رئتيّ بشهيقٍ عميق، حبسته في صدري بضع ثوانٍ ثم أطلقتُ حُريته في زفيرٍ طويل.

فتحتُ عيني على أرجاءِ الغرفة. تتفحصانها بدقّة، كل شيء كان على حاله حدَّ الضجر، هاتفي المغلق على الدوام فوق الطاولةِ المستديرة وعلبة سجائري قربه، لم أرمِها رغم أنها كانت فارغة؛ فكسلي عن شراء أخرى جديدة اضطرني إلى الإقلاعِ عن التدخين، ومحفظتي لا زالت تشكو من جفاء النقود، وفي الجدار المقابل للسرير كان ثمّة شرخ. شرخٌ قديم يحدقُ إليّ على نحوٍ مريب، رنوتُ إليه لبضعِ دقائق، اتّسعت عيناي وتسلل الشرود على استحياءٍ إلى ذهني، ومن الماضي تسرّب صوتها العذب عبر أُذني هاتفةً:

- متى ستُصلحه؟

كانت تسألني حانقةً هذا السؤال كلما وقع بصرها عليه مصادفةً، وكانت إجابتي في كُلِّ مرةٍ:

- حالًا يا حبيبتي.

"أكان تقاعسي هو السبب؟ أم كان الشرخ وفيًّا للجدار؟!" تساءلتُ في خلدي مشدوهًا.

ثمّ نهضتُ من سريري، والخمول يتشبثُ بجسدي، ويشدّهُ إلى مضجعي، محتالًا عليه بكُلِّ وسائلِ الحيلِ، نهضتُ بعدما أذعنتُ له مراتٍ جمّة، أجرُّ قدمي اغتصابًا للخطوة، وأنفضُ عن ذاكرتي أطلالها.

بيد أنني كلما أفلتُّ من ذكرى اصطادتني أخرى؛ فكل شيء في الغرفة يعودُ إليها، مرآتها المزينة بصورِ زفافنا، عطرها الشانيل، علبة المجوهرات ووسادتها الطبية التي كانت تُفضّلُ عليها ذراعي دومًا، وبطانية الصوف زهرية اللون، لم تخن رائحتها يومًا، ما زالت تفوحُ بها، والأرضية الخشبية.

أذكر أننا بحثنا عن خشبِ البلوط الذي شغفها حبًّا طيلة أسبوعٍ، ذهبنا إلى كل المتاجر المتخصصة ببيعِ الأرضياتِ الخشبية، لكنها خيَّبت مسعانا، لم نعثر على ما تريد، ولم ترغب هي إلا بشراء ما تريد، وفي متجرٍ في ناصيةِ الطريق لا تشي هيئتهُ الخارجية أننا سنجد ضالتنا لديه، لكن القنوط قادنا إلى الدخول، إلا أننا خرجنا منه بأرضيةٍ من خشبِ البلوط المستورد من تركيا مثلما زعم صاحب المتجر.

كنّا قد فقدنا الأمل في العثورِ على مثلها في الكويت، فاشترينا من المتجر المقابل ورق جدران مُنسجمًا مع لونِ الخشبِ كانسجامِ عاشقين وقعا توًّا في الحبِّ، كان أسبوعًا شاقًّا لكن جميلًا برفقتها، أتذكره بأدقِّ تفاصيله وكأنه حدث بالأمس.

أمّا الكنبة فقد عثرنا عليها صدفةً، إذ لم يكن في نيّتنا أو على نحوٍ أدق، بوسعنا، شراء أيّ شيءٍ آخر؛ نظرًا لما أنفقناهُ من أموال هذا الشهر، إلا أنّ لافتة الحسومات المثبتة على واجهة متجرٍ كان في طريقنا، سحرتنا

إلى حدٍّ جعلنا ندلف دون وعي، واشترينا الكنبة حالما وقع بصرنا عليها، كانت هذه أسرع عملية شراء في تاريخنا، وهذا ما جعلنا نقبعُ في الشقة نعدُّ الدقائق والثواني منتظرين الراتب الشهري لينتشلنا من هوّة الفقر المؤقت التي قذفنا بها تهوّرنا.

اقترحت بلقيس أن نضع الكنبة أمام السرير، كان لبياضها رونقٌ في غرفةٍ غلبها اللون الداكن، خيل لي أنها تقفزُ بخفةٍ كي ترتمي بجسدها المثير فوق الكنبة كدأبها في الحقيقة، وشعرها الأسود الطويل كان يُداعبُ الكنبة بغنجٍ، وبسبّابتها تدفع إطار نظارتها الأسود نحو عينيها بينما هي تتصفحُ كتابًا لغابرييل ماركيز، كاتبها المفضل، وفنجان القهوة فوق الطاولةِ المستديرة ينتظرُ موعدًا غراميًّا مع شفتيها.

كنتُ قد ظننت بأنني أفلتُّ من شركِ الذكريات الذي نصبه الحنين لي، بيد أنّ شركًا آخرَ اصطادني. أطبقتُ جفنيَّ مُجهدًا من ملاحقة الماضي لي، بعدما وقفتُ مُنتصبًا في مُنتصفِ الغرفة، أخذتُ نفسًا عميقًا، وأطلقته زفيرًا، كررتها ثلاثًا، ثم فتحتُ عينيَّ واغتصبتُ خطواتي إلى الحمام.

دلفتُ وتسمرتُ قُبالة المرآة كشبحٍ، فتحتُ الصنبور فانهمر الماء منه مثل مساجينٍ لاذوا بالفرار، قبضتُ على بعضٍ منهم وملأتُ كفيَّ بالماء، بللتُ وجهي المرهق، وذقني المهملة، ثم حملقتُ بارتيابٍ في المرآة، وقد عثر الماء على طريقٍ لنفسه عبر لحيتي الطويلة. "من هذا الغريب الذي يُحدّقُ إليّ؟" سألتُ نفسي مضطربًا، "يا للتعاسة! لم أعد أعرفني!" أجبتُ نفسي مُشوّش الذهن.

ملأتُ كفّي بالماءِ مجددًا، قربتها من فمي وتمضمضت، ثم بصقتُ بشدّة كأنما أبصقُ على أحدٍ كان هو السبب في بؤسي. غرستُ أصابعي النحيلة في علبةِ المناديلِ؛ علّني أجدُ منديلًا ينشفُ بللي، لكن العلبة كانت فارغة! فلجأتُ إلى كُمِّ الجلباب، مسحتُ وجهي به ونشّفتُ ذقني ثم خرجت.

بخطواتٍ مضطربة تقدّمتُ نحو المطبخ؛ أعدُّ قهوتي مثل كُلِّ يوم، وقفتُ قرب آلةِ صُنعِ القهوة، والقنوطُ يستحوذُ عليَّ من رأسي حتى أخمص قدميَّ، وضعتُ كوبًا بداخلها، فترامى إلى مسمعي صوت بلقيس مُنبعثًا من قعرِ الماضي، استشاطت ذاكرتي حنينًا عندئذ، وقذفتني إلى صباحٍ قديمٍ من صباحاتِ السبت في أواخرِ كانون الأول قبل أربعِ سنوات، كان الطقسُ قارسَ البرودة، والمطر بلل الشوارع، كنّا مُستلقيين على الكنبةِ ذاتها، مُتلحّفينِ ببطانيّة الصوف زهرية اللون، نستمعُ إلى أُغنياتِ فيروز عبر (YouTube) من حاسوبها المحمول الخاص بها، فسألتني بغتةً في نبرةٍ أقرب إلى الهمس:

- حبيبي، ألا تعتقدُ بأننا في حاجةٍ إلى آلةٍ لصُنعِ القهوة مثل التي في المقاهي؟

أطلقتُ قهقهةً قصيرة، مُتقطّعة، ثم أجبتها:

- آه يا صغيرتي، لو صبرتِ قليلًا.

ثم أخذتُ نفسًا من سيجارتي وأطلقتُ سحابةً من الدخانِ تطوفُ فوقنا، وأدرتُ وجهي نحوها، طبعتُ قبلةً على جبينها الغضّ، وطلبتُ منها بلطف:

- اذهبي وتفحَّصي المطبخ جيدًا.

ما إن سمعتني حتى قفزت من الكنبة برشاقة مُخلّفةً هاتفها في حضني وجرت نحو المطبخ مثل عدّاءةٍ بارعة، تمددتُ في تلك الأثناء فوق الكنبة، وسحبتُ نفسًا آخر من سيجارتي، بينما كانت أذناي تنطربان بصوت فيروز تارة، وأُخرى بضحكها الذي بدا أقرب إلى شهقات مُتقطّعة، غالبًا ما تُطلقها من فرط السعادة أو البكاء.

- أحبك ياسين، أحبك جدًّا.

ظلّت تُردّدها مرارًا. "ما أحلى اسمي عندما تلفظه شفتاها". فكرتُ في نفسي، عادت إلى شهقاتها مرّةً أُخرى، ثم مضت تقول بامتنانٍ:

- الله لا يحرمني منك.

بيد أنّ قرعًا قويًّا على الباب سحبني من عُمقِ ذكرياتي بذراعِ الحاضر في الحال.

- تُرى من هو الطارق! أما زال هنالك أحد يُكلّفُ نفسه عناء الزيارة؟

سألتُ نفسي ساخرًا، مع نصفِ ابتسامةٍ لاحت على شفتيّ المتقشّفتين، إلا أنها كانت ابتسامة ذابلة. ضغطتُ على زرِّ التشغيل، ثم وضعتُ ملعقتي سُكّر في الكوب، ومضيتُ نحو الباب، قُرعَ مرّةً أُخرى لكن بشدّةٍ مضاعفة هذه المرّة، سرّعتُ خطواتي وأنا أصيحُ:

- اصطبر يا هذا؛ ها أنا في طريقي إليك.

فتحتُ الباب مُتغضّن الجبين، عابسًا نصف عبوس، بيد أن الذهول بدّل قسمات وجهي في لمحِ البصر، اتّسعت عيناي،

وفغرتُ فمي قليلًا، ثم تساءلتُ جهرًا بكُلِّ عفويةٍ كأنني لم أصدق عيني:

- أبي!!
- لا، أنا شبحهُ.

وأفلتت منه ضحكةٌ صاخبةٌ طويلةٌ، ثم استرسل مُتهكمًا:

- شقّتك أصغر من قفصٍ طيور الكناري، وتستغرقُ ساعةً لفتحِ الباب.

"لطالما كرهت هذه الشقة، أو على نحو أدق، كرهت فكرة خروجي من البيت الكبير إلى شقة". تذمرتُ في خلدي، رمقني من رأسي إلى قدمي مُزدريًا حالتي، وتابع كلامه بعدما أطلق زُفرةً طويلة:

- ابتعد عن طريقي؛ دعني أدخل يا ولد.

وأشاح بيدهِ يُبعدُني عن دربه، أغلقتُ الباب بعد أن دلف، ثم سألته:

- أراك خاوي الوفاض، أين المؤونة؟
- لا مؤونة بعد اليوم.

قالها بصرامة قذفت القلق في قلبي. ثم التفت نحوي بعدما استقررنا في غرفةِ المعيشة، وأضاف بلهجة فيها مسحة من الامتعاض:

- اجمع حاجاتك حالًا.
- لماذا؟

سألتُ مرعوبًا.

- ستُغادر معي الساعة.
- أعُدنا إلى هذا المنوال يا أبي! ظننتُ أننا انتهينا.

فتح فاهه كي يصرخ حنقًا مثل عادته، بيد أنّ شيئًا ما كتم غيظه، وجلس على الأريكة في استراحةِ محارب، ووضع قدمًا فوق الأخرى، ثم ألقى بصره نحوي في نظرةٍ حادّة، كأنما يقول عبر تعابيره المكفهرّ: لا، لم ننتهِ بعد. ومضى بكلامهِ بعد لحظاتٍ كان قد ابتلعها الصمت:

- اجمع حاجاتك يا ولد ولا تُعاند، فقد نفد صبري منك، وسئمتُ هذه الحالة.

دنوتُ منه، ثم انحنيتُ على يده، أقبِّلها، ورفعتُ بصري نحو عينيه مباشرةً، راجيًا:

- اعتقني من هذا الأمر يا أبتِ، أرجوك.

ملأتُ رئتيّ بشهيقٍ طويل، وزفرته مغمومًا، وأضفتُ رجاءً آخر، إلا أنه بدا توسّلًا مُثيرًا للشفقة عندما نطقتُ به:

- دعني هُنا، دعني أعشْ وحيدًا حتى أتعفنُ موتًا.

شدّ قبضته على يدي، ضاعف الشد، ثم أجاب بنبرةٍ فيها مسحة من الوعيد:

- دع عنك هذه الترّهات، عُد إلى رُشدك وإلا أعادتك العصا.

اعتدل في جلستهِ بغتة، واقترب مني كثيرًا، حتى التصق منخره بمنخري، وازداد حاجباه تقطّبًا، كان زفيره يهبُّ بوجهي بحرارةٍ شديدة، حتى خيل إليّ أنّ لهبًا كان يخرج من منخره لا هواء، ثم باغتني بسؤال:

- ماذا عن ابنتك! أتُريدها أن تعيشَ يتيمة وأبوها على قيدِ الحياة؟

أشحتُ بوجهي عنه، وقد تردّدت شفتاي في الإجابة؛ فلا إجابة عندي على هذا السؤال الذي جلدني ضميري عتابًا بسببه طيلة العامين المنصرمين، ثم أطرقتُ رأسي إلى الأرضِ، ربّت على كتفي في غضون ذلك، مُسترسلًا:

- مضى عامان وأنت مُتمرّغٌ في الكآبة، حاشيًا برأسك هذه الأباطيل، وليت حالتك تحسنت، لقد ازدادت سوءًا، ولم تُجدِ العُزلة نفعًا مثلما زعمت، وها أنت تبدو أكثر جنونًا بالنسبةِ إلي.

توقّف عن الكلامِ هُنيهة، ثم واصل لكن بنبرةٍ أقلّ حدّة:

- تحرَّرْ من عقدة الذنب يا بُني، وعش حياتك مثل الآخرين، إنسانًا طبيعيًّا.
- ليست عقدة بل هو ذنبي حقًّا، أنا السبب، أنا...

قاطعني في الحال مُنفعلًا:

- إطار السيارة انفجر من حرارة الطقس، فما ذنبك أنت!
- كان المفترض مني أن أبدّل...

زعق في وجهي:

- أنت تُحمّل نفسك فوق طاقتها.

صرختُ بملء حنجرتي، إلا أنّ حشرجةً غريبة رافقت صوتي، وازدحمت عنقي بالعروق فجأة، كأنما حبالٌ صغيرة تلتفُّ حولي، واغرورقت عيناي بالدموع:

- أستحقُّ ذلك؛ فأنا السبب في موتهما.. أنا السبب.

أمسكتُ عن الكلامِ بغتةً، أو على نحوٍ أدق، أخرستني الدموع عندما انهمرت رغمًا عني، وردّدَ الصدى كلامي كأنما يؤكّده. مضت ثوانٍ من الصمت هدأ خلالها الصدى في المكان، فقال مُستعينًا بالمنطق:

- حسنًا، حسنًا، لنفترض جدلًا أنك أنت السبب وتستحقُّ ذلك بالفعل، لكن ابنتك ما ذنبها! أيُرضيك أن تشعرَ باليُتمِ بينما أنت حيٌّ تُرزق؟
- لكن...
- كفاك ثرثرةً.

ووقف منتصبًا وعيناهُ تقدحان شرارًا، ثم أمرني بحزم:

- اذهب واجمع حاجاتك، حالًا.

وأضاف في لهجةِ تهديد واضحة:

- وإلا جرجرتك من تلابيبك.

وابتعد على حينِ غرّة بضعَ خطواتٍ، تسمّر قُبالة النافذة، يرنو ببصره إلى زحمةِ الطريق. عاد الصمتُ في تلك اللحظات وبنى حصونًا في المكان، لكن الحصون لم تدم إلا بضعَ دقائق؛ إذ دكّها أبي بجملةٍ كانت تحملُ ألمًا اقشعرَّ له بدني فور ما طرقت مسمعي:

- لم ينجُ عمك من مرضه؛ كان الموت يتربصُ به مثل مخبرٍ لعين، وأخشى أن يقبض عزرائيل روحي أنا أيضًا، وتبقى بلقيس الصغيرة وحدها في هذه الدنيا دون سند.

"عمي توفّى؟! متى؟!" صرختُ لكن في خُلدي، مُحملقًا إلى وجهه في دهشة، بيد أنه استأنف صياحه قبل أن ألفظَ دهشتي كلامًا،

لكن نبرته بدت ضعيفة، غلبها الخور:

- لقد هرمت، افهم. افهم أيها المجنون، لقد هرم والدك.

وضرب الجدار مُنهكًا براحةِ كفّه ثلاثًا. لم أسمع نبرة الضعف في صوته يومًا، ولم أرَ ملامح الانهزام تُغطّي كبرياءه الشامخ أبدًا، كأنما صلابته طيلة السنوات المنصرمة كانت قناعًا فحسب، وها هو الآن يخلعه بعدما أرهقه التظاهر بالقوة. بلعتُ ريقي بصعوبة كأنما ثمّة قطعةُ خبزٍ يابسة محشورة في قصبتي الهوائية، ازدردتُ ريقي مرّةً أُخرى كي أدفعها، وأحاطني العجز من كُلِّ جانب، رنوتُ إليه لبرهةٍ ثم رحتُ مغلوبًا على أمري لا طوعًا؛ مَن ذا الذي يجرؤ على التمرّدِ عليه! فبرغمِ الخور الذي تجلّى بنبرةِ صوته إلا أنّ عينيه لا تزالان مخيفتين.

وضعتُ الحقيبة فوق السرير بعدما دلفتُ إلى غرفة النوم، شاحب الوجه، محني الظهر، مُثقلًا بأغلالِ المجتمع، حملقتُ نحو الحقيبة هُنيهة، وراح ذهني ينفصل عن الواقع تدريجيًّا، ليقع في مصيدةِ الشرود.

- هذه هي المرة الأولى التي أجهز فيها حقيبتي بنفسي.

هكذا تمتمتُ مخنوقًا، والاكتئاب أحاق سلفًا بروحي. في غضونِ ذلك اصطادتني ذكرى أُخرى في غفلةٍ مني، إذ وقعتُ في شركِ الماضي من جديد، أغمضتُ عينيَّ مُستسلمًا لها بكُلِّ جوارحي، تسرّب صوتها الدافئ من هوّةِ الماضي وطرق طبلة أُذني برقة:

- دع ترتيب الحقيبة لي، وتمدد أنت على الكنبةِ هُناك.

- لا أودُّ إجهادكِ حبيبتي؛ لا سيما أنكِ حبلى.

- ليس هنالك أيُّ جُهدٍ يا حبيبي، بيد أنني أفرحُ كثيرًا عندما أجهّزها بنفسي.

"لماذا؟" سألتُ نفسي في سرّي، لكن ملامحي قد وشت بما جال في خُلدي، أو كانت هي تُجيد قراءتي! أجابتني بابتسامةٍ ساحرة أنارت عتمة السؤال، وطافت بعينيها نظرةُ امتنانٍ بينما كانت ترنو إلى عينيَّ:

- لأنني بحاجةٍ إلى وداعين؛ فوداع واحدٌ لا يكفي.

ثم ازدردت ريقها، ورطّبت شفتيها بمسحةٍ رقيقة من لسانها، واسترسلت:

- الوداع الأوّل خلال ترتيبي لملابسك وتجهيز الحقيبة، كأني بذلك أُوصيها عليك، أمَّا الثاني في المطار قبل أن تصعد على متنِ الطائرةِ مُسافرًا، أطبعُ قُبلةً على جبينك الواسع، يعقبه عناق طويل؛ كي أعود إلى البيتِ بعطرك، وتُسافرَ أنت بعطري.

وبينما كان الماضي يبتلعُ روحي وذاكرتي تتمرّغُ في الحنين، اخترق خلوتي صوت غليظ، هاتفًا على حينِ غرّة:

- أسرع ياسين؛ فقد ركنتُ سيارتي في أحد مواقف الجيران.

ثم تذمّر بملء صوته:

- أثمّة عاقل يسكن في منطقةِ الجابرية؟!

وأضاف بعد هُنيهة بينما كان يتأفّفُ:

- لا أحبُّ الزحام.

وبعد عشرٍ دقائق كنتُ قد انتهيت من توضيب الحقيبة، وخرجنا من الشقّة، إلا أنني وقفتُ مُتسمّرًا، ممسكًا بمقبضِ الباب، أتفحّص الشقّة والذكريات تحوم في سماءِ ذاكرتي، بيد أنّ أبي أرعبها بصوتهِ في لحظةٍ، فانتفضت مذعورة عندما صاح:

- أسرع ياسين، أسرع.

كان المصعدُ مُعطلًا مثل العادة؛ فالمؤجِّر بخيل للغاية، يلهثُ خلف الإيجار مثل مُحصّل ضرائب، ويتقاعس عن صيانة المبنى بكُلِّ وقاحة، وهذا ما أرغمنا على الهبوط عبر السلالم. كانت مُهترئة، ورائحتها تشي بمقبرةِ قوارض تنبعثُ من قبو المبنى المهجور.

لولا غلاء الإيجارات أولًا، وذكرياتي مع بلقيس في هذا المكان ثانيًا، ما مكثتُ ثانيةً واحدةً في هذه الزريبة، إلا أنّ المبنى لم يكن هكذا عندما استأجرنا الشقّة قبل خمسِ سنوات، لكن بعد وفاة أبي علي صاحب العقار رحمه الله، قبل عامٍ تقريبًا، كان كُلُّ شيءٍ قد تحوّل إلى خرابة؛ حالما استلم ابنه الوحيد زمام الأمور.

أدرتُ جسدي إلى الخلف نصف استدارة بعدما خرجنا من الباب الرئيسي، ورنوتُ إلى نافذة شقتي مُنقبض الصدر، كأنما شيء ما بداخلي يأبى الرحيل، ما زالت الذكريات تتشبثُ بذاكرتي، وكان الحنينُ يهمسُ في أُذني: لا ترحل.

حملقتُ إلى المبنى أتفحّصه؛ مدخله المهترئ والدرجة الثانية المكسورة، نوافذه الكبيرة و"المرزام" العتيق، سورهُ القصير وبابه المخلوع. كان المكان يضجُّ بالذكريات.

هتف أبي في تلك اللحظات يستعجلني، فركبتُ السيارة في الحال، وعبرتْ ملامحي مسحة من البؤس. وضع أبي الحقيبة في صندوق السيارة بنفسه، ثم انطلقنا مبتعدين عن المبنى، وأنا أراهُ مُحبطًا عبر المرآة الجانبية، يبتعدُ شيئًا فشيئًا حتى توارى خلف المباني المجاورة.

أسندتُ رأسي مرهقًا، والضنك يلتفُّ حول عنقي كمشنقةٍ؛ فحُرّيتي صودرت الآن، وعُزلتي سُلبت بشكل رسمي، بيد أنّ الوجع كان وفيًّا لي على نحو مزعج. بات عليَّ أن أعيش مثلما يشتهي المجتمع المحيطُ بي لا مثلما أشتهي أنا، مقيّدًا بعاداتٍ أمقتها، ومُكبّلًا بمعتقداتٍ رثّة لا أؤمن بها، مثل دميةٍ باليةٍ تُحرّكها أهواؤهم المريضة.

- 2 -

وصلنا أخيرًا، بعدما استولى الصمت على حناجرنا طوال الطريق، خمسٌ وثلاثون دقيقة قضيناها في طريقٍ لا يستغرقُ عشرَ دقائق؛ لولا زحام السيارات وتصليحات الشوارع التي كلّما انتهت بدأوا بها من جديد، "أمرٌ في غاية الإحباط". هكذا تمتمتُ في خلدي.

خفق قلبي متوجّسًا عندما دلفنا الحي، واقشعرَّ بدني؛ كان مكتظًّا بالذكريات التعسة، الطريق مزدحمٌ بالسيارات المركونة على جانبيه، بالكادِ يتّسعُ لمرورِ سيارةٍ واحدة، والأطفال حُفاةٌ يمرحون في الشوارعِ والأزقة، غيرَ مُبالين بالمخاطرِ؛ فرُبَّ شابٍّ أرعن يقودُ سيارته مُستهتراً، ويتسببُ في حادثٍ مُروّع. إلى متى والأهالي يعتمدون اعتمادًا كُليًّا على العمالة المنزلية في تربية أولادهم؟ ويُختزلُ دورهم في الإشرافِ

وحسب، كأنما الإنجاب هو تأكيدٌ لفحولةِ الذكور وشهادة تقدير على خصوبة الإناث.

ركن الوالد سيارته في ناصيةِ الحارة غير مبالٍ هو الآخر إن كانت تُعرقلُ السير أم لا. ترجَّلت ثم توجهتُ إلى صندوقِ السيارة لأفتحه، بيد أنه لم يُفتح معي! حاولتُ مجددًا لكن دون جدوى، طرقت مسمعي ضحكةُ والدي على الفور، وتغلغلت داخل أُذنيّ، كان قد ترجّلَ للتو، واستطرد مُتهكمًا:

- أيها الرقيق، لا تنفعُ الرقّة مع هذه الموديلات.

وجاء يضربُ الصندوق بقوة، أعاد ضربه مرّةً أُخرى، ثم حاول فتحه بكلتا يديه، كرر المحاولة بشدة هذه المرّة، واعتلت وجهه ابتسامةُ نصرٍ كأنما قد فتح الأندلس لا صندوق سيارة عتيقة، ثم ألقى بصره نحوي قائلًا في نبرةٍ تنمُّ عن شعورهِ بالاعتزاز جرّاء ما أنجزه، كما هو دأبه على الدوام:

- تعلّم يا ولد كيف تتعاطى مع هذه السيارة؛ فسترثها بعد عمرٍ طويل.

ثم أطلق ضحكته الصاخبة مجددًا، وأنا بجانبه أرمقه ببرود، أحبسُ ضحكتي بداخلي كأني سأخسر فيما لو أفلتُّها! ثم حملتُ حقيبتي بهدوء وسرتُ برفقته إلى البيت الكبير مشيًا على الأقدام. بضعة أمتارٍ كانت تفصلنا عن بابهِ الحديدي الذي أطلقتُ عليه في زمنٍ مضى (باب خيبر) نظرًا لثقلهِ عندما كنّا يافعين.

رفعتُ بصري إلى الأعلى، وتفحّصتُ بيوت الحارة بيتًا تلو الآخر، كانت مثلما عهدتها في آخرِ زيارةٍ لي قبل عامين، سوى أن بعضها قد

ازداد طابقًا أو اثنين على أقلِّ تقدير. لقد مكث الأبناء في بيوتِ آبائهم؛ هربًا من فزّاعة الإيجار، ويزدادُ الوضع في البلاد سوءًا فوق سوءٍ، كأننا نعيش في دولةٍ بلا حكومة، أو على نحوٍ أدق، دولة تحكمها مجموعة من التُجّار الانتهازيين.

دفعتُ الباب الحديدي بكلتا يديَّ، ورميتُ بثقلي كله على الباب بيد أنه لم يتحرّك البتة، فمدَّ أبي يده وأعانني في دفعه، ثم أفلتت منه قهقهةٌ وعقّب ساخرًا:

- يا لرقّتك.

"أكان البابُ ثقيلًا أم كنتُ أنا المنهك!" تساءلتُ في نفسي حائرًا، بدأتُ أرمي بصري في كل أنحاءِ المكان، يا للذكريات التي اصطدمت بناصيةِ دماغي، بيد أنّ مأمأة الخروف المربوط في الزاوية قد نفضت عن ذهني كل ما اصطدم به، أحسستُ بمأمأته ذعرًا يخفقُ به قلبه، كأنما كان يطلبُ النجدة من أحدٍ ما، مني ربما! "أكان يعلم بخاتمته الشنيعة!" خطر بذهني هذا التساؤل برهةً، فيما كانت عيناه تتلألآن رغبةً في الحياة، رغبةً لم تعد لديّ؛ إذ دُفنتْ يوم دُفنتْ بلقيس، وفي رحمها ينامُ ابني ذو السبعة أشهر. ثم تناهى إلى ذهني تساؤل آخر، بينما كنتُ أرنو إلى الخروف: "أكان يعلمُ أنهُ سيموت احتفالًا بعودتي أم كان يُحدّقُ بي فحسب؟!".

في تلك اللحظات تسرّب من الداخل صوتُ زغردةٍ حادّة، واخترقت طبلة أذني حتى كادت أن تثقبها، لطالما كان صوت الزغردة يُثيرُ انزعاجي، دلفنا من الباب الداخلي فكانت أمي في استقبالي في الرواق المفضي إلى غرفةِ المعيشة، وعلى شفتيها ارتسمت بسمةٌ بدت

حائرةً للوهلةِ الأولى، وعيناها اغرورقتا بالدموع فور رؤيتي. عاتبتني كمن لا حيلة لديه إلا العتب:

- كيف هان عليك فراقي؟

وضربتني من فرطِ شوقها، ثم حضنتني بلهفةٍ في تناقضٍ إنساني شائع حدّ الأُلفة، ومضت قائلة:

- ما أقسى قلبك يا ولدي، فقد خشيتُ أن يسبقك الموت إليَّ.

ثم طوقتني بكلتا ذراعيها في عناقٍ طويل، زغردت تارة وأُخرى بكت، وأنا مُتسمّرٌ بين ذراعيها، مُتبلِّدٌ، مُضطرب المشاعر، أضمُّ ذراعيَّ إلى جنبيَّ، أرنو إلى الفراغ بعينين مبهوتتين، ووجهي كان قد شحُب من التعابير الإنسانية كأنني تمثالٌ مصنوعٌ من الشمعِ، "ما خطبي! لماذا تبلَّدت عاطفتي؟" سألتُ نفسي مرتابًا.

ألقيتُ بصري حولي في نظرةٍ استكشافية سريعة، كان البيت مثلما هو دومًا، حتى رائحةُ الحنَّاء التي اعتاد عليها أنفي، كانت تضوعُ في الرواق، مُنبعثة من قبو البيت، وكأنما كان بيتنا قد بُنيَ خارج حدود الزمن.

دلفنا إلى غرفة المعيشة، وصخب الفرحة يلحقُ بنا.

- الآن عُدنا عائلة سعيدة.

هكذا هتف أبي، بعدما لمعت بعينيه عبرةٌ ما لبثت أن توارت في الحال خلف قناع الصلابة. ورغم أننا لم نكن يومًا عائلة سعيدة، إلا أنه لم يرَ تعاستنا يومًا؛ إن كان هو السبب، فكيف له أن يراها من الأساس؟!

أخفى عاطفته عبر ضحكته الصاخبة، ورافقتها مجموعة من دُعاباته العنصرية. فلطالما فسّر العاطفة ضعفًا، لذا أسرف بقسوتهِ في تربيتنا، "الرجل لا يبكي". هكذا كان يُردّدُ على مسامعنا على الدوام، عندما يبكي أحدنا، وكأنّ في البُكاءِ انتقاصًا من الرجولة!

وبينما كان أبي في غمرةِ دُعاباته، طرق سمعي صوتٌ قادمٌ من الرواق، اخترق الدُعابات العنصرية، وصخب الفرحة المتفاجئة من وجودها في بيتنا:

- عودًا محمودًا.

دلف إلى الغرفة مُكشّرًا عن أسنانه في ابتسامةٍ عريضة، ثم تابع كلامه:

- ما أسعدني اليوم؛ أخي الكبير عاد أخيرًا.

وتقدّم نحوي فاتحًا ذراعيه، لكن قدمه اليُسرى اصطدمت بالطاولة، فأوقع الدلّة والفناجين، وأراق القهوة على السجادة الأثرية التي قدّمتها جدتي هديةً لأمي يوم زفافها. يا للذكريات المدفونة بين زخرفتها، كم شهدت هذه السجادة معاناة جيل كامل. أدارت أمي بصرها نحوه في حنق، وزمجرت:

- ناصر!

لكن ناصر أعماهُ الشوق، فلم يُدر بالًا للفوضى التي تسبب بها، ومضى بقدمه فوق بقعةِ القهوة، ما زاد في تلف السجادة الأثرية وامتعاض أمي. حضنني غير مكترثٍ لامتعاضها أو ربما اعتاد على ذلك في هذا البيت، أن يكون المرء مشحونًا بالغضب طوال الوقت، وينفجرُ

على أتفه الأمور. وبينما كان يجلس بقربي، انحنت أمي في تذمرٍ تمسح بردائها السجادة الملطّخة ببقعةِ القهوة. رمى ناصر بصره نحوي محملقًا، مثل رسامٍ جذبه الوجع المحفور بملامحي، عاتبتني نظراته تارة وأُخرى احتفت بي، التقط أنفاسه ثم تأوّه قائلًا:

- آه، كم أفتقدك يا أخي.

وواصل التحديقَ إلى وجهي، بيد أنّ نظراته بدت ذابلةً، ازدرد ريقه وشدَّ قبضته على يدي، ثم رمق أبانا بنظرةٍ على نحوٍ مريب، وعاد ورمقني على نحوٍ مغاير، وأضاف:

- لعلك بحاجةٍ إلى الراحة؛ تبدو مرهقًا للغاية يا أخي.

قاطعته أمي:

- سأعدُّ لك طبقك المفضَّل على عشاءِ الغد، وسيكون الخروف المربوط في الخارج جاهزًا على المائدة عند المساء.

ثم أدارت بصرها إلى أبي، وتابعت:

- اشترِ خروفًا آخر، فهذا الخروف بات من نصيبِ ابني.

"آه، هي مصادفةٌ إذن، عودتي والخروف". فكّرتُ في نفسي، وأطلقت معدتي في هذه اللحظة كل إشارات الجوع، بيد أنني تنحنحتُ بصوتٍ عالٍ؛ خشيةً أن يسمعوا نداءات معدتي البائسة للطعام، وبرغمِ نداءاتها وحاجتها الشديدة للأكل إلا أنني كنتُ فاقدًا للشهيّة على نحوٍ غريب!

- 3 -

ابتلعت الظلمة قرص الشمس، وانطفأت أنوار البيت الكبير في تمامِ الساعةِ العاشرة مساءً، وخيَّم السكون في كل زاويةٍ من أرجاءِ البيت؛ لقد حان وقت النوم حَسَب التوقيت المحلي لوالدنا الموقر. وانفضَّ الجمع كُلٌّ إلى غرفته، عندما يخلدُ أبي للنوم لا بُدَّ أن يخلدَ الجميع أيضًا، إمّا طوعًا، أو قسرًا، أو يتظاهروا بذلك على أقلِّ تقدير.

كنتُ آخر مَن خرج من غرفةِ المعيشة مُتّجهًا إلى غرفتي في الطابقِ الأوّل، أسيرُ محني الظهر، كأنما العالم برمّته يتّكئ عليّ. وضعتُ قدمي اليسرى فوق الدرجة الأولى ورنوتُ إلى الأعلى، "أحتاجُ عمرًا آخر كي أبلغ الطابق الأوّل". قلتُ في نفسي قانطًا، ثم صعدتُ السلالم مُنهكًا، ووصلتُ الطابق الأوّل بشقِّ الأنفس، وقفتُ برهةً من الزمن ألتقطُ أنفاسي، وأتفحّصُ الممر المفضي إلى غرفةِ نومي، ثمّ عبرته، كان ضيّقًا أكثر مما أتذكره، أو ربما كانت العتمة هي السبب، لستُ متأكدًا! وعلى حينِ غرّة تجلّى طيفُ بلقيس بينما كنتُ أعبر الممر، ورافقني إلى نهايتهِ ثم تبخّر في الهواء مثل دُخانِ سيجارة.

وقفتُ على عتبةِ الغرفة بعد أن فتحتُ بابها بهدوء، أُحملقُ إلى بهيمِ الظلمة شاردَ الذهنِ، وألفُ فكرةٍ مجنونةٍ تجولُ في رأسي، تسمرت قدماي عند العتبةِ تأبيان الدخول، "يا للسخريةِ؛ عندما أرضخُ أنا إلى أوامر أبي وتثورُ قدماي!" فكّرتُ في نفسي.

وبين فكرةٍ وأخرى، لمعت فكرة الهرب في ذهني مثل مصباحٍ في مغارةٍ مُظلمة، "وليحترق البيت الكبير بعاداته". هكذا قلتُ لنفسي

بلامبالاة، فلم أعد أعبأ لشيءٍ في هذه اللحظة إلا العودة إلى شقّةِ الجابرية، لطالما كانت منطقة بيان تخنقني. وسرت في جسدي قشعريرة عندما عزمتُ على الهرب، فولّيْتُ ظهري للغرفة بعدما أغلقتُ بابها، وانطلقتُ أمشي على رؤوسِ أصابعي نحو غرفةِ أبي على الفور، في محاولةٍ للتسللِ خلسةً إليها؛ كي أسرق مفاتيح البيت وسيارته، مثلما كنتُ أسرقها في الأيام الخوالي، إذ كنتُ مراهقًا مُتمردًا آنذاك، يجدُ متعةً في النشوز عن العادات وكسر القوانين، لكن تمرّدي هذا لم يدم طويلًا لسوءِ الحظ.

فعندما استيقظ والدي على نحوِ المصادفة في ساعةِ القيلولة، ذات يوم نحس قبل عشرين عامًا، مشى نحو الحمام بخطى مليئة بالنعاس - مثل ما روى الحدث في الديوان لاحقًا - ووقع بصره على علبةِ المفاتيح الخشبيّة المعلّقة على الجدار قرب باب الحمام ينقصها مفتاح سيارته، اتّسعت عيناه ثم فركهما بظهرِ كفّيه وتفحّص العلبة جيدًا، وعندما تأكد من فقدانه هرع نحو النافذة يتفقد سيارته، واعتلت قسمات وجهه ملامح السخط، كزَّ على أسنانه بقوّةٍ حين عثر على موقف سيارته فارغًا، زلزل البيت بصوتهِ الغليظ مُزمجرًا، يندهُ علينا فردًا تلو الآخر، ونظرًا لغيابي كانت أصابعُ الاتهام كلها تُشيرُ إليّ.

حضّر عصاه الشهيرة بالعم بلال، إذ نالت من كل صغار الحارة ولا أذكرُ أحدًا قد نجا منها، ففي ساعة الغضب يغيبُ عقله وتُفكّر العصا عوضًا عنه، وكانت كفّه أسرع من الضوء. أمسك العصا وتوارى خلف مدخل الباب يتربّصُ بي، رجعتُ بعد أن أشبعت تمرّدي ببلوغي نشوة

العصيان والرعونة، رجعتُ ولم يكن في اعتقادي ذرّةُ شكٍّ أنّ أمري قد فُضح؛ لا سيما وأنني اعتدتُ على سرقة سيارته عشرَ دقائقٍ في ساعة القيلولة. لكن لو كُشف لي الغيب حينها، ما كنتُ سرقتُ سيارته البتة.

ركنتُ سيارته مثلما كانت قبل أن أسرقها، أو على نحوٍ أدق، أستعيرها، ثم دلفتُ البيت رافعًا صدري، بعدما رميتُ سيجارتي في الحديقة، ورحتُ أغنّي طربًا:

- آه يالأسمر يا زين...

ومن حيثُ لا أدري هبطت عصاه على مؤخرتي، وقاطعت غنائي، أدرتُ جسدي للخلف في صدمةٍ شلّت حواسي الخمس كلها، وتسمرتُ مثل قطعةِ خردة لا قيمة لها، فاغرًا فمي على وسعه، وعيناي تحملقان إليه مشدوهتين، تعطّل عقلي عن التفكير برهةً، وكان أبي استحال في هذه اللحظة غولًا، وانقضَّ عليَّ كما لو كنتُ فريسته، انطفأت في عينيّ شرارة التمرّد في الحال، وأُخمدت نار العصيان بداخلي، وبدأت النشوة تستحيلُ إلى خوفٍ شديد توغّل في أعماقِ روحي، أخذ قلبي يتصاعدُ خفقانًا، وبدأ العرق يسيلُ من جبيني في البداية، ثمّ تحت إبطي. كان مفتاح سيارته لايزال في قبضةِ يدي، فلم يعد الإنكار مُجديًا، انعقد لساني عن الكلام كما لو أنني فقدتُ النطق لثوانٍ، واغرورقت عيناي بالدموع في غضونِ ذلك، وبينما كنتُ أمامه مكسوًّا بالذل، فاجأني بصفعةٍ بكُلِّ ما أوتي من قوة، ترنحتُ على الفور كأنما الأرض اهتزّت من تحتِ رجليَّ، ثم شدّني من ذراعي نحوه وزجرني:

- سارق وتبكي؟! يا خسارة الجهد الذي بذلته في تربيتك.

ثم باغتني بضربةٍ أُخرى، كانت سريعة، بظهرِ كفّه الضخم، ورغم محاولتي البائسة في تفاديها إلا أنني لم أنجح في ذلك، وكادت أن تكسر فكّي الأسفل. استعان بعصاه مجددًا، رفعها ثم هوى بها على كتفي وأخرى على ظهري، كان يضرب بشغفٍ كأنما كان يُمارس رياضةً ما أو هوايته المفضّلة، كان يومًا نحسًا أذكره بأدقِّ تفاصيل الشعور الذي خالجني حينئذ. تعاقبت بعد ذلك الأيام مُحملةً بالنكد والعار، شعرتُ بالخور يمتصُّ تمرّدي، والهوان كان قد بصق في وجهي مُستعرًا.

وقفتُ عند عتبةِ بابه ويداي ترتعشانِ لمجرّدِ أن ومضت في ذهني ذكرياتي مع العصا، وعادت إليَّ كل المشاعر التي عشتها فيما مضى، من العارِ والخور والهوان، وشعر جسدي بمواضعِ الضرب، على ظهري، وكتفي، ومؤخرتي، كأنما ضُربتُ توًّا لا ذكرى قديمة عائمة في ذهني. سال خيطٌ رفيعٌ من العرقِ على يمينِ جبيني، وارتعدتُ عند بابه. "يا لهيبةِ بابه رغم تشابه الأبواب في بيتنا". فكّرتُ في نفسي. أمسكتُ المقبض أرتجفُ خشيةَ أن يُكشف أمري، وتتكرر الحادثة ذاتها مرّةً أُخرى، وجسدي لم يعد بوسعه تحمل العصا؛ بعدما بلغتُ الخامسةَ والثلاثين. التقطتُ أنفاسي بحذر؛ خشيةً أن تُحدث جلبة وسط هذا الهدوء، لويتُ المقبض بيد أنّ الحظ كان قد تخلّى عني أيضًا؛ وكان بابه مقفلًا.

أطرقتُ رأسي نحو الأرض مُحبطًا، وقد أُغلقت في ذهني كلّ المخارج من هذه الورطة، كان الوقت يُداهمني والساعةُ المعلّقة على الحائط في آخرِ الممر المفضي إلى غرف النوم تبعثُ القلق في نفسي؛ عبر صوتِ عقاربها المزعج: تك، تك، تك.

لكنْ ثمّة نور كان قد انبثق من نافذةِ أملٍ أطلّت بغتةً على فناءِ بؤسي، وقذفت فكرةً في رأسي، خطرت بذهني مثل شريطٍ سينمائي عبَرَ كومضاتٍ من الماضي، عندما كان أبي يُعاقبني على رسوبي في المدرسة بالحبسِ في غرفتي أسبوعًا، وما أكثر رسوبي آنذاك، وما أطول حبسي، بيد أنني لم أكن أعبأ لعقابِهِ؛ فدائمًا ما كنتُ أغافله في كُلِّ مرّةٍ يخلدُ فيها للنوم عند الظهيرة، وأتسللُ عبر نافذةِ المطبخ هاربًا إلى الساحة المجاورة لبيتنا؛ كانت كرة القدم شغفي الوحيد ومتنفسي آنذاك، ولولا أني خضعتُ لعملية الرباط الصليبي في سنٍّ مُبكرة لما غابت شمسُ الملاعب عن قدمي البتّة.

ملأتُ رئتيَّ بالهواء ثم ولّيْتُ مُدبرًا إلى المطبخ، كان السكون قد غزا الرواق، والممر المفضي إلى غرفِ البيت شبه المُظلمة، غرفةً، غرفة؛ إذ نام جميع أفراد الأسرة أو على نحوٍ أدق، تظاهروا بذلك.

هبطتُ فوق السلالم على رؤوسِ أصابعِ قدميَّ، وكانت الظلمة تزدادُ حلكةً كُلّما اقتربت من المطبخ، وكأنما ابتلعته بأجهزتهِ الكهربائية، وأواني الضيوف التي لا زالت في صناديقها مذ اشترتها أمي على مدى السنوات المنصرمة.

مددتُ يديَّ نحو الجدار أتحسسه مثل كفيفٍ يستدلُّ على طريقه بحاسّة اللمس، وتابعتْ خطواتي تقدّمها في الظلام، حتى بلغتُ النافذة في زاويةِ المطبخ، ضغطتُ على زر القفل بإصبعي أولًا، ثم فتحتها، فبصقتْ غبارًا في وجهي على الفور، "يبدو أن أحدًا لم يستعملها منذُ آخر مرّة استعملتها!" تساءلتُ في خلدي، ثم قفزتُ عبرها بصعوبةٍ؛ إذ لم يعد

جسدي بالمرونةِ ذاتها، وثبتُ فوق السور مثل لصٍّ اضطرهُ الجوع إلى السرقة، وأطلقتُ رجليّ للريح.

توقّفتُ عند ناصية الحارة قرب برّاد ماء السبيل، وانحنيتُ بنصفِ جسدي الأعلى إلى الأمام أتّكئ على ركبتيَّ بكلتا ذراعي ألهثُ تعبًا؛ لم أجرِ على هذا النحو منذُ أعوام مضت، مذ أن طاردني كلبٌ أشعث الشعر، بني اللون، في شارع الشانزلزيه في مدينةِ باريس، كان عمري آنذاك لا يتجاوز السادسة عشرة، لن أنسى الرعب الذي قذفه في قلبي، وقهقهات الناس حولي، وأُصبت على إثرِ الحادثة (بفوبيا) من الكلاب بأنواعها المختلفة، المخيف منها والودود مظهرها، وغدوتُ أرتجفُ ارتياعًا كلما سمعتُ نباح كلبٍ مهما كانت المسافة التي ينطلق منها بعيدة.

تفحّصتُ ببصري برّاد ماء السبيل الذي أقامه جارنا أبو عبد الله عن روحِ والدته، بيد أنّ الأكواب الحديدية المربوطة بسلسلةٍ من النحاس كانت متّسخة للغاية، وقد التهم الصدأ أطرافها بشراهة؛ مذُ وفاة أبي عبد الله لم يقم أحد من أبنائه السبعة بصيانةِ البرّاد. "ليته كان حيًّا؛ كي يعرف أنّ الأولاد ليسوا بالكثرة"، قلتُ في سرّي. تقدمتُ نحو البرّاد على أيةِ حال، وشربتُ بيدي مثلما كنّا نشربُ في المدارس الحكومية، عندما كان النجاح والرسوب هو همنا الأعظم. "آه، ليتنا لم نكبر البتة"، هكذا غمغمتُ في أسى.

ثم استأنفتُ المسير إلى الجابرية، أمشي بخطواتٍ أضناها التعب، وذهني كان مُجهدًا للغاية ومُشتتًا أقصى حدود الشتات، كأنني خرجتُ

تـوًّا مـن القـبرِ، بعـد عـامين مـن المـوتِ لأنصـدم بـالواقع الـذي كـان بانتظاري.

- 4 -

بلغتُ شقّة الجابريـة وقـد تورَّمـت قـدماي مـن المشـي؛ إذ لـم تهـدأ لحظةً واحـدة. وانتصبتُ قُبالـة بابـه المخلـوع ألـتقطُ أنفاسـي علـى نحـوٍ مُتقطّع، شهيق، زفير. ثم هبطتُ على عتبتهِ مثل صـخرةٍ هـوت مـن أعلـى الجبـل، ورنـوتُ إلـى السـماء أتأمّـل نجومهـا، وغُربـان الـذاكرة تنقـرُ في دماغي، أطبقتُ جفنيّ مُرهقًا لكن الغُربان لا تنفك تنقُر.

أخـذتُ شـهيقًا عميقًـا ثـم أطلقتـه زفيـرًا، كأنمـا أُحـاولُ عـبر تنظـيم أنفاسـي الـتخلصَ مـن نقـر الغُربـان المـزعج، كررتهـا مـرّةً أُخـرى بيـد أنّ الغُربان واصلت نقرها. علـى أيةِ حـال وقفـتُ مُطـأطئ الـرأس، ودلفـتُ أجرُّ قدميّ خائر القوى.

فتحتُ باب الشقة، بدأتُ أطوف بين الأثاث العتيق في طريقـي إلـى غرفةِ نومي، والذكريات تقرعُ أبواب ذاكـرتي، أحـاول ألا أفـتح لهـا هـذه المرّة، بيد أنّ بصري وقع مُصادفةً على صورتها عند دخولي غرفة النـوم، كانت على قاربٍ خشبي يتمايلُ بها غنجًا، وابتسامتها تشعُّ براءةً، كنتُ قد التقطتُ لها هذه الصورة في مدينةِ البُندقية، مدينةِ الحُبِّ. تناولـتُ الصـورة من فوقِ المنضدة، ثم قلتُ لنفسي متأوّهًا:

- أيُّ حُـزنٍ كـان ليصـمد أمـام ثغرهـا المتبسّـمُ؟ كانـت هديـةً مـن السماء، وها هي تعودُ إلى السماء.

جلستُ موجوعًا على السرير، وحضنتُ البرواز كمجنونٍ، هبطت دمعتان من عينيَّ، ثم تابعتُ هذياني بصوتٍ مُتهدج يغلبه الخور:

- حبيبتي بلقيس، إني أتعفنُ وجعًا وروحي تذبلُ يومًا بعد يومٍ، لا الموت - يا عزيزتي - يرحمني، ولا الذكريات التي تتعثر بها ذاكرتي كُلَّ يوم تعتقني من هذا الجحيم.

وتحسّستُ زُجاج البرواز بأصابعي، ثم تأوَّهتُ مُستطردًا:

- آه يا بلقيس، إني أحتاجُ إلى جسدكِ محرابًا؛ حتى يُصبح عناقنا عبادة، وشفتاكِ تغدوانِ مزارًا.

حضنتُ البرواز ممزّقُ الفؤاد، ثم تمددتُ فوق السرير مُضنًى، والبرواز بقي على صدري، "إنّ الذكريات القديمة تبعثُ السقم في قلبي". تذمّرتُ في خلدي، ثم أفلتت من جوفِ الألم القاطن في قعرِ الفؤادِ آهةٌ، أغمضتُ عينيَّ المدمعتين عسى أن ترتاحا قليلًا، لقد أرهقتني الحياة في غموضها المظلم، ماذا تصنعُ بنا الحياة غير أنَّها تزيدنا بؤسًا، وترقصُ فوق جراحنا وتعبثُ بأحلامنا، أُفتّشُ عن معنى لها فلا أجد إلا العدمية، سُحقًا للعدمية التي سمحت للحياة بأن تعبثَ بنا وتتسلّى بأوجاعنا.

وفي غضونِ ذلك، كانت حواسي الخمس قد استسلمت للهذيانِ وأطبق النعاس على جفنيّ مثل مخدرٍ مُحرّمٍ، توغّل في شراييني، وأطلق العنان لروحي المحبوسة في جسدي البائس كي تُسافر نحو سماء الأحلام، أو على نحوٍ أدق، تهيمُ في دنيا الكوابيس.

- 5 -

"هرعتُ في الظلامِ بائسًا، والشبح مُبهم الملامح لا ينفكُ عن مُطاردتي، يخفقُ في قلبي الهلعُ، والعرق يتصبّبُ من جبيني، أتلفّتُ حولي مذعورًا ولا شيء أبصره في الدُّجى؛ كأنما الظلمة ابتلعتني في جوفها، وقفتُ هائمًا على وجهي، أزدردُ ريقي، وألتقطُ أنفاسي هُنيهةً، شهيقًا، زفيرًا، لكن على نحوٍ مُضطرب، وبغتةً يتجلّى هذا الشبح من العدم، ويقتربُ نحوي بسرعةٍ بالغة، يقتربُ أكثر.. فأكثر...".

ضرباتٌ مُتتالية على الباب - كادت أن تخلعه من مكانه - أيقظتني من كابوسي المزعج، فتحتُ عينيّ مُحملقًا إلى السقفِ، وقلبي لا زال يخفقُ جزعًا من تكرار هذا الكابوس، لقد استيقظتُ والعرق ينزُّ من جبيني، وكان حلقي جافًّا، كما لو أنني قُذفتُ في قلبِ صحراء قاحلة لأسبوعٍ بحاله. توالت الضربات على بابِ الشقة، "أأشكر الطارق؛ إذ أيقظني أم كان الكابوس أرحم مما ينتظرني؟" سألتُ نفسي متوجسًا.

ازداد القرع على البابِ عنفًا، وخيل إليّ أنني أسمعُ أنينه كأنما كان يستنجدُ بي، "مهلًا، أأنينُ البابِ هذا أم قلبي!" تساءلتُ في خُلدي مُرتابًا، إلا أنني نهضتُ على أيةِ حال، ومشيتُ نحو الباب أجرُّ قدميَّ على مهلٍ، غيرَ مُكترثٍ للطرقِ أو الطارق، واصلت خطواتي سيرها، وما زال النعاس في غمرتهِ، أمسكتُ المقبض وقد فغرتُ فمي على وسعه في تثاؤبٍ طويل، ثم فتحتُ الباب فارتدّ عليَّ من فوره، وارتطم بوجهي بقوة. دلف أبي ينهالُ عليَّ بوابلٍ من الشتائمِ، ثم أمسكني من تلابيبي وهزّني زاجرًا كأنني جذعُ نخلةٍ يابسة:

- إن لم يكن اللين نافعًا فاعلم أنّ عصاي تتوقُ إلى جسدك.

قطَّب حاجبيه مُغتاظًا، وزمَّ شفتيه حنقًا، وراح يُهدد في لهجةٍ جادة:

- لا تظن بأنك كبرت على الضرب، لعمري أنك ما زلت طفلًا؛ تُفضّل الهرب على مواجهةِ الحياة.

في غضونِ ذلك، كان ناصر قد وصل، بدا وجهه مُضطربًا بخلافِ أخي حمد، دلفا الشقة وحالا بيني وبين أبينا، بيد أنه واصل صياحه وتهديداته، وتابع أيضًا السُباب وأقذر أنواع الشتائم. على الفور أغلق حمد باب الشقة؛ تجنبًا للفضائح، وأمسكني ناصر من مرفقي وقادني إلى غرفةِ النوم في الحال، بينما حمد أخي الصغير - الذي كبر كثيرًا في العامين الماضيين - علق مع أبي في غرفةِ المعيشة، "يا للمسكين". هتفتُ في سرّي.

وقفتُ قبالة النافذة أزفرُ غضبًا بعدما دلفتُ غرفة نومي مباشرةً، وأوصالي ترتجفُ ارتيابًا قد اجتاح أعصابي. انعكس وجهي الكئيب في هذه اللحظة على زجاجِ النافذة، فلمحتُ في عينيَّ حُزنًا عميق، ومسحةً من السخط، جعلاني أرى الحياة رمادية اللّون، كما لو أنّ عينيّ تشكوانِ من خطبٍ ما. ثم رنوتُ في بؤسٍ إلى الشمس. "يا لهيبتها". فكّرتُ في نفسي، وأطرقت بصري في الحال إلى الساحة الترابية في الأسفل؛ بعد أن أحرقت الشمس عينيَّ بحدّةِ أشعتها. "هذا الجسد البائس ينتمي إلى التراب، بينما الروح إلى الشمسِ انتماؤها، أأفعلها وأنهي مأساتي!"، هكذا تساءلتُ مُضطربًا. ربَّت ناصر على كتفي في تلك اللحظة، ودنا مني قائلًا بلهجةٍ يكتنفُها الخوف؛ كأنما سمع هذياني:

- اذكر ربّك؛ فإنّ بذكرِهِ تطمئنُ القلوب.

وملأ صدرهُ شهيقًا ثم زفره مهمومًا، جال ببصره في أرجاءِ الغرفة كأنما يبحثُ عمّا يقوله، واستطرد:

- لا تنزعج من عصبيته؛ فهو يضمر خلفها طيبةً عظيمة.

شزرته برهةً ثم أدرتُ وجهي نحو النافذة مرّةً ثانية، كان الاستهجان في ملامحي بمثابةِ إجابةٍ وافية، افترّ ثغره عن ابتسامةٍ بلهاء، ومضى يقول:

- لولا المحبة التي يضمرها لك ما ثار عليك غاضبًا البتة.

كانت جملته الأخيرة هي الشّعرةُ التي قصمت ظهري، التفتُّ إليه وانفجرتُ ساخطًا:

- ما قيمة المحبة التي يضمرها لي وهو كاره لي أشدّ الكره، وجلفٌ في معاملته لي أقصى حدود الجلافة.

ثم جلستُ على الكنبة البيضاء ذاتها، أخذتُ شهيقًا عميقًا، وخيل لي أنّ عطرَ بلقيس تسلل خلال الشهيق إلى رئتيَّ كأنها تُحاول تهدئتي قدر المستطاع عبر عطرها، بيد أنني لم أهدأ وواصلتُ:

- ما نفعُ طيبةُ قلبهِ ما لم تحمنا من غضبه العاصف!

وصحتُ بنبرةٍ ترتعش اضطرابًا:

- لقد تورّمت أجسادنا من غضبهِ، واغتصب أحلامنا بعجرفتهِ، لقد ذبح الطفولة في داخلنا يا ناصر، فأين كانت مُخبأةً طيبته التي تزعمها؟

مضت ثوانٍ تبادلنا خلالها النظرات في صمتٍ مُطبق، قبل أن أصرخَ بملء حنجرتي بغتةً:

- أين كانت.. أخبرني!
- لا تبخس الرجل حقّه، مهما ارتكب من أخطاءٍ، فقد ارتكبها بدافعِ المحبّة...

قاطعته وعيناي تقدحانِ شررًا:

- أبخسه حقّه!

واعتدلتُ بجلستي في الحال، ثم سألته بتهكّمٍ:

- أيُّ حقٍّ قد بخسته إياه؟ أجبني!

راحت عيناه تفرّانِ مني يمينًا ويسارًا، كأنه يبحثُ عن إجابةٍ تُنجيه من موجِ الغضب المتدفقِ من عينيَّ، ثم صوّب بصره إلى عينيَّ مباشرةً، وقد اتّسعت عيناه كأنما عثر على إجابةٍ مُقنعة:

- ألا يكفي بأنه احتوانا تحت كنفه؟

وطافت على شفتيه المرتبكتين ابتسامةٌ، هي ذاتها الابتسامة البلهاء، وداري بها حرجه. حدجته برهةً وجيزة من الزمن، ثم أجبته:

- لقد خلّفنا بمحضِ إرادته وهذا أبسط ما يُقدّمه لنا.
- أوليس حقّه علينا كأب أن نُطيع أوامره!

صرختُ مُنفعلًا، بعدما انتصبتُ ثائرًا، أشوّحُ بكلتا يديّ بحنقٍ:

- لا، لسنا خرافًا أو دُمًى ابتاعها من السوق.

وتابعتُ كلامي بالانفعالِ ذاته:

- كونه أنجبنا، هذا لا يُعطيه الحق باستعبادنا؛ فقد خُلقنا أحرارًا.

وانطلقتُ أذرع الغرفة ذهابًا وجيئة، أتمتم تذمرًا تارة، وأزفرُ استياءً تارةً أُخرى، ثم تسمّرتُ بغتةً أمامه، أُحدّقُ إليه بحدّة، وسألته:

- أتعرفُ ما هي مشكلته؟
- عصبيّته!

قالها مرتبكًا.

- لا، بل اعتقاده بأننا مُلكٌ له، مُجرّد عبيد خلّفنا لخدمته وحسب.
- تلك مشكلة الآباء كلهم يا أخي.
- بل هي مشكلة المجتمع برمته.

أفلتت منه قهقهةٌ أعادتني بضع سنوات إلى الوراء، عندما كانت السُّخرية من همومنا هي المتنفّسُ الوحيد لنا، ودونها لا نقوى على مواصلةِ العيش في هذا البيت التعس، بيد أنني رمقته مزدريًا ضحكته، لكنه تصنّع اللامبالاة، عبر مواصلته القهقهة.

- بدأنا بمشكلةِ أبينا وانتهى بنا الحديث بمشكلةِ المجتمع.

قال بنبرةٍ فيها مسحة من الحنين، وأضاف بصوتٍ مُتهدج:

- آه، لقد اشتقتُ إلى جنونك يا أخي.

أشحتُ وجهي عنه في مكابرةٍ؛ كي لا يلمح لمعة الحنين في عينيَّ، "يا لمكابرتي". فكّرتُ في نفسي، كانت بلقيس تتذمر منها أحيانًا، بل كان تذمرها يبلغ منتهاه عندما أُكابر على أخطائي. "لا ضرر من ارتكاب الأخطاء، لكن الضرر كله يكمنُ في المكابرة". هكذا كانت تُرددُ على مسمعي مرارًا.

وقفتُ قبالة النافذة مرّةً أخيرة، محني الظهر، يتكئ جبيني على زجاجِ النافذة، وبعد ثوانٍ وجيزة رفعتُ رأسي ورنوتُ ببصري إلى السماء،وكان السحاب قد تجمع هناك، وبدا لي أنه تشكّل بهيئةِ أنثى، أمعنتُ النظر، "هذه ملامحها". قلت لنفسي في ضربٍ من الجنون، ثم أطبقتُ جفنيّ؛ كي أستحضرُ صورتها من ذاكرتي. وفي غضونِ ذلك، كنّا قد استسلمنا للصمتِ دقائق؛ فلم يعد من كلامنا نفعٌ، وكلانا يعرف تمام المعرفة أنني سوف أرضخُ في نهايةِ المطاف إلى جبروتِ أبينا، وأعودُ إلى البيت مكرهًا، هي مسالة وقت لا أكثر، وهذا العناد وكل الكبرياء محضُ هُراء، دنا مني ثم صوّب عينيه إلى الزاويةِ ذاتها التي رنوتُ إليها، ثم سألني:

- إلى أيِّ ذكرى اجتاز ذهنك؟

أجبته بتساؤلٍ بعدما تسرّبت من فؤادي تنهيدةً:

- لماذا يسعى الآباء إلى فرضِ نمطِ حياتهم على أبنائهم عنوةً!

ثم فركتُ جبيني بأصابعي النحيلة مُتعجبًا، وغمغمتُ بتساؤلٍ آخر:

- أَوَلم يُدركوا بعد أننا خُلقنا لزمانٍ غيرِ زمانهم!
- يفعلون ما تراهُ خاطئًا بدافعِ المحبّة، ألا يغفر هذا الحب خطأهم!
- يا للتعاسة؛ عندما نُبرر القسوة بمحبّةٍ نسمعُ بها ولا نراها، مثل الخُرافة.

دلف حمد بينما فرغتُ من جملتي هذه، وكانت ضحكته الصاخبة تطرقُ مسامعنا قبل ولوجه، أثنى على نفسهِ في مزحٍ بدا نصفه جد:

- لا أدري لولا حنكتي ما هو مصيركم؟

وتقدّم نحونا بضعَ خطواتٍ مثل طاووسٍ، إلا أنّ ناصر قاطعه في الحال، وكان قد رفع سبابته ووضعها أمام شفتيه:

- أووش.

ثم تابع هامسًا وعيناه تتفقّدانِ مدخل الغرفة:

- أرجوك، اخفض صوتك؛ لا نُريد أيّةَ مشاكل مع أبيك.

أجابه بعدما رفع صدره للأعلى، وداعب طرف شاربه بإبهامه والسبابة بفحولة:

- أوَتعتقدُ بأنّ رجلًا مثلي يخشى شيئًا.

افترَّ ناصر عن ابتسامةٍ ساخرة وهتف:

- لقد رحل، صح!

- أكيد.

وغرق في الضحكِ ثم استطرد:

- وإلا ما كنتُ تكلّمتُ بهذه الثقة المفرطة.

تبسّمتُ في تهكمٍ، وعقّبتُ ساخرًا:

- أدولف هتلر لا يوسف الياسين.

وأضفتُ مُستنكرًا:

- لا يُفترض بالأب أن يكونَ قاسيًا حدّ الرعب.

استلقى حمد على الكنبة، ثم مدّد قدميه بعد أن أسند رأسه مُسترخيًا، وقال بصوتٍ صاخب:

- لطالما كانت هذه الكنبة مُحببةً إلى نفسي، اختيارٌ موفّقٌ يا بلقيس.

وكان قد رفع بصره إلى الأعلى عندما نطق "بلقيس" كأنما كان يوجّه الكلام إليها. ثم أطرق بصره نحوي في نظرةٍ خاطفة، ومضى في حديثٍ آخر:

- أليست هي الكنبةُ ذاتها التي يملكها الأطباءُ النفسيون؟

تجاهلتُ سؤاله قاصدًا مُتقصّدًا، وسألته مصوّبًا عينيَّ نحوه بحدّة:

- بماذا أمرك السيد يوسف الياسين؟

رمقني بعدما أطلق زفرةً طويلة، ثم اعتدل بجلسته، ووضع قدمًا فوق الأخرى واكتفى بالتحديق إليّ بنظرةٍ مُبهمةِ المعاني، وافترَّت شفتاه عن ابتسامة لا تقلُّ غموضًا عن نظرته، كررتُ سؤالي بنبرةٍ أشد بعد أن تنحنحتُ مُنزعجًا، فأجابني بلهجةٍ جادّة:

- أنصت إليَّ يا أخي، أنصت جيدًا.

ازدرد ريقه، بدا ناشفًا، وتجلّت على قسماتِ وجهه مسحة من القلق، ثم استرسل:

- لن تصل بالعناد إلى مُبتغاك؛ ما عانده أحد وربح. أنت تعرفُ ذلك حقَّ المعرفة، قد يكون أسلوبه في التعاملِ معنا خاطئًا، قاسيًا، جلفًا، سمّه ما شئت، لكن هذا لا يصنعُ منه ندًّا، البتة، ففي نهايةِ المطاف مصلحتك هي جُل ما يسعى إليه، ربما نختلف في وجهات النظر حول طريقته في التربية لكننا بلا ريب نتفق على صدقِ نيّته في حبّنا.

أمسك عن الكلام هُنيهة، ثم استطرد بنبرةٍ يشوبها الغم:

- لقد بلغ أبونا من العمرِ عتيًّا، ووراء مظهره القاسي ثمّة ضعفٌ، وخور، يغورانِ في فؤاده المحطّم، إنه يحنُّ إليك كثيرًا، أنت ابنه البكر يا رجل، افهم.

حملقتُ إلى وجهه وشرعت عيناي تتّسعانِ قلقتين، بيد أنه قلقٌ أضمرته حتى عن نفسي، تلعثمتُ بحروفي مرتبكًا، وحاولتُ أن أتفوَّه بشيءٍ من المنطق لكن لساني انعقد عن الكلام، رنوتُ ببصري إلى ناصر تارة وإلى حمد تارة أُخرى، وكانت عيناي تضجّانِ ضياعًا. بادر ناصر بالقول:

- استعذ بالله من إبليس، وعُد معنا.

أمّا حمد، فنصحني:

- تحمّله يا أخي، تحمّله مثلما تحمّلنا صغارًا، فهذا أقلّ ما نُقدّمه له بعدما هرم.

وما إن فتحت فمي أشرعُ بالرّدِ حتى قاطعني على الفور:

- أعرف أنهم أنجبونا باختيارهم، لقد حفظتُ موالك التعس هذا عن ظهرِ قلب.

وأضاف بعد أن غمز بعينهِ جادًّا، إلا أنه جدٌّ امتزج بالمزاح كما هو دأبه كلّما أراد أن يدس مُرَّ الحقيقة في العسل:

- لكن ها أنت قد أنجبت ابنتك بمحضِ إرادتك، وها أنت تتخلّى عنها، وتهملها بإرادتك أيضًا، على خلافِ ما فعله أبونا، أفهكذا يكون جزاء الإحسان يا أخي؟

بلعتُ كلماتي أو ربما اختنقتُ بها! "متى نضج هذا الأحمق؟" سألتُ نفسي منزعجًا، ورغم أنني حاولتُ اختلاق حجّة فرضية

أُجادله بها، إلا أنّ حججي كلها قد توارت خلف رايةٍ بيضاء كبيرة، ولم أعثر على أيّةِ حجّة شُجاعة أُحاربه بها. ربَّت ناصر على كتفي قائلًا:

- خفِّفْ من كبريائك يا أخي؛ كي ترى الأمور بصورةٍ أكثر وضوحًا.

أطرقتُ رأسي مهزومًا، مُشوّشَ الذهنِ؛ إذ كانت مفاهيمي عن الحياةِ شرعت تنقلب رأسًا على عقب في لحظة، وخالجني شعور بالضياع، وبألمٍ حاد في معدتي مثل سكينةٍ تنغرس في الخاصرة.

صمتٌ مُهيبٌ أطبق بقبضته على المكان، وشعرتُ بالزمن يتعطّل، كأنما الأرض قد توقفت عن الدورانِ برهةً وجيزة، أم أنني نفيتُ خارج حدود الزمن! "أكنتُ على خطأ طوال السنوات المنصرمة، أم كان الخطأ هو الصواب؟"، هكذا سألتُ نفسي مرتابًا.

أسندتُ جبيني إلى راحتيَّ في ضياعٍ مما التبس في ذهني، وبينما سبر تفكُّري غورًا في الشك، لاح تساؤل في عقلي المتوجّس على حينِ غرّة: "بأيِّ معيارٍ تُصنّفُ الأفعال بين الصوابِ والباطلِ، إذ هو أمر غاية في النسبية، يختلفُ من زمانٍ لآخر!".

أطبقتُ جفنيَّ مُتعبًا، وحاولتُ الهرب بخيالي، بيد أن لا مناص من الواقع إلا عبر مواجهته، ثمّ فتحتُ عينيّ ورفّتا في قلقٍ من فكرةِ مواجهة الواقع. أيقنتُ حينئذٍ أنّ محاولاتي السالفة في كسرِ قيود المجتمع كان الفشل مُقدّرًا لها لا محالة؛ فقيود مجتمعنا تكتنفُ بي مذْ تشكّلتُ جنينًا في رحمِ أمي.

لا أدري إن كنتُ قد رضختُ أم اقتنعت، لكنني في نهاية الأمر أومأتُ برأسي موافقًا، ولملمتُ ما استطعت من نفسي المبعثرة في أرجاءِ الشقة، ثم ودعتُ المكان ببصري في نظرةٍ تحملُ وجعًا عميقًا مثل وجعِ الكمان في عزفٍ مُنفرد في مقطوعةٍ ما لتشايكوفسكي، وشرعتُ أستنشقُ رائحة المكان، وأحفظها في ذاكرةِ رئتيَّ، ثم بأطرافِ أصابعي ودّعتُ الجدران والأثاث خلال لمسها.

ثمّة شيءٌ ما في داخلي يؤكدُ لي أنّ قدميّ لن تطآ هذه الشقة مرّةً أُخرى، وخيل إليّ في مسحةٍ من الهذيانِ جالت بذهني أنّ الجدران تتوسل إليّ ألا أغادرها، والأثاث يئنُّ من فراقي، وروائح المكان المليئة بالذكريات الجميلة تتشبّثُ بثيابي، وترجو بقائي، لكنني أدرتُ ظهري مُرغمًا، مُتظاهرًا بالقسوة وغادرتُ الشقة.

خرجتُ من المبنى أتبعهم - مُنكّسًا رأسي - نحو السيارة، إلا أنني توقّفتُ لبرهةٍ في مُنتصفِ الطريق، واستدرتُ نصفَ استدارة إلى الوراء، رنوتُ ببصري إلى الأعلى نحو نافذة شقّتي، وعبرت بذهني في غضونِ لحظةٍ عابرة، حملت معها موجة من ذكرياتي مع بلقيس، تجمّعت كلها في ابتسامةٍ عابرة مرّت بشفتيَّ.

- ياسين!

هتف ناصر، ثم أطلق بوق السيارة في اصطيادِ انتباهي، حملقتُ إليهما مُتغضّن الجبين، ثم لوّحتُ بيدي لهما مُتمتمًا:

- قادم، قادم.

ثم مشيتُ نحو السيارة، وركبتُ. كان حمد قد ترك لي المقعد

الأمامي، وانحشر في الخلف بجانب صناديق عدّة، كانت مليئة بأدواتِ الصيد، وكُل ما يخص القوارب، في عادةٍ تشير إلى احترامِ الأخ الكبير. "لا أدري أكان احترامًا حقًّا، أم هي عادة فحسب تربينا عليها وباتت تسمى في مفهومنا لاحقًا احترامًا!" فكّرتُ في نفسي، انطلق ناصر في تلك الأثناء على أقلِّ من مهله، تهكّم حمد في الحال:

- آه، ناصر، بربّك!

وأضاف بينما كان يتظاهر بالنعاس:

- أيقظاني من النوم إن وصلنا.

- نمْ، نمْ، نوم الظالم عبادة.

ثم ألقى بصره نحوي في نظرةٍ سريعة، ومضى يقول في سخرية مُضادة:

- يحسبنا في حلبةِ سباق!

"ما زالا يلعبانِ دوري القط والفأر". سخرتُ منهما بدوري، لكن في خلدي فحسب، ومضيا في مناوشة بعضهما - مثل طفلين لا يكبران - طوال الطريق.

دلفنا الحي، وتجلّى البيت الكبير بنوافذه الكئيبة، والشمس شرعت تتوارى عن الأنظار، عاودني الألم ذاته في معدتي عندما اقتربنا من بابِ البيت، وتزاحمت الذكريات التعسة عند مدخل ذاكرتي، رفعتُ بصري إلى السماء في رجاءٍ إلى الله، ثمّة سربُ حمامٍ يُحلّقُ فوق السطح كأنما يُنذرُ بشؤمٍ قادم.

دلفتُ وحمد كان يتقدّمني ببضعِ خطواتٍ، بينما ناصر كان قد دلف برفقتي، وثمّة ابتسامة باهتة تجلّت على ثغره تارة، واختفت تارة أُخرى،

أضمر خلالها شفقة، وأضمرت له شفقةً بالمقابل؛ فكلانا عانى وذاق المرّ ذاته تحت سقف هذا البيت.

بيد أنّ حمد كان وضعه مُختلفًا؛ إذ نال مكانة - لا أدري كيف! - عند أبي. "ربما كان يرى نفسه في هذا الابن دون غيره!"، تساءلتُ في نفسي، إلا أنّ قمّةَ الجور عندما نُفضّل أبناءنا على أخوتهم لأنهم نسخة مطابقة لنا فيما مضى.

وبات حمد عندئذٍ ابنه المفضّل على خلاف البقية المتمرّدة منّا، وهذا ما قاده - قبل ثلاثةِ سنواتٍ - إلى الاجتماع بكبارِ العائلة في ديوانهِ، ثم طرح الفكرة قبل العشاء، ولاقت استحسان الجميع، وقرروا تهيئة حمد لمجلسِ الأمة خلفًا لعمي طلال، فور بلوغه سن الثلاثين. لا ريب أنهم تعاملوا مع المنصب المنتخب كما لو كان إرثًا للعائلة؛ وكانوا يؤمنون بذلك حقًّا.

دلفتُ غرفة المعيشة، وكان أبي يجلسُ على مقعدهِ المفضل، عابسًا، مُقطّب الحاجبين، رنا إليّ بنظرةٍ مليئةٍ بالغضب ثم أشاح وجهه، حاول حمد أن يُخفف وطأة التوتر قليلًا، فتقدّم نحو أبي، ومازحه:

- اليوم "ديربي" الغضب.

وأفلتت منه قهقهةٌ ساخرة، مُستفزّة، ثم مضى في كلامه مُتهكمًا:

- انتهى زمنُ فريقك يا أبي، وأنصحك بأن تمضي مع فريقٍ آخر، "Lyon" الفرنسي مثلًا.

أجابه بالإجابة ذاتها التي علقت بلسانه طوال الخمس سنوات الماضية:

- الفرق الكبيرة تمرض ولا تموت أيها الأبله، وسنهزمكم بتاريخنا لا بلاعبينا.
- مع مرورِ الوقت سوف يُصبح تاريخكم حافلًا بالإخفاقات.

تذمّر أبي - بينما كان يهزُّ رأسه مُتهكّمًا - بكلماتٍ لم أستطع سماعها، بيد أنها بدت بذيئة، ثم تنحنح وواصل:

- حسنًا، سوف يكون الرد على كلامك في المستطيل الأخضر، وتحديدًا في ملعب "السان سيرو".

وفي غضونِ مناوشة حمد لأبي؛ محاولًا تخفيف حدّة التوتر، تقدّمت أمي نحوي، وبرفقتها طفلة لا تتجاوز الخامسة، أمعنتُ النظر في ملامحها، وسحرتني بالبراءةِ المنبعثة من عينيها الواسعتين، مثل نافذتين تطلّانِ على الجنة، وشعرها الغجري، المتمرّد على الرتابة، كانت قد حدّقت إليّ تارة، وتارة أُخرى دفنت وجهها في ثوبِ أمي، هتفتُ في رقّة:

- أتعرفين مَن أكون؟

احمرّت وجنتاها وهزّت رأسها نفيًا، ثم شدّت ثوب جدّتها أكثر؛ وشرعت تُغطّي وجهها مرّةً أُخرى، قالت أمي في الحال:

- اعذرها، لم تعرفك؛ فقد تغيّرت ملامحك كثيرًا عن الصورة التي بحوزتها.

تبسّمتُ شاحب الوجه، وتابعت:

- تعالي إليّ، تعالي إلى أبيكِ يا صغيرتي.

تقدّمت خطوة بيد أنها تراجعت على الفور، واختبأت خلف جدّتها، قهقهت أمي قائلة:

- لا داعي للشعورِ بالخجل؛ فهذا والدكِ.

افترّ ثغري عن نصفِ ابتسامةٍ، ورنوتُ إلى أمي بينما صوّبت هي بصرها نحوي في نظرةٍ عتب شديدة. تجاهلتها، وحضنتُ الصغيرة فور ما اقتربت مني، قبّلتها على جبينها بعدما طبعتُ قبلتين على خديها الملطّخين بالشوكولاته، ثم سألتها ولا تزال نصف الابتسامة ترفُّ على شفتي:

- كم أصبح عمركِ يا حبيبتي؟

ألقت بصرها نحو أمي، و ازدادت وجنتاها احمرارًا، فهمست لها بصوتٍ رقيق:

- قولي له: خمسة أعوام.

افترّ ثغرها الملطّخ بالشوكولاته عن ابتسامةٍ عريضة، وكررت الجملة ذاتها:

- خمسةُ أعوام.

بيد أنّ حرف السين كان قد سقط من ثغرها وحلّ محلّه حرف الثاء، فأضحت الكلمة "خمثةُ أعوام" لفظتها بكُلِّ براءةٍ، وتسرّبت من حنجرتي قهقهة قصيرة أشبه بالتجشؤ، ارتعبت على إثرها - على ما يبدو! - وجرت نحو جدتها، واحتمت بحصنها المنيع. لا غرابة إن احتمت بجدتها مني؛ فأنا والدها الغامض، الغريب، الذي لا تمتُّ ملامحه بصلة إلى الصورة التي بحوزتها.

حضنتها أمي بشدّة قائلة:

- لِمَ الخوف يا بلقيس؟ هذا والدكِ، بابا ياسين.

وما إن قرع اسم بلقيس باب ذاكرتي، حتى هاجت ذكرياتي كلها في وجه الحاضر، مثل جُرحٍ لم يندمل وشرع بالنزيف، انتفض جسدي انتفاضة واهنة، وعبرت بقلبي رعشةُ حنينٍ مُخلّفة في الفؤادِ حرقةً. بيد أنني تبسّمتُ رغم ذلك؛ كي لا أُثير القلق في قلوبهم، لا سيما قلب أمي، تمالكتُ نفسي قدر المستطاع، ثم أجبت:

- دعيها يا أمي، لا تُجبريها على شيء.
- لا تحزن يا بُني، ستعتادُ عليك مع مرورِ الوقت.
- إن كان في الوقتِ مُتّسع.

هكذا تمتمتُ، وارتسمت على شفتيّ الذابلتين ابتسامة باهتة، خاوية من الحياة. وفي غضونِ هذه اللحظة رفع ناصر بصره بعدما كان مُطرقًا إلى شاشةِ هاتفه، ابتسم ملء فمه، وعقّب:

- هناك وقت، لا تقلق يا أخي.
- ظننتُك مشغولًا بهاتفك!
- عيناي هما المشغولتان فحسب، بينما أُذناي طليقتان، وتتنصتان طوال الوقت على كل ما يُقال حولي.

وغمز بعينهِ مُعتزًا بنفسه كما لو كانت هذه موهبةً فذّة، ثم أطرق رأسه مجددًا إلى هاتفهِ، فيما شرعت عيناي تجولان في أرجاءِ غرفةِ المعيشة تتفحّصانها. كانت الكنبات هي نفسها مذْ أبصرتُ النور، والسجادة المهداة من جدّتي ربما ازدادت قدسيةً عند أمي - مع مرورِ الزمن - أمّا الأمر الذي بدا غريبًا لي، فهو الراديو القديم فوق المنضدة الخشبية قرب مقعد الوالد المفضل، لا زال يعمل! كأنما المكان بكل

تفاصيله العتيقة، كان قد نفذ من دائرةِ الزمن نحو الخلود، ونجا من لعنةِ الفناء المحتوم، إلا أنّ التلفاز المسطّح، المعلّق على الحائط، قد أخمدَ لهيبَ الفكرة.

وبينما كانت عيناي تجولان حولي، تعثّر بصري بوجهِ حصّة الشاحب، كانت تجلسُ في الزاويةِ البعيدة، شاردةَ الذهنِ، مُصفرّة الوجه، والبريق الذي اعتدته في عينيها كان قد انطفأ، "تُرى ما الذي أطفأ بريقهما؟" فكّرتُ في نفسي، ثم دنوتُ منها، وندهتها:

- حصّة..

لم تُعرني انتباهًا! رفعتُ صوتي وندهتُ مرّةً أخرى:

- حصّة!

انتفض جسدها بغتةً، ثم أدارت وجهها نحوي مُقطّبة الحاجبين، سعلتُ برهةً، تمهيدًا لمَا سأقوله، تردد قلبي، لكني سألتها أخيرًا:

- ما بالكِ شاردة، والكآبة تعتلي قسماتِ وجهكِ؟

حدجتني بحدّة، وأجابت على سؤالي بسؤالٍ آخر:

- أيهمك حالي حقًّا أم أنك تسأل فحسب؟
- طبعًا يُهمني، أولستِ آخر العنقود ومدللتي؟
- لو كنتُ كذلك حقًّا كما تزعم، ما انعزلت بنفسك وتركتني وحيدة.
- لكنني...

وأدبرت تجرُّ قدميها مُتثاقلةً في خطواتها، وعيناي تتوسّعان في إثرها مشدوهتين.

- مزاجها سيئ مع الجميع يا بُني، لا تحزن.

هكذا قالت أمي، في محاولةٍ بائسة؛ كي تجعل حصّة المخطئة لا أنا، بيد أنّ ناصر تدخّل في هذه اللحظة قائلًا بنبرةٍ فيها مسحة من التهكم:

- أوَتعتقدُ بأنك الشقي الوحيد في هذه الدنيا!

ثم طافت على شفتيه ابتسامةٌ باهتة، إلا أنها سُرعان ما توارت خلف نظرةٍ حادّة، كان قد حدجني بها، هي ذاتها التي حدجتني بها حصّة قبل أن تُدبر حانقة. أشحتُ بصري عنه، وألقيته على أمي وأبي في الحال، كان القلق يعتلي قسمات وجه أمي، بينما كان أبي في مكانهِ، وثمّة انكسار لاح على محيّاه هُنيهةً، لحظة تلاقت خلالها نظراتنا بمحض الصُدفة، في برهةٍ قلّما يصدقُ بها المرء بحقيقةِ مشاعره.

وبينما كنتُ أتفقدُ وجوههم، وجهًا وجهًا، كان ذهني قد انزلق في منحدرِ الهذيان، وشرعت الأفكار تتدفّقُ عليه مثل طوفانِ نوح، "أأفعلها؟" فكّرتُ في نفسي، ولولا قهقهة بلقيس الصغيرة التي طرقت مسمعي على حينِ غرّة، لكنتُ هلكتُ مع هذا الطوفان المتدفق من ظُلمةِ أفكاري.

ما زالت تحتمي بحضنِ جدّتها، تبتسمُ لي تارة، ثم تعبسُ تارةً أُخرى، كأنها سعيدة بعودتي لكن عتبها بلغ حدَّ الحقد. ثمّ سددتُ نظرة ثاقبة نحو أبي، لا زال على مقعده، كان متسمّرًا أمام التلفاز، ينتقلُ من محطةٍ إخبارية إلى أُخرى، عبر جهاز التحكم عن بُعد، الذي كان يضمه بين راحةِ كفّه، وسيجارته كانت في الأُخرى، كان مهووسًا بالتحكم، لا سيما بعد وفاة جدي، المهووس الأكبر.

ما زال ناصر مُنكبًّا على شاشةِ هاتفه، ثمّة ابتسامة تُداعبُ شفتيه بين الفينةِ والأُخرى، بدت لي ابتسامة حب. بينما أمي - المثقلة بالخيبات - ترنو إلى الفراغ، وشفتاها المتقشّفتان تُهمهمان، غالبًا ما كانت تحمدُ الله على جمعتنا هذه، وفي غضونِ ذلك، اقترب حمد منها قائلًا:

- أُريدُ أن يكون عشاء الليلة مثاليًا.

- لا تقلق، لقد أشرفتُ بنفسي على إعدادِ الطعام، اطمئن.

قاطعتهما بصوتٍ يشوبه التردد:

- عشاء! ما المناسبة؟

أجابني حمد بعدما ربّت على كتفِ أمي بود، وطبع قبلة امتنان على جبينها:

- لا توجد مناسبة بعينها، إنما هو عشاء اعتدنا أن نُقيمه مؤخرًا، كل يوم ثلاثاء، بعدما فتحنا ديواننا بشكل رسمي.

"تمهيدًا لخوضك الانتخابات، حيلة قديمة جدًا، لكنها ما زالت تنطلي على الجماهير". قلتُ في نفسي، ثم سألته:

- أما زلت تطمح إلى مجلس الأمة؟

- لن يهدأ لي بال حتى أدخل قبة عبد الله السالم نائبًا لا زائرًا مثل العادة.

- أتريد إصلاح البلد، حقًّا!

رنا إليَّ بنظرةٍ فيها مسحة من السخرية، وشرع يُداعب شاربه بعد أن طافت بشفتيه نصف ابتسامة بدت ماكرة بعض الشيء:

- سأكون معك صريحًا، وهذا الأمر قلّما يحدث.

دنا مني أكثر، وأضاف هامسًا:

- في حقيقةِ الأمر، أريدُ نصيبي من الكعكة.

تغضّن جبيني في الحال، "أيعقلُ هذا!" تساءلتُ في خلدي، بيد أنه مضى في كلامه، كأنما قرأ ذلك الانزعاج الذي اعتلى قسمات وجهي:

- لا تُقطّب حاجبيك، وكن منطقيًّا، أرجوك، هذا هو الواقع القبيح الذي لا يُمكن لكُلِّ مساحيق التجميل في العالم أن تُجمّله، تلك هي الحقيقة التي نتحاشاها جميعنا، بات وطننا مثل كعكةٍ، الجميع يقضم منها، فما الضرر لو شاركتُ في تناولِ قطعةٍ.. قطعةٍ صغيرة!

- لا أفهم لماذا تتعاطون معه كما لو أنه وطن مؤقت؟

هزّ رأسه ساخرًا، ثم أجاب بنبرةٍ تخلو من الانتماء:

- لأنه ببساطةٍ شديدة، مؤقتٌ.

وواصل بعد أن ازدرد ريقه:

- كُلُّ شيءٍ في هذه الحياة مؤقت، ولا أرى عيبًا في أن يبحث المرء عن مصلحته، ويجني من وطنه ثروة.

- إن كان المال هو غايتك، فلماذا لا تعمل في التجارة مثل خالي فالح؟

- لأنّ ما جناهُ خالي في الأعوامِ العشرةِ الماضية، كان عمي قد جناهُ في أوّلِ سنةٍ له في البرلمان.

أفلتت مني تنهيدة قصيرة، ثم تحسّرتُ:

- إنّ الوطن هو الضحيّة الأكبر في هذه المعادلة الجشعة.

- ربما تكون معادلة جشعة لكن من وجهةِ نظرك فحسب، بيد أنها واقعية من وجهةِ نظرِ الكثيرين.

ملأتُ صدري بالهواء، ثم أطلقتُ زفرةً طويلة، وتأوَّهتُ قائلًا:

- آه، خلتك ستُحارب الفساد يا أخي!

صدحت ضحكته في المكان عاليًا، فالتفت أبي نحونا على إثرها، ثم سأل مُقطّبًا حاجبيه:

- ما سبب هذه الضحكة الصاخبة؟

شـزرتُ حمد وارتبكت كلماتي بين شفتيَّ، "ماذا أقولُ له؟" همهمتُ في سرّي، بيد أنّ حمد أجابه دون لحظةِ تردد:

- لقد أتعبني ابنك وأنا أُحاول إقناعه بالذهابِ إلى الحلاق.

أطلق أبي قهقهة متقطّعة، ساخرة، تخللها سُعال حاد، كأنما كان سيلفظُ روحه من ضلوعه، احمرَّ وجهه نتيجة ذلك السُعال، ثمّ عقّبَ مُتهكمًا بعد برهةٍ:

- فعلًا، فقد بات مظهره إرهابيًّا.

- هذا ما قلته تمامًا.

قال حمد. ثم تبادلا الدعابات، والتعليقات الساخرة حول مظهري، إلا أنّ تساؤلًا قد طرق ذهني بغتة: "كيف استطاع حمد اختلاق هذه الكذبة بهذه السرعة، كما لو كان في جيبه رُزمةٌ من الأكاذيب المعلّبة الجاهزة". في هذه اللحظة كان ناصر قد رفع بصره عن شاشتهِ مرّةً أُخرى، وصوّبه نحونا، شرع يُطقطقُ أصابعه بعدما أتعبها النقر على شاشةِ الهاتف، ثم قال بعد أن فتح فاهه على وسعه في تثاؤبٍ، سُرعان ما

انتقل إليَّ مثل عدوى تركوها دون علاجٍ حقيقي؛ كي يجنوا ثروة طائلة جرّاء بيع أدوية هي في الحقيقة مخدّر للمرض:

- على سيرةِ الحلاقة، لا ينفك فادي يسألني عنك كلما رآني.

"أُذناه تنصتان فعلًا!" فكّرتُ في نفسي، وأطبقتُ جفنيَّ برهة وجيزة من الزمن، لاح وجه فادي خلالها، ثم فتحتهما وتساءلت جهرًا:

- أما زال يتذكرني!

- المسكين، يسألُ عنك باستمرار، طيلة العامين الماضيين.

انتصب حمد قائلًا، بعد أن كشّر عن أسنانهِ في ابتسامةٍ ملء وجهه:

- هذه فرصةٌ رائعة؛ كي تذهب إليه، فيطمئن عليك بينما يُهذّب ذقنك المهملة.

- لمن أُهذبها؟

صاح أبي:

- كفاك تراجيديا يا ولد.

قهقهت أمي وأتمّت كلامه:

- منذُ صغره وهو يُبالغُ في الأمور مثل المسلسلات الكويتية.

أضاف أبي ساخرًا:

- كان المفترض أن يكونَ ممثلًا لا مهندسًا.

وعادوا إلى تعليقاتهم الساخرة مرّةً أُخرى، مزحة من ناصر وأُخرى من حمد، قهقهاتٌ تصدحُ عاليًا في الغرفة، وأنا أجلسُ واضعًا قدمًا فوق الأُخرى، مُتظاهرًا باللامبالاة.

صاح المؤذن في هذه الأثناء: "الله أكبر.. الله أكبر.." وضجّت الغرفة بصوته العذب، "ما زال أبو كريم الباكستاني مؤذنًا لمسجد المنطقة!" تساءلتُ في خلدي، منذُ أن فتحتُ عينيّ على الدنيا وصوته يخترقُ قلوبنا مع كُلِّ صلاةٍ، عبر مكبّرات الصوت المعلّقة على جدران المسجد. بيد أنّ صوته كان مرتفعًا هذه المرّة، كما لو أنه كان قد أقام الأذان من الغرفةِ المجاورة لا من المسجد في ناصيةِ الشارع. نهض الوالد محني الظهر، يتوكأ على عكازة، "قد أثقلته الشيخوخة رغم مكابرته". قلتُ في نفسي، وراح يُردد على مسامعنا بملء حنجرته:

- حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح.

ثم رمى بصره نحوي في نظرةٍ سريعة، حملت الحب بقدرِ ما حملت الغضب، ووكزني بعكازتهِ برفق قائلًا:

- قُم توضّأ يا بُني، وصلِّ معنا.

كما لو كان يعلمُ بأنني لم أصلِّ صلاةً واحدة منذ وفاة بلقيس. أطرقتُ رأسي قانطًا، ونهضتُ بينما تمتمتُ متذمرًا:

- وكأنّ الصلاة ستُعيد بلقيس إليّ.

أدار ناصر وجهه نحوي في الحال، مُتغضن الجبين، منزعجًا، "لقد سمعني على ما يبدو!" قلتُ في سرّي. ألصق كتفه بكتفي، ودنا بفمه من أُذني، ثم همس:

- إنّ الغاية من الصلاة هي التواصل مع الله؛ كي ترتقي بروحك إليه، لا إعادة الأموات إلينا، أو تغيير الأقدار المكتوبة على جبيننا.

توقّف عن الكلام هُنيهةً، جال ببصره يمنةً ويُسرةً كأنما يتأكد ألا أحد يتنصت، ثم استرسل:

- لكن إن خلت العبادة من مضمونها تخلو بالضرورة من روحانيتها، فحاول أن تعيش صلاتك بروحك لا بالإيماءات الجسدية فحسب.

ثم ربّت على كتفي، واستطرد:

- "سمع الله لمن حمده" تأمل هذه العبارة جيدًا.

رددتُ العبارة ذاتها لكن في خلدي، وواصلتُ ترديدها حتى اقشعرّ بدني عندما لامس المعنى روحي، لطالما كنتُ ألفظها دون أن أعي معناها، كانت صلاتي برمّتها في سنواتي الماضية مجرد أداء حركي لا أكثر، حتى أني لا أعرف الغاية منها! كنّا نصلي خوفًا من غضبِ الله، هكذا علّمونا، أن نخافه لا أن نُحبّه.

دلفتُ إلى حمام الضيوف، أُكلّمُ نفسي مثل المجنون، وعندما انتصبتُ قبالة المرآة تجنّبتُ النظر فيها؛ خشيةً أن أرى البؤس مستوطنًا في ملامحي الكئيبة، مددتُ ذراعي إلى الصنبور أفتحه، انهمر الماء يتدفق بقوةٍ مثل شلالاتِ نياغرا، تلك الشلالات التي شهدت آخر سفراتنا، أنا وبلقيس. كان الماء المتدفق من الصنبور باردًا جدًّا، إذ امتصَّ التوتر كله من جسدي، أو ربما كانت الذكرى التي عبرت ذهني سريعًا.

بعد بضعِ دقائق خرجتُ من الحمام، كان ناصر وحمد قد اصطفّا خلفَ أبي في مُنتصفِ غرفةِ المعيشة، انتصبتُ بمحاذاتهم، وتكلّفتُ

الخشوع، ثم أطرقتُ بصري إلى الأرض، ورجوتُ الرحمن أن يخلّصني من هذا الألم الذي ينهشُ روحي. تنحنح أبي، سعل بضع سعلات، ثم صاح بملء صوته:

- الله أكبر.

حصّة

"لما أساؤوا فهم الدين ظلموا النساء"

- 1 -

على شرفةِ الشباك أجلسُ شاردةً، أسندُ خدي إلى راحةِ كفّي والضجر يُحيطني من كُلِّ جانب، أرنو هائمةً إلى زُرقةِ السماء الصافية، ثمّة طيورٌ تُحلّقُ مُنفردةً بعيدًا عن السرب في تمرّدٍ أحسدها عليه، فعقلي يضجُّ بأفكارٍ لا أجرؤ على البوح بها علنًا، وأهربُ منها خوفًا أن يُقبض عليَّ مُتلبّسةً؛ فالأنثى في مجتمعي تؤثم على الفكرة، وربما تُقتل في أحيانٍ أُخرى، إذا ما تمرّدت على عادةٍ ما أو عُرف، مهما بدت العادة ساذجة، أو بلغ العرف حدَّ التفاهة.

وفي غمرةِ الشرود يُعكّرُ صفو المزاج - القلق على الدوام - مواء قطتين، كانتا تتعاركان قُرب حاوية المهملات الخاصة ببيتنا، قطّبتُ حاجبيّ عابسةً في استياءٍ من موائهما المزعج، ثم أطرقتُ بصري إليهما بحدّة، واكتشفتُ بعدما أمعنتُ النظر أكثر أنهما كانتا تتغازلان لا تتشاجران. طافت بشفتيَّ الذابلتينِ ابتسامةٌ عابرة، وهممتُ في نفسي: "ما أبسط حياة القطط، وما أعقد حياتنا؛ إذ يعيش الإنسان منّا حياتين

متناقضتين حدَّ المرض، الأولى في العلن؛ في سبيل نيل رضا المجتمع، والثانية في السر؛ تلبيةً لرغباتنا الملحّة. يا لنا من مرضى!".

ومن حيثُ لا أعلم، انطلقت أُمنية - من العدم - تجولُ في خاطري على غير هدى، فتسرّبت من قاعِ الروح تنهيدة عميقة: "آه، لو أني خُلقتُ قطّةً لا تحكمني عاداتٌ ساذجة أو أعرافٌ تافهة، ولا أحكام جائرة أو اتّهامات واهية يُطلقها الناس عليَّ، إذا ما تصرّفتُ يومًا على سجيّتي".

- حصّة!

تسلل صوتٌ هاتفًا من تحتِ عتبة الباب، وطرق مسمعي في غمرةِ الشرود، كانت أمي. وعاد مزاجي - القلق على الدوام - ليتعكّر مرّةً أُخرى. أطلقتُ زفرةَ امتعاضٍ طويلة ثم تابعتُ مُتذمرة: "لكنني خُلِقتُ إنسانةً تعسة، وهبها الله عقلًا في مجتمعٍ يُحرّمُ استخدامه".

نهضتُ أفتحُ الباب مُتكاسلة الخطوة، وأمرتني أمي حالما لمست المقبض:

- انزلي حالًا، حالًا.

فتحتُ الباب وما زال ثمّة بقايا من التجهّم عالقة بملامحي، كان وجهها يشرقُ بابتسامةٍ رائعة، وهي تُردد:

- انزلي حالًا، حالًا.

- ماذا هناك؟

- ياسين في طريقهِ إليـ...

قاطعتها مُتهكمة، حالما قرع اسمه طبلة أُذني:

- ياسين! أولم يهرب البارحة مثل اللص؟

زجرتني فورًا:

- اخرسي، ولا تقولي عن أخيكِ لصًّا.

ومضت قائلة بنبرةٍ مليئة بالتفاؤل الذي ما إن تجاوز حدود المنطق، أضحى سذاجة في الحال:

- يُخبرني قلبي بأنه لن يهرب هذه المرّة.

ورفعت بصرها إلى الأعلى مُتمتمة بأدعيةٍ ورثتها عن جدتي التي ورثتها عن جدتها هي الأخرى، وهكذا دواليك. اشتدّت ملامحي تجهّمًا، وهمهمتُ تذمّرًا في نفسي: "ليت حظي التعس يتعلّم شيئًا من حظه، شيئًا واحدًا على الأقل".

ثمّ ملأتُ صدري بالهواء، وزفرته بقوة - إشارةً إلى الضجر - بينما تلفّظتُ بفظاظة:

- حاضر، حاضر.

وأغلقتُ الباب وأسندتُ ظهري عليه، ثم أطبقت جفنيَّ برهةً من الزمن. بعد بضع دقائق نزلتُ مُكرهة، ودلفتُ غرفة المعيشة، بيد أنني توقفتُ لثوانٍ عند المدخل، كان أبي قد دلف للتو، وعَبَرَ بقربي إلى مقعدِهِ المفضّل مباشرةً، لاحظتُ أنفاسه مُضطربةً، وصدره يرتفع ويهبطُ، شهيقًا، زفيرًا، على نحو متقطّع، شرع توتره يتزايد، تناول جهاز التحكم بيده، وتنقّل من قناةٍ إخبارية إلى قناةٍ غنائية، وبدأت قدمه اليُسرى في تلك الأثناء تهتزُّ على نحوٍ ملحوظ، حدجته لبرهةٍ وجيزة، ثم أشحتُ بصري عنه وتساءلتُ في نفسي مُستنكرة: "كيف للمرء أن يوهم نفسه بأنّ قسوته على أبنائه تصبُّ في مصلحتهم!".

أطرقتُ رأسي إلى الأسفل، واغتصبت أرجلي الخطوات حتى بلغتُ الزاوية البعيدة عند النافذة المطلّة على الباب الحديدي من الداخل، أترقبُ لحظة عبور ياسين من الباب، وكلّما هبّت ريح حرّكت الباب قليلًا، كانت ثمّة رعشة خفيفة تعبرُ بقلبي، لا أعلمُ لماذا؟ أو ربما أخشى أن أعلم!

أمّا بلقيس فقد كانت أصغر من أن تُدرك قلق أمي، أو تشعر بتوتر أبي، كانت في مُنتصفِ الغرفة تغرقُ في عالمها الذي شيّدته من خيالها الطفولي - الذي فقدته منذُ زمنٍ بعيد - تُلاعب دميتها المفضلة غير عابئة بما يشغل أذهان الكبار.

مضت خمسٌ وثلاثون دقيقة، والانتظار ينهشُ قلب أمي القلق، ويشبُّ في أعصابِ أبي الحنق، وبين الفينةِ والأخرى يرميانِ بصريهما نحو الباب بالتناوب العفوي، دون أي ترتيب مُسبق، ثم إلى الساعة الكبيرة المعلّقة فوق التلفاز، ويتشاركان زفرة واحدة، طويلة، أضافت إلى المكان مسحة من التوتر والقلق. وفي غضون الانتظار الذي أرهقهما قلقًا وتوجسًا، دكَّ حمد حصون هذا الانتظار القاتل بكلماتٍ أراحت قدم أبي من اهتزازها، وطمأنت قلب أمي القلق:

- لقد عدتُ لكم بياسين، عدتُ به إلى الأبد.

كان صوته مُفعمًا بالثقة - الثقة المفرطة - وعادةً ما تبعثُ هذه الثقة الخوف في نفسي، إذ اعتاد أن يقطع على نفسه الوعود، مثلما اعتاد أيضًا أن ينكثها، مثل المرشحين في فترةِ الانتخابات، يعدون الناخبين بوعودٍ لا يمكن تحقيقها، ثم ببساطةٍ ينكثونها بعد نجاحهم في انتخابات

المجلس، وحمد كان بمثابةِ مشروع نائب بالنسبةِ للعائلة؛ ليخلف عمي طلال في مجلس الأمة ويُمثل العائلة، بلا شك لن يُمثل الأمة.

وبعد لحظةٍ قصيرة كان ناصر قد دلف ممسكًا بياسين من يمينه برفق، تطوفُ حولهما هالة من الفرحة، لكنها بدأت تخبو شيئًا فشيئًا كلّما تقدّما أكثر. اهتزّ هاتفي في تلك الأثناء برسالةٍ نصيّة، سرقت انتباهي من الصخب - المفتعل - الذي ضجَّ بالمكان تهليلًا بعودةِ ياسين، وخطفت روحي من الجدرانِ الأربعةِ المحيطة بي بعيدًا، وبقي جسدي وحده المحبوس.

أدرتُ بصري نحو شاشة الهاتف في نظرة مُتفحّصة، كانت خولة هي المرسلة، فتحتُ الرسالة بمسحةٍ سريعة من سبّابتي: "باركي لي؛ لقد وافق أبي على التكفّل بدراسةِ الهندسة في بريطانيا، وسأبعثُ لهم أوراقي فور أن يفتحوا باب التسجيل". أمعنتُ النظر في كلماتها، وشرعت جروحي تهيجُ هيجانًا ذا شجون في قلبي، "ألا تندمل هذه الجروح أبدًا!"، هتفتُ في نفسي.

ثم تجلّت ببالي تلك الذكرى التي حاولتُ طمسها ما استطعت بوضوحٍ تام، واجتاحني الوهن عندما استحضرت تفاصيلها بنفسها في ذهني، وطفت على السطحِ كُلُّ المشاعر المكبوتة في صدري، كأنما ما حدث منذُ عامين كان قد حدث منذُ قليل. أطبقتُ جفنيَّ هُنيهةً، ثم فتحتهما بعد أن سقط قلبي في قاعِ الماضي يتمرّغُ بالذكريات. كانت نتائجُ الثانوية العامة لتوّها قد أُعلنت في إذاعةِ الكويت عبر أحد برامجها بصوت إيمان نجم، ودلفتُ على الفور إلى حجرةِ أبي أغنّي فرحًا، وأتراقص حوله مثل أميرة من أميراتِ والت ديزني، حيثُ كنتُ أغنّي،

إحدى أُغنيات العندليب، فقد كان مطربي المفضّل على خلاف الذوق السائد في الجيل الذي أنتمي إليه - لم أنطرب يومًا إلى أغنياتِ هذا الزمن الأغبر - طفتُ حوله رقصًا، ودندنتُ طربًا:

- الناجح يرفع يده.

ثم رفعتُ كلتا يديّ وقفزتُ عاليًا في الوقتِ نفسه، كان جسدي يقشعرُّ فرحًا بين فينةٍ وأُخرى، أدار أبي وجهه نحوي بعدما خلع نظارته، وحدجني مُستنكرًا رافعًا حاجبه الأيسر، أطفأ سيجارته، ثم أشعل أُخرى في الحال، وكاد أن يسألني لكن أمي سبقته وسألتني بابتسامتها الجميلة، وعينيها المليئتينِ بالدفء، آه ما أصدق ابتسامتها، وما أجمل هاتين العينين، إذ تغمران القلب المضطرب بالسكينة:

- ما لها شريهان ترقص؟!

لمعت في عينيّ نشوةُ فرحٍ مُضاعفة، وتجلّت على شفتيّ بسمةٌ عريضة، إذ أنّ جميع مَن عرفني كان قد شبّهني بها، "هذه الحسناء أيقونة الجمال العربي. أنا أشبهها! ما أوفرني حظًّا". هكذا قلتُ في خلدي، وقبل أن أنبس بكلمة قالت أمي ببهجةٍ تجلّت بصوتها:

- لقد نجحتِ.. صح؟

- لم أنجح وحسب بل اقتربتُ من تحقيقِ حلم الطفولة؛ فقد نلتُ معدلًا يسمح بقبولي في كلية الهندسة عبر بعثةٍ دراسية إلى بريطانيا...

قاطعنا أبي زاجرًا وقد احمرّت عيناه حنقًا:

- كلية الهندسة! وفي بريطانيا!

ثم أضاف مُتجهّم الوجه، بنبرةٍ صارمة:

- وبأمرِ مَن سوف تدرسين في كلية الهندسة في بريطانيا؟

تسمرتُ في مكاني حالما طرقت كلماته مسمعي، واتّسعت عيناي مشدوهتين، كان ياسين قد درس في بريطانيا وكان أبي فخورًا بذلك، "أيحقُّ له ما لا يحقُّ لي!" تساءلتُ في نفسي، وتشوّش ذهني حدّ التعطّل؛ فما قاله كان قد فاق إدراكي في ذلك الوقت.

أدرتُ وجهي نحو أمي، وصوّبتُ بصري إليها، وشرع القلق يغزو قسمات وجهي، ارتعدت أوصالي في لحظةٍ، وارتجفت شفتاي عندما تعثّر الكلام على لساني، تأتأتُ بصوتٍ مُتهدج، وعيناي كانتا تفرّانِ يُمنةً ويُسرة في حيرة:

- لـ.. لكن أأ.. أمي وافقت عندما أأأ..

انتصب أبي بطولهِ المهيب، وصاح بصوته الغليظ:

- ما دخل أمك؟

وحملق إلى وجهي والشرارُ يتطايرُ من عينيه المخيفتين، ثم نهرني:

- أنا الرجل في هذا البيت لا أمك، ولا كلمة تعلو كلمتي، أفهمتِ؟

ثم أمسك عن الكلامِ لحظات بدت سنواتٍ ضوئية، أومأتُ برأسي أو على نحوٍ أدق، أجبرني الخوف على ذلك، ثم زفر ما سحبه من سيجارته دخانًا كثيفًا في الفراغ، ومضى في كلامه:

- إمَّا أن تكتفي بشهادةِ الثانوية العامة، أو تكملي دراستك في كلية التربية الأساسية.

- لكن الهندسة هي حلمي منذ...

قاطعني على الفور، بعدما وضع سبابته على فمه:

- صه.

واسترسل بعدما جحظت عيناه:

- هما خياران لا ثالث لهما، إمّا أن تقنعي بشهادة الثانوية العامة أو تدرسي في كلية التربية الأساسية.

وعلى حينِ غرّة طرق طبلة أُذني صوتٌ هاتفًا في نبرةٍ دافئة، أيقظني - نصف يقظة - من هلوسةِ الذكرى التعسة:

- حصّة..

ثم ارتفع الصوت الدافئ على نحو مباغت:

- حصّة!

وأيقظني من شرودي يقظة كاملة، لكن مشاعر الخوف ما زالت تجول في جسدي؛ كانت روحي قد أبحرت بعيدًا في الماضي هذه المرّة، لكن الصوت عندما طرق سمعي للمرّةِ الثانية، كان قد أعادني إلى شواطئ الحاضر مُنهكةً، كان ياسين قد دنا نحوي، وجلس قربي دون أن أنتبه إليه لحظة اقترابه، ثم سألني بعدما رنا إليَّ بعينين كئيبتين:

- ما بالكِ شاردة والكآبة تعتلي قسماتِ وجهكِ؟

حملقتُ إلى وجههِ، وتبدّلت تعابير وجهي إلى التهكم، بيد أنّ عينيّ قد شحبتا وامتصَّت بريقهما خيبةُ الأمل في الحال. "آه يا أخي، إنني أتعصّرُ وجعًا". شكوتُ لكن في سرّي، وابتلعتُ آهتي هذه، وطمستُ كلماتي في كبرياءٍ خدشه الأسى، فبات كبرياءً مشوّهًا، ثم أجبتُ على سؤاله بسؤالٍ آخر:

- أيهمك حالي حقًّا أم أنك تسأل فحسب؟

أجابني في الحال:

- طبعًا يُهمني، أولستِ آخر العنقود ومُدللتي؟

"مُدللتك! آه، لو كان باستطاعتي تصديقُ ذلك!"، بيد أنني قلتها في خلدي، وحاولتُ قدرَ المستطاع لجم انفعالي، لكن انفعالي كان أقوى من لجمهِ ببساطة، فانفجرتُ في وجهه:

- لو كنتُ كذلك حقًّا كما تزعم، ما انعزلت بنفسك وتركتني وحيدة.

- لكنني...

وأشحتُ بوجهي عنه بعد أن تسرّبت من حنجرتي زفرة قصيرة، ساخرة، مع حركةٍ من يميني مليئة بالاستهزاء، ثم ولّيْتُ ظهري وهرعتُ إلى غرفتي أضربُ بقدميَّ الأرض بقوة، كما لو أني بذلك أؤكدُ موقفي، تركته يختنقُ بكلماته ولجأتُ إلى حجرتي غير مُبالية بمشاعره.

- 2 -

دلفتُ إلى غرفتي وصفقتُ الباب بقوّةٍ ناجمة عن ضعفٍ شديد سرى في جسدي، كنتُ عاجزةً إزاء كُلّ ما حدث لي في العامين الماضيين؛ انعزال ياسين كان خارج إرادتي، ودكتاتورية أبي كانت واقعًا لا مناص منه، وحيادية أمي تجاوزت حدود الصبر، واستسلامي البائس كان نتيجة كل هذه الظروف التي تكالبت ضدي. قفلتُ الباب وكان ذلك أقصى مقاومةٍ استطعتُ بلوغها، أسندتُ ظهري إليه دقائق،

وأدركتُ - بعد فواتِ الأوان - ألا سند لي. كان الوهن قد أنهك ما تبقّى من القوّةِ بداخلي، واليأس نال من الأمل، بل ودهسه بقدمِ الواقع القاسي.

رنوتُ إلى الأعلى؛ كي أستمدّ من الله عونًا، ثم هبط بصري ووقع مصادفةً على شهادةِ الثانوية المعلّقة على الجدار، كانت بمحاذاةِ النافذة، فوق مكتبي الخشبي الصغير، وما زال الشرخ في زجاجِ البرواز يُشوّه الصورة. كان رفضه صدمة فاقت قدرةِ احتمالي، وصرخته ما زالت عالقةً في أُذني، تزنُّ، حينما صرخ بغلظةٍ تصمُّ الآذان:

- إنسي كلية الهندسة، إنسيها تمامًا، واحمدي الله بأنني قد سمحتُ لكِ بإكمالِ دراستك في كليةِ التربية الأساسية.

- لكن طموحي أن...

قاطعني زاجرًا:

- أنا أبوكِ، وأنا أعلم بمصلحتكِ منكِ.

وأضاف جملةً كادت أن تشلّني فور ما طرقت مسمعي:

- دعي عنكِ الدراسة برمّتها، واطمحي أن تكوني زوجةً صالحة وأمًّا فاضلة، هذا هو النجاح بعينهِ لأيِّ فتاة في مجتمعنا.

حملقتُ إلى وجههِ في دهشةٍ، بعدما فغرتُ فمي على وسعه مشدوهة، ثم سألته بنبرةِ استنكار شديدة الوضوح:

- زوجةٌ وأم! ألهذا درست؟

- استثمري دراستكِ في بيتك وتربيةِ أولادكِ، فالأمُّ مدرسةٌ.

- وشهادتي.. ماذا أصنع بها؟

- زيّني بها الجدار، لهذا كان البرواز هو هديتي إليكِ.

هكذا قذفني بكلماتٍ أشبه بالسّهام، استقرّت كلها في مُنتصفِ صدري، مُدميةً الحُلم، ثم انتصب بطولهِ المهيب، واصطكّت ركبتاي مذعورتين، شزرني وقد اعتلت وجهه المحمرّ تمامًا مسحة من القسوة، وأضاف صارمًا:

- وليكن في معلومكِ، فور تخرّج ابن عمك فهد من كليةِ الشُرطة، سنعقدُ قرانكما في الشهرِ الذي يليه.

غزا الذهول ملامحي في الحال، وشلّت الصدمة لساني برهة وجيزة، إلى أن هتفتُ ساخرة:

- فهد ابن عمي طلال؟!

- وما لك تنطقين اسمه في ازدراءٍ؟ فهد نعم الرجل وقريبًا ستلمعُ النجمة على كتفيه.

- هذا المتخلّف يُصبح زوجي!

وزممتُ شفتي السُفلى، ثم سألته في السخرية ذاتها، مع صرخةٍ غاضبة، ثائرة، خرجت رغمًا عني:

- ألم يكفِ طموحي الذي حرمتني منه بـ...

زجرني مقاطعًا بملء حنجرته في صرخةٍ فاقت صرختي، وردّدتها الجدران من بعده عبر صدًى مخيف:

- اخرسي!

رنَّ هاتفي بغتةً، وأيقظ ذهني من شروده، ودفع الذكرى بعيدًا عني مؤقتًا. عدتُ إلى الواقع وقلبي لا يزال يخفقُ خفقانًا مروّعًا، وجبيني

يتفصّد عرقًا، كأنما الذكرى التي طرقت ذهني كانت واقعًا عشته اللحظة، بأدقِّ تفاصيلهِ الصغيرة. ملأتُ صدري بالهواء في شهيقٍ عميق، ثم ازدردتُ ريقي مرطّبة شفتيّ الجافّتين عبر مسحةٍ من لساني الجاف إلى حدٍّ ما، ثم أطرقتُ بصري نحو الهاتف، تجلّى اسم المتصل، "نوال" على شاشته، مسحتُ بسبابتي على الشاشة برفق ثم وضعته على أُذني، وأجبتها بعدما تنحنحتُ كي أتخلص من نبرة الحُزن العالقة في حنجرتي:

- أهلًا نوال.
- ماذا بك؟ يبدو صوتكِ ذابلًا.

"آه، يبدو أنّ الحُزن بات جزءًا من صوتي". هتفتُ في سرّي قانطة، تنحنحتُ للمرّةِ الثانية، ثم أجبتها:

- لا تقلقي، فليس هناك ما يدعو للقلق؛ ربما لأنني استيقظتُ للتو من النوم، لكن دعينا من صوتي وأخبريني عنكِ، أين كنتِ مُختفيةً طوال الأيام الماضية...
- استيقظتُ للتو من النوم!

قاطعتني عبر تكرار جملتي بلسانها في نبرةٍ كما لو كانت تزنها بميزان الحقيقة، ازدردت ريقها على نحو يشي أنها ابتلعت الكذبة، ثم تابعت بعد أن أطلقت زفرة طويلة:

- آه، كنتُ أخوضُ حربًا مع أفراد أُسرتي، بيد أنها حربٌ خاسرة لكُلِّ الأطراف.

وأمسكت عن الكلام هُنيهة، ثم تنهّدت متحسّرة، واسترسلت بعد لحظاتٍ مضت كئيبة:

- ما زال أبي مُتشبثًا برفضهِ، بيد أنّ أخي قد تهجّم عليَّ قبل يومين، حاملًا سكينًا بيده، وتوعّدني إن خلعت الحجاب لأن يقتلني دون أن يعبأ حتى إن أعدموه بعد ذلك.
- وأملكِ! أما زالت عند موقفها بعد كل ما حدث؟
- أمي يغلبها العناد، وقد حذرتني أن تتبرأ مني لو عزمتُ على خلعِ الحجاب.
- وأنتِ كذلك، كلاكما رهينةُ عنادٍ ما.
- لا، لستُ أُعاند البتة، جُلّ ما أريده أن أختار ما يُناسبني بحرية، أخلعه، أرتديه، أحرقه، أنا حُرّة في اختياراتي.

هكذا قالت في حرقة، هي الحرقة ذاتها التي أعيشها لكن عبر حكايةٍ أُخرى، لا تقلُّ وجعًا عن حكايتها. فكّرتُ هُنيهةً، ولم أجد كلامًا مناسبًا عدا مواساتها:

- هدئي من روعكِ يا نوال، فالأمر يحتاجُ إلى تروٍّ وصبر، لا أعتقد أنّ هُناك ما يستدعي أن تخسري أُسرتكِ من أجله.
- لكن الحق معي، لذا عليَّ أن أحارب...

قاطعتها:

- الحقُّ مسألةٌ نسبية، تختلف من شخصٍ إلى آخر؛ وتعتمدُ على مدى وعي الفرد، ونوع الديانة التي يعتنقها، وتقاليد مُجتمعه، وفي الأخير جميعنا نرى أننا على حق، لذا..

قاطعتني وهي تزفرُ ضجرًا على ما يبدو:

- أما زلتِ تقرأين مقالاته؟

- مَن!
- أحمد الطرّاح.

وأضافت غير مبالية للإجابة، وبنبرةٍ فيها مسحة من الاستسلام:

- لم أعد أعبأ للحق، إن أردتِ الحقيقة، فأقلّ ما أسعى إليه أن أنال حريتي، إني أختنقُ يا حصّة، أختنق.
- أعلمُ ذلك، كلنا نختنقُ، صدّقيني، لكن ما تسعين إليه أمر في غاية الخطورة، ويتطلّب الحكمة في معالجته لا التهور، فليس من السهل تغيير عادة في المجتمع، فكيف إن كانت عبادة!
- يبدو أنكِ في الآونةِ الأخيرة لا تقرأين شيئًا عدا مقالاته!

هكذا تساءلت بصوتٍ يحملُ في نبرته اتّهامًا ما، ثم مضت في كلامها باللامبالاة ذاتها:

- لكن في الواقع هي ليست ضمن العبادات.
- هي كذلك من وجهةِ نظرهم، وعليكِ أن تضعي هذا في اعتباركِ.

وفي خضمِ النقاش تسرّب صوت أمي من تحت العتبة، وقاطع نقاشنا هاتفًا:

- حصّة.. حصّة..
- نعم.. أتريدين شيئًا؟

أجبتها بشيءٍ من الفظاظة.

- افتحي، ليس من اللائق أن تقف أمكِ خلف الباب طويلًا.
- مشغولة؟ أأتصل بكِ في وقتٍ لاحق!

سألت نوال في غضونِ ذلك، وكسا صوتها قلق شديد عبر نبرةٍ مُتوترة، أجبتها في حرج:

- أنا آسفة نوال؛ لكن أمي تندهُ عليَّ، يبدو أنها تُريدُ شيئًا مهمًّا.

- لا داعي للأسف يا حبيبتي، لبي نداءها واتصلي بي عندما تفرغين. في أمانِ الله.

- اتفقنا، سأتصل بكِ لاحقًا، مع السلامة.

أغلقتُ الخط فورًا، صبغ الحرج وجنتيّ باحمرارٍ شديد، "هذه الأُسرة سوف تفقدني صوابي ذات يوم". تذمرتُ في سرّي، ثم قفزتُ من سريري برشاقة، ومشيتُ نحو الباب أفتحه مُقطّبة الحاجبينِ، حدجتني معاتبةً برفق، وكان الاستياء مرتسمًا على وجهها عبر تجاعيدها، كان البؤس سببها لا عامل السن، أغلقت الباب بعدما دلفت، ومضت تقول:

- ما عهدتك قاسية إلى هذا الحد، لا سيما مع ياسين؛ وهو المفضل لديكِ من بين إخوتكِ.

- كان المفضل.

قلتُ بنبرةٍ باردة، مع حركةٍ لا مبالاةٍ من كتفيَّ. صوّبت بصرها نحوي في الحال، ورفعت حاجبيها مكذّبةً ادّعائي هذا، ثم افترَّ ثغرها عن ابتسامةٍ واهنة، دافئة بعض الشيء، وواصلت:

- بل ما زال المفضل، أرى ذلك في عينيكِ.

وانحرفت ببصرها قليلًا، ترنو إلى الفراغ في شرود تام، وانتشر الأسى على قسماتِ وجهها في هذه الأثناء، كأنما خاطر مؤلم قد عبر ذهنها في هذه اللحظة. ازدردت ريقها ثم أطلقت تنهيدة عميقة،

واستعادت ابتسامتها بيد أنها كانت ابتسامة فاترة هذه المرّة، وتابعت:

- نحن نقسو عندما نتوجع، ولا نتوجع إلا عندما نُحب.
- مَن يتخلّى عنّا لا يستحقُّ حبنا.
- لم يتخلَّ برغبتهِ، كانت ظروفه...

قاطعتها أصيحُ بصوتٍ مجروح النبرة:

- كفى يا أمي، كفى، إلى متى تختلقين له الأعذار؟ كوني صريحة مع نفسك ولو لمرّة، ابنكِ البكر تخلى عنّا كلنا، وتركنا فريسة سهلة ينهشها أبي باستبداده.

وأمسكتُ عن الكلام هُنيهة، وقد اغرورقت عيناي بالدموع، واتّسعتا في حرقةٍ، ثم استرسلتُ حانقة:

- لقد اغتال أبي حلم الطفولة على مرأى منكم جميعًا، ثم دهسه بأقدامِ العادات والتقاليد. ولم يكتفِ بهذا، بل بات يجبرني الآن على الزواجِ من فهد، هذا المتخلّف الذي أشمئزُّ منه، وأشعر بالعار من قرابته. وأنتِ ما هو دوركِ في حياتي؟

اتّسعت عيناي أكثر، وسالت على خدي دمعتان موجوعتان، وواصلتُ بصرخةٍ قاسية النبرة:

- أخبريني ما هو دوركِ؟

أطرقت بصرها إلى الأسفل مع نصفِ ابتسامةٍ خفيفة، تجلّت فوق شفتيها لثوانٍ وجيزة، ثم اختفت خلف نظرة شاردة نحو النافذة. كان الصمت قد استولى على حنجرتها حين ازدردت ريقها كأنما ترجو الأرض أن تنشق وتبتلعها. "أقسوتُ بكلامي؟!" تساءلتُ في خلدي.

رمقتني بعينين حملتا الكثير من الأوجاع التي فاقت قدرة الإنسان على التعبير، ثم انتصبت مقوّسة الظهر في خيبةٍ انبثقت من عينيها، بعدما رفعت راياتها البيضاء للصمت، ومشت بخطواتٍ ثقيلة نحو الباب.

توقفت لحظة، ملأت رئتيها بالهواء وزفرته قائلة بعد أن استدارت نحوي نصف استدارة:

- لا تُسلّمي نفسكِ للغضب؛ كي لا تستحيلي يومًا ما إلى نسخةٍ طبق الأصل عن أبيكِ.

أغلقت الباب فور خروجها وسحابة سوداء تطوف بعينيها، لكن جملتها بقيت تجول في ذهني، وفي لحظةٍ عبر ببالي تساؤل مُخيف: "أيكشفُ الغضب عن حقيقتنا، أم أنه يسلخنا منها؟!".

بعد فترة وجيزة من الحيرة قلتُ لنفسي مكابرةً - أو ربما كان خوفًا من معرفةِ الحقيقة! - بعدما أطلقتُ قهقهةً مُقتضبة، ساخرة: "لا، لن أُصبح مثل أبي، محال أن أرث قسوة هذا المتعجرف".

ألقيتُ بجسدي فوق السرير أحدّقُ في بياضِ السقف، وأنا ألفُّ حول سبابتي خصلتين من شعري العنيد، وفي فناءِ ذهني تكوّمت أفكاري كلها.

مضت بضعُ دقائق وعقلي يغوصُ شيئًا فشيئًا شاردًا في الماضي، يطيرُ تارةً بحلمٍ وردي ويهبطُ تارة أُخرى بذكرى موجعة.

بيد أنّ خاطرًا عبر بالي بغتة، وأيقظني من شرودي على الواقع. اعتدلتُ بجلستي، ثم تناولتُ هاتفي من فوق المنضدة، فتحتُ قفله بالنقرِ فوق الشاشة بالرقم السرّي، ثم دلفتُ إلى تطبيق تويتر مباشرةً؛ كي

أُمارس تناقضاتي اليومية، التي باتت تُشكّل هويتي الحقيقية، أرتدي ألف قناعٍ وقناع كي أمثّل في النهاية نفسي، يا للتعاسة. (خلف الأسماء المستعارة تتجلّى حقيقتنا التي يُحاول المجتمع جاهدًا طمسها). هذا ما كتبته في "Bio" منذ انضمامي إلى عالمِ تويتر، وكان مثل شعارٍ خاص بي أو عقيدةٍ ما.

نقرتُ على شاشةِ الهاتف تغريدةً تضمنت: "عندما يستبدُّ الزوج في البيت مُزدريًا زوجته، يتيه الأولاد في ماهيةِ الأسرة. #العنف_الأسري". ورميتُ هاتفي بغيرِ اكتراث، ثم تكوّرتُ على جانبي الأيمن بطرفِ السرير، ومثل فيلمٍ سينمائي شرعت أحداث اليوم تمر في ذهني. أُحاول تقييم أفعالي لكني أفشلُ في غالبِ الأحيان، "من السهلِ أن يعثر المرء على طريق الصواب، بيد أنّ اختيارهُ في غاية الصعوبة". فكّرتُ في نفسي، وأخذتُ نفسًا عميقًا، حبسته في صدري لحظة وجيزة ثم أطلقتُ سراحه عبر زفرةٍ واحدة، طويلة. تناولتُ هاتفي مرّة أُخرى؛ كي أضبط المنبّه على الساعة السادسة صباحًا، ثمّ أغمضتُ عينيّ معلنةً استسلامي للنوم.

- 3 -

فتحتُ عينيّ على صوتِ المنبّه، وتثاءبتُ فاغرةً فمي على وسعه، مثل طفلةٍ لا تعلمُ شيئًا عن الأنوثة، وأدركت فيما بعدُ أنها محضُ خدعة اختلقها الذكر تلبية لشهواته الملحّة. ثم رنوتُ على أيةِ حال إلى النافذة نصف شاردة، غير عابئة برنينِ المنبّه المزعج، كانت خيوط الشمس تُضيء أرضية الغرفة في خطوطٍ متوازية عبر ثغرات الستائر، مضت دقائق

وما زلتُ مُستلقيةً على ظهري مُتكاسلة عن النهوض، كان ذهني صافيًا مثل سماءِ صيفِ حزيران، حتى عكّره خاطر ما، عبر ذهني على حينِ غرّة.

"أكانت جلافتي مع ياسين مستحقة؟" فكّرتُ في نفسي، والندم يقرعُ أبواب الضمير، ثم لاح وجه أمي ببالي فجأة، هذا الوجه الملائكي، لا يستحقُّ الزعل. "إن كان هنالك مسوّغ لجلافتكِ مع ياسين في الأمس، فلا شيء في الدنيا يشفعُ لكلماتكِ القاسية التي تلفظتِ بها لأمّكِ دون أدنى احترام". هكذا قال لي ضميري معاتبًا، وأضاف على الفور: "يبدو أنكِ كرهتِ أباكِ إلى حدٍّ إنكِ غدوتِ مثله في نهايةِ المطاف، مُتعجرفة!".

وفي غضونِ ذلك كان صوت المنبّه قد تصاعد تدريجيًا، وشتت ذهني وخفتَ صوتُ ضميري حتى انعدم تمامًا. تنهّدتُ تنهيدةً عميقة، واستعنتُ بيدي، مددتها ما استطعت نحو الهاتف ثم أطفأتُ المنبّه بصعوبة، ساد الصمت في الغرفة كما لو أنّ أذنيَّ قد صُمّتا.

نهضتُ من سريري رغم كسلي، وخطوتُ نحو الحمام شبه نائمة، وقفتُ قبالة المرآة وحملقتُ إلى وجهي، أتفحصُ ملامحي بتفاصيلها البائسة، لقد خبا بريقُ عينيَّ، وذبُلتا حدّ الشفقة، كان الإرهاق قد تكدّس سوادًا أسفلهما، فلم أعد أشبهني، واصلتُ التمعن في المرآة ثوانٍ وجيزة، وحاولتُ أن أتبسّم، ارتعشت شفتاي هُنيهةً ثم انثنتا انثناءة طفيفة، بيد أنّ ابتسامتي ولدت مُشوّهةً، وبدا منظرها على شفتيَّ الذابلتين مُثيرًا للشفقة.

وضعتُ سبابتي أسفل أنفي، وثبّتها مباشرة فوق شفتيّ، ثم تصورتُ متوهّمةً لو كانت سبابتي شاربًا لذكرٍ يقفُ العيب مرتعدًا عند حدود فحولته.

خطرت في نفسي أُمنية باهتة: "لو أنني خُلقتُ ذكرًا، لما واجهتُ نصف ما واجهته من صعاب". ثم أطبقتُ جفنيَّ، وهمهمتُ موجوعة: "ليت الأماني كانت ممكنة".

خرجتُ من الحمام بعدما طردتُ النعاس عبر غسل وجهي بماءٍ قارس البرودة، ثم خطوتُ نحو الدولاب، فتحته وتناولتُ العباءة والحجاب، دون أن أعيش مشاعر الأُنثى في عناءِ اختيار ملابسها لمدّةٍ تتجاوز الساعة على أقلّ تقدير، لكن السواد في ملابسي المقررة عليّ، والذي يعكسُ الظلام الذي أعيشه في الواقع، قد سهّل هذه المهمة كثيرًا.

هبطتُ السلالم إلى الطابقِ الأرضي، بعد أن اتّشحتُ بالسواد، أعبر الممر المفضي إلى البابِ الخارجي، بيد أنّ أمي هتفت فور أن رأتني أمشي مُسرعة:

- حصّة!

أجبتها وأنا أُتابعُ طريقي:

- نعم..!

- ألا تفطرين معنا يا ابنتي؟

- لا، لقد تأخرتُ كثيرًا على الكلية، لكن شكرًا على أيةِ حال.

هكذا كذبتُ بينما فتحتُ الباب، وتوقفتُ برهةً ثم خرجتُ. عاد ضميري في هذه اللحظة حانقًا يسألني مُتهكمًا: "ألن ينتهي هذا الكذب

أبـدًا؟" مضـت محـاولاتي في تبريـر الكـذب إلـى حاويـةِ الفشـل، وتـابع معاتبتي في نعتٍ متواصل: "كاذبةٌ، كاذبةٌ، كاذبة".

ثم تناهى إلى فكري تساؤل حمل الخوف إلى قلبي: "هل سيُعاقبني الله على هذا الكذب أم كان أبي عقابًا كافيًا!".

ملأتُ رئتيّ بالهواء الطلق ما أن وطأت قدماي خارج البيت، كما لو كنتُ سجينةً أُفرج عنها بعد سنواتٍ طويلة قضتها في المعتقل. كان التساؤل هذا عصيًّا على الفهمِ حدّ الإرهاق. هتف السائق في خضم خوفي:

- ماما حصّة، من هُنا.

ومشى نحو باب السيارة مثلَ عادته كُلّ صباح، بعد غسلِ السيارات وسقي النخلتين كان ينتظرني راجيًا الله ألا أستيقظ من النوم؛ كي يرتاح قليلًا. كان مزارعًا وخادمًا في ديوان الرجال الأسبوعي، بالإضافة إلى كونه سائقًا في المقام الأول، وهذا كله براتب ضئيل نصفه إهانات يتلقّاها من أبي على نحو يومي، وحمد في أحيانٍ نادرة.

سال من جبيني خيطٌ رفيعٌ من العرق عندما مشيتُ مُسرعة نحو السيارة؛ كان الطقسُ حارًا رغم موسم الشتاء، كأنّ الكويت باتت عاصمةَ الشمس رسميًّا. ركبتُ السيارة على أيةِ حال متأففة مثل العادة، ثم انطلق السائقُ بأقصى سُرعة إلى كليةِ التربية الأساسية.

كان الزحام قد بدأ من المنعطف المفضي إلى الطريق السريعة. "يا للسنواتِ الضائعة التي نقضيها عالقين في زحمةِ الطرقات". فكّرتُ في نفسي، بعد أن تسرّبت من حنجرتي زفرة ضجر قصيرة.

لجأتُ إلى هاتفي في الحال؛ الشيء الوحيد المسلّي في زحمةِ الطريق. دلفتُ إلى عالم تويتر المليء بالمستشرفين؛ الكثيرون هُنا يقولون ما لا يفعلون. هذا يُغرّد عن الإنسانية لكنّه يضطهدُ العاملة في بيته، وذاك يُطالب بحقوقِ النساء عدا أهله.

تركتُ تويتر يضجُّ بالمنافقين، وأقبلتُ على عالمِ سناب شات، ولا أنفك أتعجب منه؛ فالأكثر شُهرة هم الأكثر تفاهة، وكأنما ثمّة سباق يجري لنيلِ لقبِ أتفه إنسان في المعمورة، ما أقرف الأقنعة التي تضجُّ بمواقع التواصل الاجتماعي.

وبينما كنتُ أتنقّل من سنابٍ إلى آخر، رنَّ هاتفي على حينِ غرّة، توارى تطبيق سناب شات خلف اسم المتصل، كانت خولة هي المتصلة، إذ لاح اسمها على الشاشة، يا لذاكرةِ الذبابة التي أملكها، لقد نسيتُ أمرها تمامًا، "تبًا للتكنولوجيا". قلتُ في خلدي، وواصلتُ تذمري: "لقد فضحتني تلك العلامة الزرقاء اللعينة، التي تظهر عادةً قرب كلمات مَن نقرأ رسالته. آمل أنها لم تزعل مني!" مرّرتُ سبابتي برفق على الشاشة، ثم جهّزتُ مجموعةً من الأعذارِ المعلّبة، ووضعتُ الهاتف على أُذني قائلة:

- آه، كنتُ على وشك الاتصال بكِ، فقد كنتُ مشغولة للغاية أمس، قرأتُ رسالتكِ ولم يتسنَّ لي المباركة لكِ.

ثم التقطتُ أنفاسي وتابعتُ:

- مبروك يا حبيبتي، لقد فرحتُ كثيرًا من أجلكِ.

- الله يُباركِ بكِ.

وأضافت:

- الآن اكتملت فرحتي.

تنحنحتُ ثم قلتُ:

- أخبريني، أثمة قلق يعتري قلبكِ من فكرةِ الغربة؟

- أبدًا، بل إنني أفكّرُ جديًّا بالعملِ أثناء الدراسة، وبعدها.

سرح ذهني برهةً، واتّسعت عيناي مشدوهتين؛ لم أتوقع هذه الإجابة البتّة، سألتها بصوتٍ متهدج:

- لماذا؟

- هناك سوف أكون نفسي بلا أقنعة.

"أكون نفسي بلا أقنعة". كررتُ الجملة ذاتها في سرّي، ثم مضيتُ أقول:

- لكن قلبكِ سيحنُّ إلى الوطن، أليس كذلك؟

- الوطن ليس أرضًا تولدين عليها، تتقلّصُ حدودها بفعلِ الطبيعة أحيانًا، وأحيانًا أُخرى تتوسّع فوق جثث الأبرياء، إنما الوطن هو الذي يمنحكِ الحرية، ويُطلقُ العنان لأفكاركِ دون قانون يقصُّ جناحي الفكرة ويُجرّم طيرانها. الوطن حيثما تُمارسين طقوسكِ الدينية علنًا في أمانٍ تام، مهما بدت أفكاركِ، أو طقوسكِ الدينية مختلفة عن النمط السائد.

ملأت رئتيها بالهواء وأضافت:

- هناك سوف أتنفسُ الحرية، كما لم أتنفّسها من قبل.

"آه، ليتني كنتُ مكانكِ". تحسّرتُ في نفسي، وتابعتُ: "فالحرية في وطني تُعتبر جريمة أخلاقية إذا طالبت فيها المرأة". ثم ازدردتُ ريقي قائلة:

- ليت بإمكاني السفرُ معكِ.

تأوَّهت خولة:

- آه يا حصّة، أنتِ الشيء الوحيد الذي سأحنُّ إليه صدقًا.

وواصلت بصوتٍ يرتعشُ:

- ليت أباكِ كان مُتفهمًا.

وبينما كانت أشواقنا تتعانقُ، قاطعَنا قرعُ بابها في حسدٍ، فاضطرّتْ إلى إنهاء المكالمة:

- أتصلُ بكِ لاحقًا، اعتني بنفسكِ جيدًا.

- حسنًا، وأنتِ كذلك.

وأغلقتُ الخط، ثم رنوتُ إلى السَّماء عبر النافذة، وسرح ذهني قليلًا. "جاءت هذه المكالمة في وقتها المناسب". فكّرتُ في نفسي، كان صوتها الدافئ قد لملم بعضًا من شتاتي، فقد كانت مشاعري تترنح اضطرابًا، وحياتي تزدادُ حلكة ويخبو شيئًا فشيئًا آخرُ أملٍ لي بالنجاةِ، ومع كُلِّ نفسٍ يتسربُ إلى رئتي أشعرُ بحريق يضطرم في روحي.

لم تكن خولة صديقة وحسب، بل كانت الملاذ الذي احتوى عقدي النفسية طيلة السنوات الماضية، وعلى الرغم من الاختلاف الذي اغتال عقولنا جدلًا طوال سنوات المرحلة الثانوية، كانت الراحة تهبطُ إلى قعرِ أعماقي المضطربة، وتكتنفُ روحي المضطرمة، كلّما قرع صوتها الدافئ طبلة أُذني، مسافرًا عبر الأثير.

ياسين

"ما أصعب أن تكون أنت في زمنِ الأقنعة"

- 1 -

بعدما فرغتُ من الصلاة، سحبتُ نفسًا عميقًا ملء رئتيّ ثم زفرته بهدوءٍ تام، وغمرتني راحةٌ - كانت قد هجرتني - من رأسي حتى أخمص قدمي.

بعد برهةٍ وجيزة شرعت أعصابي تهدأ في اطمئنانٍ عذب أقصى حدود العذوبة، بيد أنّ ثمّة بقايا من القلق كانت قد علقت في زاويةٍ ما في قلبي، ومثل نسورٍ - تتضوّرُ جوعًا - تجمّعت حول جيفةٍ، كانت أفكاري السوداوية تنهالُ على عقلي المتعب.

وبينما كانت الأفكار تعصفُ بي كموجِ بحرٍ غاضب، وتقذفني بعيدًا عن شواطئ الراحة، شدّني حمد من سوداويةِ الأفكارِ هاتفًا:

- ياسين!

أدرت وجهي إليه فاغرًا فمي على نصفِ وسعه، وعيناي ترنوان إليه بنظرةٍ بلهاء.

- أقفل فمك، قبل أن تدخله ذبابة.

هكذا قال وغرق بالضحك في الحال، حتى أغمضت عيناهُ تمامًا، ثمّ مضى في كلامه. بيد أنّ ذهني بقي نصف شاردٍ، فلم أصغِ إلى نصف ما قاله بعد ذلك، أو ربما كل ما قاله!

شرعت البقايا المترسّبة من القلق في قلبي تستولي على ذهني، وتستحوذُ على انتباهي كله. "أكلّما تقدّم العمرُ بنا زادت أوجاعنا ضراوةً!" تساءلتُ في نفسي.

- ما رأيك؟

قال حمد بصوتٍ عالٍ، فأيقظ ذهني الغارق في غمرةِ الشرود. أومأتُ برأسي تأييدًا والنظرةُ البلهاءُ ذاتها كانت تعلو قسمات وجهي، فاستطرد على الفور:

- حسنًا، كنْ جاهزًا في تمام الساعة السابعة مساءً.

أجبته وقد صبغت الدهشة ملامحي:

- الساعة السابعة!

عقب ناصر في هذه اللحظة:

- إنه معنا بجسده وحسب، بيد أنّ ذهنه في عالمٍ آخر.

سعلتُ عدّة سعلات تفاديًا للحرج، ثم قلت:

- لا، أبدًا، لم يشرد ذهني البتة، لكن...

وتوقفتُ عن الكلامِ في غضونِ الثواني العابرة؛ كانت الكلمات قد تعثرت في الوصول إلى شفتيّ، أو على نحوٍ أدق، توارت خلف حرجٍ شديد، نجم عنه احمرار اعتلى وجهي. ألقى حمد بصره إليّ، وبرم طرف شاربه بإبهامِهِ والسبّابة، ثم دنا مني قائلًا:

- لا بأس، سأعيدُ عليك ما قلته قبل قليل.

وملأ صدره بشهيقٍ عميق، ثم استرسل:

- لقد أخبرتك للتو، أننا نقلنا ديوان العائلة الأسبوعي من بيتِ عمي إلى بيتنا، منذُ عامٍ تقريبًا، كما أنني أكّدتُ لك أيضًا، بأنّ حضورك الليلة في الديوان مهم للغاية؛ فأنت الابن الأكبر. ثم سألتك ببساطة: أيمكنك الحضور؟ فأشرت برأسك بإيماءةٍ على الفور، ورفع أبي يده ضامًّا أصابعه الأربعة عدا الإبهام في مباركةٍ للفكرة.

- ماذا!

قلتُ بنبرةٍ فيها مسحة من الدهشة، ثم دعكتُ جبيني بأصابعي النحيلة باحثًا عن مهرب من هذا المأزق، وتابعت بصوتٍ يسوده التوتر:

- لا يا حمد، أرجوك اعفني اليوم، فأنا...

تدخّل أبي في نبرةٍ صارمة بعدما تنحنح بوقارٍ شديد:

- لا بدّ من وجودك اليوم.

واستطرد بعد أن رشف رشفةً سريعة من فنجان القهوة:

- لا قيمة لنا في المجتمع ما لم نكن عصبةً واحدة.

"أما زلت تؤمن بهذه الترّهات؟"، هكذا سألته مُتهكّمًا لكن في سرّي، بيد أنني بصوتٍ مسموع تفوّهتُ بما يجعلني مُنافقًا:

- كلامك هو عينُ الصواب يا أبي، لكنني مرهقٌ للغاية، وأودُّ أن أرتاح الليـ...

صاح بصوتٍ ضجِر:

- كفاك أعذارًا يا ولد.

ثم رمى الفنجان من يده على الأرض غاضبًا، وراح الفنجان يتدحرج حتى ارتطم بزاويةِ الغرفة، وانتصب بطوله المهيب يشوّحُ بيده مُتمتمًا، مُتغضّن الجبين، ثم شزرني بنظرةٍ أثارت رعدةً - لاشعورية - في أوصالي، وأضاف حاسمًا الموضوع:

- جهّز نفسك، وكن أول الحضور.

غادر غرفة المعيشة إلى الحديقة في الحال؛ هذا دأبه كلما ثار حنقًا، ينتصبُ بين شُجيراته الصفراء، المتيبسة موتًا، وفوق رأسه تجولُ سحابة من الدُخان. "ما خطبه؟"، سألتُ ناصر وحمد لكن بتعابيرِ وجهي، فأجابني ناصر:

- تعوّذْ من إبليس، وكن أول الحضور.

أمّا حمد فعقّب ساخرًا:

- وكأنك تلتقي به للمرّةِ الأولى! هكذا هو منذُ أن فتحنا أعيننا على الدنيا.

افترّ ثغري عن ابتسامةٍ عابرة، ثم رفعتُ بصري إلى الأعلى ومسحة من اليأس تصبغ قسمات وجهي، همهمتُ في سرّي: "أمري لله". ثمّ انتصبتُ وخطوتُ خارج الغرفة، صعدتُ السلالم مُتثاقل الخطوات، وواصلتُ تذمري في خلدي، حتى بلغتُ الطابق الأول: "عبثٌ كُلُّ محاولاتنا في الاحتجاجِ على أمرٍ كان مقضيًّا".

- 2 -

أغلقتُ بابَ غرفتي، وأقفلته بإحكامٍ بعدما دلفت، ثمّ وقفتُ عند مدخلِها لدقائق، أجولُ ببصري في أرجاءِ الغرفة وتزدادُ نبضاتي خفقانًا مروّعًا. ملأتُ صدري بشهيقٍ عميق؛ عسى أن تهدأ نبضاتي قليلًا، تسرّبت رائحةُ الماضي إلى ذاكرتي، موقظةً في الفؤادِ حنينًا عتيقًا، أطلقتُ زفرةً طويلة، وأطبقتُ جفنيّ لحظةً، ثم فتحتهما، وهمهمتُ في سرّي: "يا للذكرياتِ المدفونة بين الملاءات البيضاء والوسائد الكبيرة، كم من حكايةٍ تحفظها منفضةُ السجائر - المهجورة - فوق المنضدة؟! وكم من ذكرى سحقتها أقدام السنوات، لكن بقيت حيّة في الصور المتراصّة بعضها بجانبِ بعض على الجدران؟!" أمعنتُ النظر في الصور برهةً، وخُيّل إليّ أنّ الذكريات تتجمعُ تأهّبًا؛ كي تشنَّ غارةً على ذاكرتي، وتحتل ما تبقى منها.

تقدمتُ بضعَ خطواتٍ نحو السرير، ثم هويتُ فوقه، مثل مبنى عتيق هدَّته السنون، دفنتُ وجهي بين الوسائدِ أملأ رئتيّ بعبقِ الماضي، وأستنشق رحيقَ ذكرياتٍ لا تنفكُ عن مُطاردتي ليل نهار، وتسلل خلسةً إلى أعماقِ رئتيّ عطرٌ لبلقيس كان قد علق في إحدى الوسائد وفاءً لها.

ثمّ لاحت ليلةُ زفافنا في مُخيّلتي على حينِ غرّة، أطبقتُ جفنيّ وابتسامة عابرة مرّت بشفتيّ، سرقتُ من الوسائدِ شهيقًا، حتى تمرّغ أنفي بالوسادة التي علق بها العطر، وتشبعت رئتاي بشذاها. أعادني عطرها ستةَ أعوامٍ إلى الوراء. واستحضرت ليلة الزفاف نفسها بنفسها كما لو كان الماضي يخترقُ جدار الزمن نحو الحاضر، ويتمثّلُ أمامي هذه اللحظة في مشهدٍ حي.

وتجلّت بلقيس من مُخيّلتي إلى أرضِ الواقع، ترتدي فستان زفافها الأبيض، وتشعُ نورًا في غرفةٍ أنوارها خافتة، والرمادي باحتمالاته المتعددة يُلوّن الأثاث، والجدران. فاح عطرها في المكان، فأيقظ الأشواق بإثارةٍ، ودغدغ المشاعر عندما داعب أنفي، شعرها المنسدل إلى آخرِ ظهرها، مثل ليلٍ يلتقي بالنهار في لقاءٍ نادرٍ أشدّ الندرة. كانت قد جلست على طرفِ السرير وبدت قسماتُ وجهها متوترة، والخجلُ ينبثقُ من عينيها المسبلتين، ومن شفتيها المرتعشتين، كان حسنها قد فاق قدرة اللغة على الوصف، كانت ببساطة مثل أميرةٍ من أميراتِ القصصِ الخيالية.

نزعتُ غترتي عن رأسي والعقال، ووضعتهما على شماعةِ الملابس بهدوء بيد أنّ قلبي كان يخفقُ خفقانًا سريعًا، مثل خفقانِ قلبِ عدّاءٍ أنهى لتوّه سباق المئةِ متر، ثم خطوتُ نحوها على مهل وبالكادِ ألتقطُ أنفاسي، جلستُ قربها، وثمة رعشة خفيفة تغتالُ أطرافها بين الفينةِ والأُخرى، قلبها كاد يتوقّف عن النبضِ لحظةً.

مثل التماثيلِ الإغريقية قديمًا كان جسدها منحوتًا نحتًا إلهيًّا، وشرع يتوقّد إثارةً عندما لمستُ يدَها برفق، ثم شددتُ كفّي فوق كفّها بعنفِ الأشواق.

دنوتُ منها أكثر حتى التصق كتفانا، أو على نحوٍ أدق، امتزجا، ثمّ اقتربت شفتاي ببطء نحو أُذنها، فطوّقتْ دفء أنفاسي نحرها العذب، وعبرت أوصالها نوبة قشعريرة شعرتُ بها، وكأنما قد عبرت جسدي قبل أن تصل إليها. همستُ بأُذنها:

- آه، يا حبيبتي، ليس هنالك ما يدعو للقلق، أريحي شفتيكِ من التوتر بابتسامةٍ، وميلي برأسكِ على صدري فحسب.

كانت أنفاسها مُتقطّعة حدَّ القلق، وصدرها يرتفع ويهبط مع كُلِّ نفسٍ ينسرب إلى رئتيها، رمقتني بنظرةٍ خاطفة، وأطرقت بصرها إلى الأرض في الحال. ثمّ مالت برأسها على صدري، واحتضننا الصمتُ دقائق.

كانت أنفاسنا بلُغةٍ ما - أبلغُ من الكلمات - تتغازلان. بيد أنّ رنينَ الهاتف اللعين أيقظني من هذه اللحظة العابرة، وانتزع ذهني من شروده، وألقى به في حاضرٍ أمقته. كان ناصر هو الذي أيقظني باتصاله المباغت. وبإصبعٍ مُرهقٍ مسحتُ على شاشةِ هاتفي ببطء، ثمّ وضعته على أُذني مجيبًا:

- أهلًا ناصر.

- حمدًا لله أنك على قيدِ الحياة، فقد اتصلتُ بك خمس مرّاتٍ وما من مُجيب.

- غريبة! لم أسمع رنينه...

قاطعني مُتهكمًا:

- منذُ عامين وأنت خارج نطاق التغطية، وبات ضروريًا شحن قلبك ببطاقةِ تعبئة مليئة بالحياة.

أطلق قهقهةً حادة، "لا زالت دعاباته سخيفة". فكّرتُ في نفسي، وأمسك عن الضحك بغتة كما لو كان قد اختنق بشيءٍ ما.

- مالك تُقهقه كالنساء!

هكذا زجره أبي غضبان. "حتى بالضحك هنالك ضحكات خاصة بالنساء، وأُخرى خاصة بالرجال!" تساءلتُ في نفسي، تنحنح ناصر

مرتبكًا، وازدرد ريقه بصعوبة، ثم أجابه:

- آسف يا أبا ياسين، لكن ابنك ياسين..

باغته بسؤالٍ في الحال، بنبرةٍ رصينة:

- أياسين معك على الهاتف؟

- نعم.

- استعجله إذن؛ فالديوان بدأ يكتظُّ بالزوّار.

- لا تقلق يا أبي، سيكون من ضمنِ الحضور.

- دع القلق له إن تخلّف.

هكذا هدد بلهجةٍ وعيدٍ واضحة، لكن بنبرته الرصينة ذاتها، ثم مضى في سبيله على ما يبدو، فاستطرد ناصر بصوتٍ ساد القلق نبراته:

- لقد سمعتَه بنفسك، فلا تتأخر أكثر، كن في الديوان في أقربِ وقتٍ ممكن قبل أن تضع نفسك في موقفٍ لا تُحسد عليه.

- يا صبر أيوب...

وتركتُ جملتي مفتوحة، ثم أضفتُ بنبرةٍ فيها مسحة من التوتر:

- حسنًا، دقائق وسأكون في الديوان.

أغلقتُ الخط في الحال، ونهضتُ مثل المصروعِ نحو الدولاب، ألتقطُ أنفاسي على نحوٍ مُتقطّع، ورعشةُ خوفٍ عبرت يديَّ فجأة، كما لو أنني عدتُ طفلًا يرتعدُ رعبًا من صوتِ خطى أبيه، بسرعة فتحتُ الدولاب وجلتُ ببصري بين الثياب، أخذتُ ثوبًا وتناولتُ الغترة والعقال على الفور، كنتُ في سباقٍ مع الزمن، ويا له من سباقٍ مرعب.

- 3 -

بأرجلٍ مسلوبة الإرادة خرجتُ من غرفتي أمشي بخطواتٍ سريعة، ومضطربة، نحو الديوان، جالت في الخاطرِ أُمنية: "لو أنّ رصاصةً طائشة في زفافٍ ما، تجدُ طريقها إلى صدري من بينِ الحضور، وتخترقُ قلبي؛ لتنسلّ الروح من جحيمِ الجسدِ البائس نحو الربيع". بيد أنها بقيت أُمنية تجولُ - بغيرِ هدًى - في الخاطرِ.

وقفتُ قبالة مدخلِ الديوانِ برهةً، رفعتُ بصري إلى الأعلى، كان قد أُعيد بناؤه من جديد على نحو فخم يليقُ بنائبٍ قادم، وقفتُ منزعجًا من الثوب الذي أرتديه؛ إذ كان يتّسعُ لاثنينِ مني، وكدتُ أن أتعثر مرتين بسببهِ. "تُرى كم فقدتُ من وزني في العامين الماضيين!" تساءلتُ في نفسي بينما كنتُ أرنو ببصري إلى مدخل الديوان المليء بالأضواء المبهرجة، كما لو كان مدخلًا لقصرٍ من قصورِ المماليك القديمة.

أطبقتُ جفنيَّ وملأتُ رئتيَّ بالهواء، ثم أطلقتُ زفرةً طويلة مليئة بالوجع، كررتها مرّةً أُخرى ثمّ دلفتُ إلى الديوان متأخرًا، كان الاستياء يعلو ملامح أبي فور ما وقع بصره عليّ، حدجني بنظرةٍ أثارت خفقة مضاعفة في قلبي، بلعتُ ريقي متوترًا، ثم قلتُ بنبرةٍ مهزوزة تخلو من الثقة:

- الـ.. السلام عليكم.

أجابني الجميع:

- وعليكم السلام.

تناهت إلى مسمعي أصواتٌ مُتفرّقة: "نوّرت الديوان، اشتقنا إليك، من طال غيابه عاد بالغنائم". افترّت شفتاي عن نصفِ ابتسامةٍ صفراء، وتمتمتُ في خلدي: "يا لكم من منافقين!".

لمحتُ أبي في تلك الأثناء، كان لا يزال يحملقُ إليّ بحدّة، مُصفرّ الوجه، ثم ألقى بصرهُ يمنةً ويسرةً وابتسامة مصطنعة طافت بشفتيه العابستين، كانت هيئتي قد أحرجته؛ هزيلٌ في ثوبٍ فضفاض، مثل الكومبارسِ الذي يظهرُ عادةً في الأفلامِ المصرية بدور الخليجي.

أشار لي ناصر بيمينه قائلًا بصوتٍ مُفعمٍ بالحماسة:

- تفضّل يا أخي، اجلس هُنا.. قربي.

خطوتُ نحوه ثم جلستُ قربه، لكن بعد أن صافحتُ جميع الحضور فردًا فردًا؛ فالسلام وحده لا يكفي، بل يُعدُّ إهانةً ما لم تُصافح جميع الحضور مع ثلاث قبلات للمقرّبين، واحدة على الخدِ الأيسر واثنتين على الخدِ الأيمن. هذه تقاليدنا التي ورثناها عن أجدادنا، ومَن يتمرّد عليها يتحوّل خطرًا على المجتمع، ويغدو إنسانًا غير محترم في نظرِ الآخرين، ويُصبح بطبيعةِ الحال منبوذًا من الجميع.

استأنفوا الحوار بعدما جلستُ، كان على ما يبدو من الحوارات العقيمة، التي غالبًا ما تنتهي بخلافٍ وأحقاد تُضمر في القلوب.

كان حمد في أوجِ انفعاله، كأنما في برنامجٍ تلفزيوني ما، وأبي كان يؤيده عبر إيماءةٍ برأسهِ بين الفينة والأُخرى، وعمي يدعم آراءه على الفور بكلمةِ تأييد لا تشوبها شائبة. "أخي الصغير لم يعد صغيرًا". فكّرتُ في نفسي، وعندما تلاقت أعيننا في لحظةٍ عابرة، افترّ ثغره عن ابتسامةٍ

خفيفة، تجلّى خلالها اعتزازه الكبير بنفسه، ثم مضى في كلامه:

- من السذاجةِ أن ننتخب المرشحين ذاتهم، وننتظر منهم نتائج مختلفة.

وأضاف بعدما رنا إلى أبي، فدعمه بإيماءةٍ على الفور:

- هذا البلد يحتاج إلى الشباب.

ثم رمى سؤالًا دغدغ به مشاعر الحضور:

- مَن منكم يُلبي الراتب كل احتياجاته؟

- أصبت يا ابن أخي.

هكذا قال عمي دعمًا بصوتٍ تخلّلت الحسرة نبراته، فضجّ الحضور بالتذمر، تعالت أصواتهم بحسرة، وغصّت حناجرهم بالشكوى، ثم تابع حمد بحرقةٍ، بدت لي مُصطنعة:

- أيعقل أن نعيش في وطنٍ غطّى خيره نصف الكرة الأرضية وشعبه ما زال مديونًا؟

- تلك الأسطوانة المشروخة، دائمًا ما يُطرب لها المواطنون.

هكذا همس لي ناصر متذمرًا بصوتٍ فيه مسحة من اليأس، لكن أبا عبدالعزيز، صديق الوالد المقرّب، اعترض قائلًا:

- ما أسهل الكلام يا بُني...

بيد أنّ حمد قاطعه في الحال، لكن بلباقة:

- ونحنُ يا عم أبا عبدالعزيز قد اكتفينا من الكلام.

أومأ أبي برأسه مؤيدًا، وقال عمي داعمًا:

- فعلًا، لقد اكتفينا من الكلام، والأمل بكم يا حمد.

أدار حمد بصرهُ في وجوهِ الحاضرين وجهًا وجهًا، ثم واصل:

- لا بدّ من بثِّ دماءٍ جديدة في البرلمان، قبل أن يفوت الأوان.

كان الحضور قد تعرقل سلفًا بالتذمر، وسقط في شركِ الاستياء حدَّ اليأس، وبات الجميع لُقمةً سائغةً تلتهمها وعود السياسيين الزائفة. وفي غضونِ هذا النقاش المقيت أدرتُ وجهي ضجِرًا نحو ناصر، إلا أنه كان قد أطرق بصره نحو هاتفه، وانفصل عن عالمنا تمامًا، شرع يبتسمُ تارة ويعبسُ أُخرى، ثمّ غادر الديوان على حينِ غرّة دون أن ينبسَ بكلمة، طاردته عيون أبي ممتعضة، بيد أنه تظاهر جاهدًا باللامبالاة أمام ضيوفه، وهذا ما يعني أنّ ثمة حسابًا عسيرًا بانتظاره.

نهضتُ خلفه على الفور لكن بهدوء كي لا يلحظ لحاقي به، كان متغضّن الجبين، وسحابةٌ سوداءُ مُحمّلةٌ بالغمِّ تطوفُ بملامحهِ الشاحبة، كان ثمة ما يُقلقه أشدَّ القلق، حتى بات يلتقطُ أنفاسه بمشقّة، كأنما الهم قد جثم على صدره. أسند كتفه إلى الباب الخارجي كما لو أنّ قواه انهارت بغتةً، ثم وضع هاتفه على أذنهِ وسأل بصوتٍ مهموم، بدا أنه خرج من حنجرةٍ أُخرى:

- ما بالكِ محبطة؟

ثم أضاف بهمسٍ بعدما تنحنح محرّرًا صوته من قبضةِ الهم:

- لا تقلقي، سوف أقنعه مهما كلّفني الأمر.

اقتربتُ منه أكثر وأنصتُّ، تابع كلامه والنبرة المهمومة استولت على صوتهِ مرّةً أُخرى:

- سوف نصنعُ قدرنا بأيدينا، هذا وعدٌ مني.

وأغلق الهاتف، تأمّل شاشته برهةً وجيزة، ثمّ ملأ رئتيه بالهواء في شهيق عميق، وعلى نحو مفاجئ أدار جسمه باتجاهي، فانتفض فور رؤيتي كما لو أنه رأى عفريتًا. التقط أنفاسه فزِعًا، وأطبق جفنيه لوهلةٍ سريعة، ثم فتحهما قائلًا بنبرةٍ ترتعشُ قليلًا:

- لقد أفزعتني.

وسعل عدّة سعلات؛ كي يطرد الرعشة من حنجرتِهِ، ثم استطرد:

- منذ متى وأنت تتنصّت؟

- ما لها مُحبطة؟

أجبتُ على سؤاله بسؤالٍ آخر، رغم أنني لا أعرف مع مَن كان يتحدث، ألقى بصره نحوي بنظرةٍ لم أفلح بترجمتها، ثم تأوّه قائلًا بصوتٍ سادت البحّة نبراته:

- مفهومنا للحياة مشوهٌ يا أخي.

تسرّبت تنهيدة طويلة من جوفه، حملت كُلَّ الوجع المدفون في روحهِ، ثم مضى يقول:

- الحياة بسيطة لكن نحنُ مَن نُعقدها بترُّهاتنا.

ربَّتُّ على كتفهِ ثم سألته مرّة أُخرى؛ في محاولةٍ لترجمةِ هذا الغموض الذي يكتنفُ كلماته:

- لمَ القنوط يكتنفُك؟

صوّب بصرهُ نحوي، مضيقًّا عينيه بحدّة، ظلّ مُحدقًا إلى وجهي لثوانٍ، ثم كرر الجملة ذاتها، كما لو كان يزنها بلسانه، بعدما افترّ ثغره عن ابتسامةٍ شاحبة، أضافت مسحة من الحكمة على ملامحه الذابلة:

- لِمَ القنوط يكتنفُك!

وأفلتت من جوفهِ قهقهةٌ، هي أشبه بالبكاء، يسخرُ خلالها من كُلِّ قيدٍ التفَّ حول حريته، ثم استرسل في الغموض ذاته بعدما أشعل سيجارته:

- كأنني في نفقٍ مُظلمٍ، ومن بهيمِ الظلمةِ يبزغ نور من بعيد على حينِ غرّة، ظننته الأمل في البداية، لكن بعد أن أمعنتُ النظر جيدًا، كان قطارًا قادمًا نحوي بقوّة...

وأمسك عن الكلامِ بغتةً، رفع بصره نحو القمر بنظرةِ تأمّلٍ، ثم سحب نفسًا طويلًا من سيجارته، أطلق سحابة من الدفان تطوفُ فوق رأسينا، ثمّ هزَّ رأسه بشيء من التهكم، وأدبر يجرُّ خلفه خيبةَ أملٍ تكادُ أن تقصمَ ظهره، أخفى وجعه خلف ابتسامةٍ باردة. ما أبشعها؛ يغدو المرء مثيرًا للشفقة عندما يبتسمُ ويلمعُ في عينيهِ الألمُ. عاد إلى الداخل مُثقلًا بقيودٍ كلما حاول التخلص منها أحكمت قبضتها عليه أكثر.

ناصر

"عندما ينبضُ القلب، يفقدُ المنطق حجّته"

- 1 -

هرعتُ إلى خارجِ الديوان مُشوّشَ الذهنِ، مُطرقًا بصري إلى الأرض، ولم أنبس ببنتِ شَفة، وشعرتُ بعيني أبي تلاحقانني باستياءٍ شديد؛ كان خروجي على ذلك النحو فيه خدش لاحترام الضيوف لكن وعلى الرغمِ من ذلك، لم أكترث لاحترامهم الهش، وواصلت خطواتي تقدّمها. كانت فاطمة قد اتصلت مرتين، بعد أن أرسلت عدّة رسائل أفقدتني صوابي، كانت آخرها: "لم أعد أحتمل هذا الحال، لقد ضقتُ ذرعًا من الانتظار".

وقفتُ قرب الباب الخارجي محني الظهر، كأنما الكون برمّتهِ قد ألقى بحمله على كاهلي، فتحتُ أوّل زرٍّ من الثوب، وشرعتُ أتنفّسُ بعمق، ثمّ أسندتُ كتفي إلى البابِ ولفظتُ كل الهواء من صدري دفعةً واحدة، اتصلتُ بها، ودهمتها بسؤالٍ فور ما أجابت:

- ما بالكِ محبطة؟

أجابتني بصوتٍ مُتهدج، بدا على حافةِ الانهيار:

- إنّ حبك ينتشرُ في جسدي مثل الحُمّى، وعلاجي بيدِ أبيك لكن لا أمل من موافقته على زواجنا، لا أمل البتة.

أطبقتُ جفنيّ وواصلتُ التنفّس بعمق، وهدوء، حاولتُ جاهدًا هزم اليأس في صوتها، بيد أنّ محاولتي ولدت ميتة. تنحنحتُ قليلًا، ثم استجمعتُ ما تبقى من قواي قائلًا:

- لا تقلقي، سوف أقنعه مهما كلّفني الأمر.

- أوَتعتقدُ بأنك قادرٌ على إقناعهِ!

وطرحت تساؤلًا آخر، يشوبه التشاؤم:

- هل سيجمعنا القدر يومًا ما تحت سقفٍ واحد!

- سوف نصنعُ قدرنا بأيدينا، هذا وعدٌ مني.

هكذا وعدتها، ولا علم لي إن كنتُ قادرًا على تنفيذِ هذا الوعد، لكن أعلمُ يقينًا أنني سأبذل قصارى جهدي في سبيل تحقيقه. أغلقتُ الخط، بيد أنّ الأمل نفسه كان يائسًا. حملقتُ إلى شاشةِ الهاتف، "كيف سأقنعه؟"، سألتُ نفسي حائرًا. ازدردتُ ريقي، ثم أدرتُ جسدي بحركةٍ سريعة إلى الخلف، عائدًا إلى الديوان، فانتفضتُ جزِعًا عندما رأيتُ ياسين يقفُ أمامي مُحملقًا بعينيه المشدوهتين، فاغرًا فاهه كالأبله، ظلّت ملامحه مُتخشّبةً على هذا النحو لثوانٍ، أغمضتُ عينيّ مُتمتمًا في سرّي: "بسم الله الرحمن الرحيم". والتقطتُ أنفاسي على نحو مُتقطع.

- لقد أفزعتني.

هكذا قلتُ مذعورًا، وسألته بعد أن استعدتُ هدوئي:

- منذُ متى وأنت تتنصّت؟

لم يُعر سؤالي أدنى احترام، وظلَّ كالأبله مُحملقًا وعيناه شرعتا تتّسعان أكثر فأكثر، ثم سألني بعد أن ازدرد ريقه:

- ما بالها مُحبطة؟

حدجته مُغتاظًا، وعبرت ذهني كل المفاهيمِ والعادات التي نشأنا على أنها مُطلق الصواب، ثم استطردتُ بعدما أفلتت من أعماقي آهةٌ قصيرة:

- مفهومنا للحياةِ مشوّهٌ يا أخي.

وأطلقتُ بعدها تنهيدة عميقة، مليئة بالحسرة، ثم تابعتُ كلامي وغصّةٌ قد سكنت صوتي:

- الحياة بسيطة لكن نحنُ مَن نُعقدها بتُرّهاتنا.

ربّت على كتفي، لكن شيئًا ما بداخلي قد نفر منه. "لماذا؟" سألتُ نفسي مشدوهًا، لكن السؤال بقي عائمًا في خلدي دونما إجابة شافية. ثمّ وجه سؤالًا آخر:

- لمَ القنوط يكتنفُك؟

كوّرتُ قبضةُ يميني بشدّة، وددتُ لو كانت إجابتي عبارة عن لكمةٍ تستقرُّ في وجهه، إلا أنني تمالكتُ أعصابي في اللحظةِ الأخيرة، "ما شأنك؟" قلتُ في سرّي، واكتفيتُ بالتحديق إليه لثوانٍ معدودات، افترّ ثغري عن ابتسامةٍ ساخرة، ثم كرّرتُ ما قاله بنبرةٍ فيها مسحة من الاستهزاء:

- لمَ القنوط يكتنفُك!

وأفلتت من حنجرتي قهقهةٌ نجمت عن البؤس القابعِ في قلبي، وبعد لحظةٍ أشعلتُ سيجارتي واسترسلتُ:

- كأنني عالقٌ في نفقٍ مُظلم، ومن بهيمِ الظلمةِ يبزغ نورٌ من بعيد على حينِ غرّة، ظننتهُ الأمل في البداية لكن بعد أن أمعنتُ النظر جيدًا، كان قطارًا قادمًا بقوّة...

وتركتُ جملتي مفتوحة، ورنوتُ إلى القمر في الأفق البعيد، كان وحيدًا في كبدِ السماء المظلمة. ثمّ أخذتُ نفسًا من سيجارتي وملأتُ الفراغ بالدخان، وهززتُ رأسي ساخرًا من كل ما يُحيطني من قيود، وعدتُ أدراجي بعد ذلك خائبًا إلى الديوان، حيثُ الأقنعة والنفاق والدجل سمةُ الحضور، أو على نحوٍ أدق، المجتمع.

جلستُ أتأملُ وجه أبي إذ ألقى بصره نحوي حين دلفت في نظرةٍ خاطفة، مليئة بالسخط، بينما كان يروي إحدى حكاياته المملة، لو لا الشيب المنتشر في شعراته القليلة المطلّة من تحت طاقيته، ومكانته العالية في المجتمع ما كان قد استمع إليه أحد من الضيوف، كانت العنجهية تنبثقُ من عينيه الجاحظتين، "يا لهيبةِ تجاعيده". فكرتُ في نفسي، ومضيتُ: "لم تُفلح السنون في ترويض غطرسته، بل زادته نرجسيةً". وبين الفينة والأخرى كان صوت فاطمة الحزين يقطعُ حبل أفكاري هاتفًا: (هل سيجمعنا القدر يومًا ما تحت سقفٍ واحد؟) هذا السؤال الذي حرّر مني وعدًا، بدا حملًا إضافيًّا، وشرع يُرهقني.

وبينما كان أبي يتحدّثُ عن بطولاته السالفة، كان محمد السائق قد قدّم له فنجان القهوة. محمد لم يكن اسمه الحقيقي، لكن الوالد لم يستسغ اسمه لصعوبةِ نطقه، فأطلق عليه محمد، مثل بقيةِ أفرادِ المجتمع عندما لا يستسيغون اسم أحدِ الخدم فيغيرونه بسهولة.

التفت أبي إليه مادًّا يمينه، بيد أنه سُرعان ما عبس وجهه، مُقطّبًا حاجبيه، وصاح ساخطًا:

- ناولني الفنجان بيمينك.

ولوَّح بيده مُتغضّن الجبين، إلا أنّ علي ابن الجيران تدخّل على الفور:

- على رسلك يا عمي، قد لا يقصد الإساءة، فهو لا يعرف عاداتنا.

- بل يعرفها جيدًا؛ فقبل أن تولد أنت وهو يعملُ خادمًا في الكويت.

ثم سعل بشدّة، في حينِ كان السائق يرنو إليه بحدّة، ناوله حمد كأسًا من الماء في الحال، شرب نصفه، ثم أضاف:

- ولا أستبعد إن طالب هو الآخر بالجنسية، فقد أصبحت الكويت مطمعًا للجميع.

قهقهة عمي طلال بغتةً، قهقهةً مُتقطّعةً، ثمّ علّق:

- باتت الهوية الوطنية مهددة بالانقراض.

وتعالت أصوات الضيوف جزعًا وتذمّرًا من فكرةِ انقراض الهوية الوطنية، عدا قلّةً قليلة فضّلت الصمت على مشاركتهم الجزع والتذمّر، ومحمد السائق كان لا يزال واقفًا، بيمينهِ الدلّة، والفنجان بيسارهِ، اكتفى بابتسامةٍ مذلّة عبرت شفتيه المتقشّفتين، وجال ببصره في وجوهِ الحاضرين ثم أطرقه إلى الأرض، بعد أن خطف نظرة سريعة - بدت منكسرة - نحو أبي. "ماذا لو دارت الأيام، وأصبح أبي محمد، وأضحى

محمد ربَّ البيت، هل كان سيرضى بمعاملةٍ كتلك؟" سألتُ نفسي مرتابًا، ثم انتصبتُ مُتجهّم الوجه، وغادرتُ الديوان في الحال.

ركبتُ سيارتي والغضب كان قد أعمى بصيرتي، انطلقتُ مسرعًا نحو المجهول، لا وجهة محدّدة أقصدها، عدا الابتعاد عن هذا المكان. قدتُ بتهورٍ على غير العادة، وفاطمة لا تنفك عن الاتصال تارةً وأخرى ترسل رسائل نصيّة، رسالة تلو الأخرى، ومكالمة بعد مكالمة، وعقلي مزدحمٌ بأسئلةٍ عقيمة لا تُنجب أية إجابات، ثم لاحت فكرة الهجرة في ذهني على نحو مُباغت، كأنما في الهجرةِ حلٌّ لجميعِ مشاكلي، "الهرب!" فكّرتُ في نفسي.

وفي غمرةِ الأسئلة العقيمة، كانت الهجرة قد شرعت تتجلّى في عقلي بوضوح، إلا أنّ الشارع في غضونِ ذلك، احمرّ بغتةً؛ فكل السيارات قد فرملت فجأة في الوقتِ ذاته، وتوارت الأسئلة العقيمة، وفكرة الهجرة خلف فزعٍ شديد، ضغطتُ بقدمي اليُمنى على الفرامل بقوّة، وفتحتُ عينيَّ على وسعهما هلعًا؛ عندما أدركتُ أنّ الفرامل لم تستطع إيقاف سرعة السيارة، رفعتُ قدمي مرعوبًا ثم ضغطتُ بها بقوةٍ مُضاعفة مرّةً ثانية، وكررتها ثالثةً، ورابعةً، لكن دونما جدوى، المسافة كانت قصيرة جدًا، والفرامل بدت مستهلكة للغاية، تشبثتُ بالمقود مذعورًا، وكان جسمي يتوقّدُ ريبةً، تفصّد جبيني عرقًا، سقط العقال من فوق رأسي، وقلبي خفق مرتاعًا.

انعطفتُ يسارًا إلى حارةِ الأمان فجأة كأنما يدي قد اتخذت القرار بنفسها، لكنني تفاجأتُ بحافلةٍ تقفُ أمامي! لم يعد هنالك مُتّسعٌ من

الوقت لتفاديها أو التوقف، فارتطمت سيارتي بها، كاد دوي الارتطام أن يُمزّق طبلتي أُذنيّ.

للوهلةِ الأولى لم يستوعب ذهني الحدث، وبدا كأنما يعيشُ كابوسًا مرعبًا، بعد لحظةٍ قصيرة بدأ ضجيج الأصوات يتلاشى شيئًا فشيئًا حتى انعدمت كل الأصوات فجأة، كأنما أُصبتُ بالصمم، زادت نبضاتي خفقانًا مخيفًا، وبدت الأشياء حولي تتباطأ بسرعتها حتى خيل لي أنها تطفو بالهواء! تداخلت الأحداث بعضها ببعض على نحو مُشوّش جدًا، وفقدتُ الشعور بأطرافي بغتةً، كما لو أنها بُترت! هرع الناس يلتمّون حولي، لا لخوفهم عليّ بل لتوثيق الحادثة، كأنما ثمّة مركبةٌ فضائية سقطت من المريخ، لا حادث سير فحسب! كانت أنوار سيارة الإسعاف هي آخر ما أبصرته عيناي، قبل أن تغشاها مسحة ضبابية، ويُغمى عليّ بعد ذلك.

- 2 -

فتحتُ عينيَّ وجسدي يئنُّ وجعًا، وصُداعٌ فظٌّ يتجول في جمجمتي، في يده مطرقة ويدقُّ مسامير فولاذية في زوايا الدماغ. حاولتُ دون جدوى أن أنهض أو أُحرّك جسدي. ثم جلتُ ببصري أتفقدُ المكان حولي، كانت الإضاءة خافتة جدًا، فأضحت الرؤية صعبة، ازدردتُ ريقي بمشقة، وازداد جسدي أنينًا، وواصل الصداع الفظ دقّ المسامير، ثمّ طرق سمعي فجأة صوتٌ هامسًا:

- كيف حالك الآن؟

ارتعش جسدي للوهلةِ الأولى، بيد أنّ أذنيّ ألفتا الصوت بعد لحظةٍ وجيزة، أدرتُ بصري نحو الجهة التي انطلق منها الصوت، كان ياسين قد استلقى على مقعدٍ قربي، مرتديًا ثوبه الفضفاض ذاته، مشرّعًا أزراره، وعِقاله كان وحيدًا فوق طاقيته المائلة، بينما استقرّت غترته على كتفه، بدا مظهره كمن قضى ليلةً بطولها على المقعد أو ربما أكثر! رنا إليّ وتنحنح كما لو كان يستعيد صوته، ثم كرر سؤاله بنبرةٍ أعلى، بعد أن تجلّت ابتسامةٌ طفيفة على محياه:

- كيف حالك الآن؟

تسرّبت آهةٌ مُقتضبة من حنجرتي، كانت بمثابةِ إجابةٍ وافية على سؤاله، فاعتدل بجلسته، أزاح العِقال والطاقية بحركةٍ واحدة، سريعة، وأضاف بعدما فغر فاهه متثائبًا:

- لقد قلقنا عليك كثيرًا.

استجمعتُ ما استطعت من قواي المنهكة، ثم سألته بنبرةٍ بدت كأنما الصدأ قد نال منها:

- ماذا حدث؟

أسكتني الألم إذ شرع ينتشر في جسدي كله على حينِ غرّة، والصُداع اللعين تضاعف، قطّبتُ حاجبيّ، وتأوّهتُ، ثمّ واصلتُ:

- لا أتذكرُ شيئًا.

- لقد تعرّضتَ لحادثِ سير.

أطبقتُ جفنيَّ وراح ذهني يستعيدُ ذاكرته في لحظةٍ وجيزة، بدأت من رسائل فاطمة واتصالاتها، ثم التفكير بالهجرة، وفرامل السيارات،

وأخيرًا الحافلة، وبينما كان ذهني يستعيدُ صورًا مما جرى، أومأتُ له برأسي، وواصل كلامه:

- ولولا لُطف الله ثم دعوات أمّك لكان حالك أسوأ بكثير.

وتوقّف عن الكلامِ برهةً، ازدرد ريقه، ثم تابع:

- لقد كسروا باب سيارتك المحشورة تحت الحافلة؛ كي يُخرجوك منها.

وبينما كان يروي ما حدث، ازداد الألمُ فظاعةً، فأغمضتُ عينيَّ بشدّة، وقاطعته بعدما أفلتت مني آهةً:

- آه، لا أعرفُ موضع الألم تحديدًا، بيد أنّ جسدي كله يؤلمني في الوقتِ ذاته.

- لقد ارتطم رأسك بمقودِ السيارة وانكسر أنفك، كذلك يدك اليسرى، لقد انكسرت كسرًا مُضاعفًا، كما أنّ هنالك كدمات في عنقك وظهرك، لكن حمدًا لله أنّ عمودك الفقري لم يتضرر.

وأطلق زفرةً طويلة وهو يشيرُ نحوي بيمينه:

- وها أنت الآن تجاوزت مرحلة الخطر.

- منذُ متى وأنا في المستشفى؟

أحاد بصره عني ورنا إلى الفراغ شاردًا لبضعِ ثوانٍ، ثمّ أجاب:

- منذُ البارحة.

أحاد بصره مرّةً أُخرى، "ثمّة ما يُقلقه، حتمًا". قلتُ في نفسي، وواصل كلامه وعيناهُ تجولان بكُلِّ أنحاءِ الغرفة وتتجنّبانني، كما لو أنهما يهربانِ من عينيَّ:

- بالمناسبة، لقد غادرت فاطمة قبل خمسٍ دقائق.

حملقتُ إليه وقد استبدت الدهشة بملامحي، ازدحم عقلي بالفضولِ الذي اختزلته بسؤالٍ واحدٍ فقط، نطقتُ به والقلق تبدّد بنبراتِ صوتي المرهق:

- أرآها أحد؟
- لحُسنِ الحظ لم يرها سواي.

لذتُ بالسكوتِ بعد أن أفلتت من جوفِ القلق تنهيدة عميقة، وغرقنا في صمتٍ دام دقيقة أو نصف الدقيقة، حتى ألحَّ عليَّ الفضول بسؤالٍ آخر:

- وكيف عرفت أنني هُنا؟
- لقد أخبرتها بنفسي.

حدّقتُ إليه مشدوهًا، "وكيف عرفت أنت بوجودها في حياتي؟" سألتُ نفسي مرتابًا، بيد أنّ السؤال بطريقةٍ ما قد تشكّل بتعابيرِ وجهي، وكما لو أنه قرأ ذلك، وأجاب بعد ابتسامةٍ عابرة مرّت بشفتيه:

- هاتفك هو الشيء الوحيد الذي سَلِم من أيةِ أضرار، وواصل الرنين ساعات بعد الحادثة، وما إن يتوقف عن الرنين كانت تصلك رسائل نصيّة، استمرّ على هذا النحو ساعات وساعات، أجبت عليها في إحدى المرّات، كان القلق قد تجلّى بصوتها عندما أدركتْ أنّ شخصًا آخر أجاب. أخبرتها مَن أكون في الحال، وأخبرتني مَن تكون بعد ذلك، ثم رويتُ لها ما جرى فأبت إلا أن تراك بنفسها كي تطمئنّ عليك. بالمناسبة، هي عنيدة جدًّا.

طأطأ رأسه ومسحة من الأسى طافت بملامحهِ فجأة، ازدرد ريقه، وأضاف:

- مسكينة؛ يبدو أنها تُحبّك كثيرًا.

وأمسك عن الكلامِ ثانيةً، ثم تابع:

- خسارة أن ينتهي هذا الحب بالفراق.
- ولماذا حكمت عليه بالفراق؟

رنا إليّ والشفقة تنضحُ من عينيه، بدت نظرته شاحبة. ثم أجاب:

- ناصر، أنت تتشبث بوهم، وكأنك لا تعرفُ أباك.

أشحتُ وجهي مستاءً، أو ربما هربًا! انتصب ومضى يقول:

- بعد أن اطمأنّ قلبي عليك، لا بدّ أن أعود إلى البيت؛ فأنا على هذا المقعد منذ البارحة، وهذا النوع من المقاعد لا يصلح للنوم البتة.

وأطلق قهقهةً قصيرة، مُتقطّعة، بدت حزينة، وودّعني بقبلةٍ طبعها على جبيني ثم خرج. كان الصمت قد أحاق بالغرفة بعد خروجه وأضاف مسحة من الرعب. التفّت حول ذهني مخاوفي كلها، وارتاب عقلي من المجهول. تجلّى على حينِ غرّة وجهُ فاطمة بين الريبةِ ومخاوفي، سمراء مثل لونِ الغسق، ترنو إليَّ بعينيها المليئتين بالعشق، وتطوفُ بشفتيها المكتنزتين ابتسامة تبعثُ الأمل في قلبي المتشائم. "ما أقسى الحياة لولا هذه الابتسامة". فكرتُ في نفسي، ثم تساءلتُ متوجّسًا: "أتحدثُ معجزةٌ أم يكون الفراق قدرًا لا مناص منه؟".

ياسين

"في ذروةِ الشك يولدُ اليقين"

- 1 -

"تزدادُ الظُلمةُ حلكةً، في طريقٍ طويلٍ لا نهاية له، تخورُ قواي فجأةً، وتخذلني قدماي، فأرتطمُ بالأرضِ مثل شهابٍ سقط من الفضاء، حاولتُ بلا طائلٍ النهوض، تفصّد جبيني عرقًا، نال التعب من جسدي، فيما كان الشبح المخيف قد انقضَّ عليَّ بوحشيةٍ، لفَّ يديه حول عنقي، شدّهما بعنفٍ، وشرع يخنقني، رفَّت عيناي بنورٍ كان قد بدأ يخبو شيئًا فشيئًا".

أفقتُ مُبللًا بالعرقِ، كما لو أنّي خرجتُ توًّا من بركة ماء، حملقتُ إلى السقفِ وقلبي ينبضُ بشدّة مثل طبلٍ أفريقيٍّ في احتفالٍ شعبيٍّ صاخب، ألهثُ شهيقًا، زفيرًا، على نحوٍ مُتقطّع، وأزدردُ ريقي لكن حلقي كان ناشفًا.

اعتدلتُ بجلستي، وتناولتُ قنينةَ ماءٍ كانت بالقرب مني فوق المنضدة، شربتُ نصفها، ثم أعدتها إلى مكانها، وتناولتُ علبة السجائر التي كانت بالقربِ منها، كنتُ قد اشتريتها البارحة، أثناء عودتي من

المستشفى. ثبّتُّ السيجارة بين شفتينِ ترتعشانِ، ثم أشعلتها. كانت أصابعي ترتجفُ كما لو أنني لا زلتُ عالقًا بين يدي الشبح الذي يُطاردني في منامي، عبر كابوسٍ هو الأفظع على الإطلاق. سحبتُ نفسًا عميقًا من سيجارتي وحبستُ الدخان في رئتيّ بضع ثوانٍ، قبل أن أطلق سراحه في الهواء، ثم أطبقتُ جفنيَّ خائر القوى. أخذتُ نفسًا ثانيًا، وثالثًا، ورابعًا، حتى امتلأت الغرفة بالدخان.

"ما أصعب أن تعيشَ في مجتمعٍ يرفضُ الاختلاف". همهمتُ في خلدي مُتذمّرًا، ثم اعترضت تذمّري مشكلة ناصر، وغيبوبة العشق التي يغيبُ بها عن الواقع، "تُرى متى سيفيق؟" فكّرتُ في نفسي، آمل ألا تكون إفاقته على صدمةٍ تُفقده إيمانه بالعائلة، مثلما فقدته من قبل.

وبينما كان عقلي يهيمُ بمشكلته لاح وجهُ حصّة العابس على حينِ غرّة في ذهني، وجفناي ما زالا مطبقين بوهن، فتوارى ناصر وعشقه خلف تساؤلي عن سلوكِ حصّة العدائي معي، ولم أجد مسوّغًا واحدًا لهذا السلوك. "ترى ماذا تُضمرُ هذه المشاكسة؟" سألتُ نفسي حائرًا.

حاصرَتْني أشدُّ الوساوس ضراوةً، أثقلت عقلي بأفكارٍ سوداوية، وأضنت ذهني بظنونٍ خبيثة. لا مناص من هذا البؤس الذي يُسافر في عقلي إلا عبر زيارةٍ من عزرائيل، بيد أنه يرفضُ على الدوام زيارتي. "ماله يُعاقبني بالحياة!"، تساءلتُ في نفسي مُضطربًا.

وكُلّما شرد ذهني قليلًا اصطادته ذكرى مُعتّقة بعبقِ الماضي، وجرّتني نحو هاويةِ الذكريات، ومرّغت ذاكرتي بالماضي. كانت بلقيس الوحيدة التي لم تتخلَّ عني آنذاك، لطالما حرّرتني من قبضةِ اليأس،

وأطلقت سراحي نحو الأمل. وكُلّما انحرف بصري نحو النافذة في لحظةِ يأسٍ، عدلتُ حين حطّت بيدها مثل حمامةِ سلامٍ فوق كتفي، وهمست بأُذني:

- أرجوك، لا تفعلها، عشْ من أجلي.

"كيف للموتِ أن يقبض روحها ويتركني على قيدِ الحياة؟!". راودني هذا السؤال مرارًا، ثم مضى ذهني بشروده نحو الأعمق. كان حجرها وسادتي المفضّلة مثلما كانت ذراعي لها، وعندما تشتدُّ أوجاعي كنتُ أتجرّدُ من نضجي في الحال، وأعودُ طفلًا ببساطة، أملأ صدري بشذاها عبر شهيقٍ عميق، تُطوقني بين ذراعيها بإحكامٍ؛ كي لا يجرفني تيار الهذيانِ نحو مُنحدرِ الحماقاتِ. ثمّ تمضي بصوتٍ خافتٍ:

- لا تيأس؛ فما زال في الأملِ مُتّسع.

يهدأُ قلبي بخفقانه المضطرب، وينتظم تنفّسي لحظة ما تلمسُ جبيني أصابعها، ويرخي وجهي عضلاته المتقلّصة مُطمئنًّا. بغتةً يخترقُ ذاكرتي صوتُ قرعِ الباب، ويشدُّني إلى الواقع، أفتح عينيَّ مُتجهّم الوجه، متعكّر المزاج. كان رأسي على الوسادة لا حجرها، لكن عطرها ما زال يجولُ حول أنفي كما لو أنّ ما جال في ذهني كان هو الحقيقة، وما أعيشه هو الوهم. ازدردتُ ريقي، وزاد عقلي تشوّشًا، ثم سألت بنبرةٍ بدت مُنهكة ومسحة من الضجر تضمّنتها:

- مَن؟

أجابني صوتٌ غليظ من وراءِ الباب:

- أبوك، افتح الباب حالًا.

رنوتُ إلى النافذة بالنظرةِ القانطةِ ذاتها، "ما الجدوى من الحياة والموتُ قدرٌ لا مناص منه!" تساءلتُ في خلدي، فيما عيناي تستمرّان في التحديق إلى النافذة، لا شيء أكثر فظاعة من فقدان الأمل، واغتيال اللون الأسود لكل الألوان الأُخرى في عالمك. لقد أجهضت الحياة كل معانيها التي خدعونا بها طوال هذه السنوات، "يا للسخرية!" فكّرتُ، ومن بين سوداويةِ الأفكار ثمة لونٌ زهريٌّ جريء، شقَّ طريقه المظلم إلى أُذني، وهمس: "أرجوك، لا تفعلها، عِشْ من أجلي". وتسرّبت آهةٌ قصيرةٌ من صدري، قرع أبي الباب في هذه اللحظة هاتفًا:

- هيا، افتح الباب.

أحدتُ بصري عن النافذة، ونهضتُ إلى الباب أفتحه، وصلتُ وبدا الإرهاق بملامحي كأنما المسافة بين سريري والباب كانت ألف ميل لا بضع خطوات. رمقني مُتهكّمًا فور ما فتحتُ الباب، وسخر بنبرةٍ فيها مسحة من الحنق:

- أأطرشٌ أنت؟ ساعة وأنا أطرقُ الباب.

وأضاف بعد لحظةِ صمتٍ وجيزة، بصيغةِ الأمر:

- هيا اغسل وجهك، وهذّب ذقنك.

وحدجني من رأسي حتى أخمص قدمي، مُتفحّصًا مظهري بنظرةِ ازدراء، ثم مضى يقول:

- وارتد ثيابًا ملائمة هذه المرّة.

- لماذا؟

سألته بعد أن فغرتُ فمي متثائبًا، بيد أنني رفعتُ كفّي على الفور، وحجبتُ فمي المشرّع على وسعه. أجابني بصوتٍ هادئ، ثخين، تسودُ الثقة نبراته:

- كي ترافقني إلى المستشفى؛ لزيارةِ أخيك.
- لكنني استيقظتُ للتو، وأشعرُ بتعبٍ قليلًا.

ردّ غير مبالٍ بما قلته، أو ربما لم يسمعني أساسًا:

- اجهز بسرعة ريثما أصلي العصر.

ثم ولّى ظهره وصاح بينما يمضي مُبتعدًا:

- لا تتأخر.

كالعادة، لقد أصدر أوامره ومضى في سبيله، كما لو أنني خُلقتُ من أجلِ تنفيذها. "أوَلهذا خُلقت؟!" تساءلتُ في نفسي، مشوّش الذهنِ، ثم أغلقتُ الباب، وتابعتُ: "وكأنني دُميةٌ خشبية رديئة الصُنع، يُحرّكها بيده كيفما يشأ، وإن تعارضت رغباتنا يومًا، غدوتُ الابن العاق".

- 2 -

مضت دقائق على انطلاقنا إلى المستشفى بسيارته العتيقة ذاتها، ومن صندوقها الخلفي تنبعثُ رائحةُ سمكٍ لا تُطاق، لازمتنا طوال الطريق. والصمتُ كان يتسيد الموقف، وفي حين كان أبي مُتشبثًا بالمقود بكلتا يديه، كأنما يخشى أن يفرَّ من قبضتيه، وهو يصبُّ كامل تركيزه على الطريق بجدية بدت بغيرِ محلّها، أدرتُ بصري نحو النافذة، ورنوتُ عبرها إلى السماء، شرع ذهني يتأرجح بين الحاضر والماضي، ثمّة

أسئلة تدور في رأسي، أسئلةٌ ما إن تطرق عقل أحدٍ ما حتى تقلبه رأسًا على عقب. ما أشقى الإنسان عندما يتعمّق بالمعرفة، كما لو أنها لعنة، أو على نحوٍ أدق، هي كذلك؛ لا سيما في مُجتمعٍ يعتنقُ الجهل دينًا، ما أتعسنا عندما يطرقُ الوعي أبوابنا، ونجد أنفسنا قد تجاوزنا كل الخطوط الحمراء، مُتمرّدين، ووحيدين في نهاية المطاف، ومُحاربين، ومنبوذين من المجتمع.

تنحنح أبي، فاهتزّ ستار الصمت، ثم قال وعيناه ما زالتا تُحدّقان إلى الطريق بالتركيز ذاته:

- لقد تحدثتُ مع عمك بشأنك.
- بشأني! وعن أيِّ موضوعٍ كان حديثكما؟

ألقى بصره إليّ بنظرةٍ خاطفة، وأجاب بعد أن عادت عيناه إلى الطريق في الحال:

- لا بدّ أن ترجع إلى ممارسةِ العمل.
- أيُّ عملٍ وقد فصلوني منذ العام المنصرم.

أطلق ضحكة مُدوّية، اهتزّت كتفاه، وسعل بعد ذلك من شدّتها، ثم ردّ بنبرةٍ فيها مسحة من الفخر:

- وما الغاية من وجود عمك في البرلمان نائبًا.

شزرته مُتغضِّن الجبين، "كأنما الوطن في خدمة العائلة، لا العائلة في خدمةِ الوطن". فكرتُ في نفسي، ثم أجبته مُتلعثمًا، مُترددًا، مُنعدم الثقة:

- لـ.. لكنني.. مـ.. ما زلتُ...

صاح حنقًا:

- كفى جدلًا؛ وقد حسمتُ أمرك مع أخي وانتهت المسألة.

وأضاف بعد أن استعاد هدوءه في لحظةٍ:

- جهّز نفسك؛ فالأحد المقبل سوف تُباشر العمل في الوزارة ذاتها.

عادَ الصمتُ مُتسيّدًا، وتقلّصت عضلاتُ وجهي استياءً، ما زالت رائحةُ السمك تضوعُ من صندوق السيارة. ازدردتُ ريقي، وملتُ برأسي إلى النافذة، رنوتُ ببصري إلى السَّماء، كانت ثمّة حمامة بيضاء قد شدّت انتباهي، تُحلّقُ بالقرب منّا، فاردةً جناحيها غير مبالية، كأنما تدعو إلى فلسفة جديدة للإيمانِ بها.

تأمّلتها برهةً وجيزة، ثم أفلتت مني آهةٌ قصيرة، وجالت بنفسي أمنيةٌ بغيرِ هدى: "ما الضيرُ لو نقص البشر آدميًّا وزاد الحمامُ حمامة؟" تنحنح العجوز في تلك الأثناء، وهمهمتُ متذمّرًا بصوتٍ خافت:

- بربِّك، ما الذي تُريده هذه المرّة!

- لم أرك تتحدثُ مع ابنتك، فمنذ عودتك وأنت تتجنّبها.

وصاح فجأة، بانفعالٍ شديد:

- ما خطبك يا ولد!

- لا، لا، لا شيء البتة، لقد تحدثتُ معها مرّةً أو اثنتين...

قاطعني وقد تصاعدت حدّة انفعاله:

- صه.

ثم ضرب المقود بيمينه بقوّة في الحال، ونعتني:

- كاذب.

ومضى يقول وقد جحظت عيناه واحمرّتا، وعِرقٌ مُخيفٌ اخترق مُنتصف جبينه:

- لا تختلق أعذارًا في سبيلِ التهرّب من المسؤولية، بل واجه الحياة مثل الرجال، أنت والدها والمسؤول الوحيد عنها، شئت ذلك أم أبيت.

طأطأتُ رأسي إلى الأسفل بضع ثوانٍ، واعترفتُ في سرّي في لحظةِ صدقٍ عابرة قلّما تعتريني، أنني مُراوغٌ بائس، وكل الأعذار التي أتفوّهُ بها محضُ هُراءٍ؛ فالحقيقة أنني جبانٌ، وأرتعدُ من التقرّب إليها؛ خوفًا من فقدها مثلما فقدتُ أمّها. وأطلقتُ زُفرةً طويلة، حملت معها اعترافي البائس بعيدًا عني.

- آه، لقد نسيتُ أن أخبرك، سنعقدُ قران فهد على حصّة قريبًا.

دهمني بهذا الخبر دون مُقدّمات، فحدّقتُ إليه مشدوهًا، ثم هتفتُ بنبرةٍ فيها مسحة من الازدراء:

- فهد!

- نعم، فهد. أوَلديك أيُّ اعتراضٍ؟

- هل وافقت حصّة أولًا؟

حدجني بعينين تقدحانِ شرارًا، ثم أجاب مستهجنًا بلهجةٍ حادّة:

- ومنذ متى كان للنساء رأي في هذه الأمور!

- هي حياتها في الأخير.

- وأنا والدها، وأعلمُ منك ومنها بمصلحتها.

- لكن فهد لا يصلح للزواج أبدًا.

وتسرّبت من شفتيه العابستين قهقهة مُتقطّعة، ثم علّق بنحوٍ ساخر حدّ التهكم:

- كل الرجال لا يصلحون للزواجِ في البداية بمن فيهم أنت، بيد أنّ الزوجة الصالحة تتحمل زوجها حتى يتغيّر للأحسن، هذه سنّةُ الحياة.

ثم ألقى بصره نحوي بنظرةٍ حانقة، وحذّرني بنبرةٍ صارمة:

- احتفظ برأيك لنفسك، وحذارِ أن تُعلن عنه أمام أختك.

طأطأتُ رأسي، ثمّ لذتُ بالصمتِ مُقطّبًا حاجبيّ، بيد أنني في سرّي كنتُ عازمًا أشدَّ العزم على إقناعها بالرفض مهما كلّفني الأمر، وفجأة! من العدم، يخطرُ ببالي تساؤل مخيف: "هل قرار الرفض متاح في قائمةِ خياراتنا!" وشرع عقلي يتزاحمُ بتساؤلاتٍ عديدة، إلا أنّ القنوط أجهضها كلها، وهي ما زالت في رحمِ الاستفهام، عدا تساؤلًا وحيدًا، كان قد نجا من عملية الإجهاض بأعجوبة، وطرق عقلي بجرأة: "أنختارُ ماهيتنا أم أننا نولدُ بها!" وفي لحظةٍ وجيزة، طافت في ذهني لمحة من المستقبل، ناصر يتزوج من ابنةِ عمه، ويتخلّى عن عشقه خانعًا للتقاليد وراضخًا لرغبة أبي، وحصّة من مُعتقلٍ لآخر تُساق، عبر زفافٍ رسمي، وعقد شرعي، ينقل مُلكيتها من أبي إلى فهد، كما لو كانت جارية تُباع في سوقِ النخاسة. ثم صاح صوتٌ ما بداخلي ساخطًا: "الكُلُّ باطلٌ". وتقلّصت عضلاتُ وجهي برهةً، ثم استرخت، وعبرت شفتيَّ البائستين نصفُ ابتسامة بدت ذابلة، "لن ينتهي البؤسُ أبدًا". فكّرتُ في نفسي.

- 3 -

اقتحم أبي الغرفة - فتح بابها بفظاظة - دون أن يقرعَه، وأنا خلفه مثل ظلّه أتبعه. لم يُراعِ المرضى في الجناح أو على نحوٍ أدق، لم يُراعِ أحدًا في حياته كلها. تخشّبت ملامحهم من دخوله المفاجئ، ابتلعوا كلماتهم، وراحوا يتبادلون النظرات فيما بينهم، ومسحة من القلق طافت بوجوههم، تغيّرت ملامحهم كأنما أخفوا هوياتهم الحقيقية خلف هوياتٍ أُخرى مُزيّفة، كانت قد فُرضت عليهم. ألقى تحيَّته بصوتٍ ثخين:

- السلام عليكم.

ردّوا عليه:

- وعليكم السلام.

بينما لم يرد تحيَّتي أحد. "ربما لم يسمعوني!"، فكّرتُ في نفسي. نهضت حصّة من مقعدها بهدوء، ووجهها ما زال شاحبًا، مُصفرًّا، يغمرُ قسماته الامتعاض، أطرقت رأسها إلى الأسفل بشيء من الاحترام، لكنه بدا احترامًا مُصطنعًا، ثم حدجته بنظرةٍ خاطفة، مليئة بالسخط، بينما كانت تمشي إلى الجهةِ الأُخرى من الغرفة.

- تفضّل يا أبي.

قالت بنبرةٍ باردة. ثم أشارت بيمينها نحو مقعدها، وراحت تجلسُ على مقعدٍ آخر. اعتدل ناصر بعدما كان مضطجعًا، بينما أبي يهمُّ بالجلوس، رمق أمي ثم رنا إلى أبي، وتبسّم. لكن ابتسامته المضطربة كانت قد وشت به، "مرتبك، ومتوتر، كأنما اقترف ذنبًا عظيمًا". قلتُ لنفسي.

تناولت أمي دلّة القهوة وعيناها كانتا تفرّانِ يُمنةً ويُسرةً مثل مناضلٍ بائس، يوزّع منشوراتٍ ضد السُلطة تحت جنحِ الظلام، ثم سألتْهُ بنبرةٍ بدت مرتعشة قليلًا:

- أتريدُ فنجانًا يا أبا ياسين؟

هزَّ رأسه بإيماءةٍ مُتغطرسة، فسكبت له فنجانًا في الحال، وقدّمته دون إبطاء. كان دخوله المفاجئ أو على نحوٍ أدق، الفظ، كدَّر صفو مزاجهم، وقاطع حديثًا كان قد بدا لي أنه حديثٌ خاصٌّ، "آه، ما أصعب استيعاب تصرّفاته على عقولنا". تذمّرتُ في خُلدي، تناول الفنجان من يدِها، ورشف رشفةً، ثمّ شرع يجولُ ببصره في وجوههم، مُتغضّن الجبين، مُتجهّم الوجه، كأنما العبوس هو فطرةٌ إنسانية، ثم استقرَّ بصره على ناصر، فاغتالت أوصاله رعشةٌ خفيفةٌ، قهقه أبي قهقهة مقتضبة بعد أن رشف رشفةً ثانية، بيد أنّ قهقهته أثارت القلق في نفوسهم. علّق مُتهكمًا:

- كفَّ عن هذا الدلع، واسترجل.

وألقى بصره إلينا بنظرةٍ غامضة، ثم واصل بعد أن افترّ ثغره عن نصفِ ابتسامةٍ بدت مُخيفة على محيّاه:

- استعد عافيتك؛ فقد حان الوقت لأراك عريسًا.

وأطلق ضحكة صاخبة، متقطّعة، رصينة، ثم تابع كلامه:

- والعروس بانتظارك، ابنةُ العم لابنِ عمّها هذا هو العُرف في العائلة.

رنا ناصر إلى أمي تارة، وتارة أُخرى إلى حصّة، وعيناه تصرخان: النجدة. بيد أنهما أطرقتا رأسيهما عاجزتين عن نجدته. ازدرد ريقه

بمشقّة، وظلّت عيناه تحومان بين أمي وحصّة وتتجنّبان النظر إلى عيني أبي، ثم أجابه بصوتٍ تفتقرُ نبراته إلى الثقة:

- ألا ترى بأنني ما زلتُ صغيرًا على...

صاح أبي على الفور مشدوهًا:

- صغير!

وغرق في الضحك كما لم يضحك من قبل، واستطرد ساخرًا:

- عندما كنتُ في سنّك كانت أمّك حبلى بك.

"كاذب". قلتُ في خُلدي، وأشار بعينهِ اليُسرى نحو أمي بغمزةٍ حاذقة، وأضاف قبل رشفته الأخيرة من الفنجان:

- اتصلي على أم فهد وحددا موعدًا للزفاف، واحرصي أن يكون زفافه هو وحصّة في ليلةٍ واحدة.

وكشّر عن ابتسامةٍ عريضة في الحال، أسفرت عن صُفرةِ أسنانه التي عاث بها السوس حدَّ الاشمئزاز، وأضافت إلى قسماته سِماتٍ شريرة. إلا أنّ ناصر كان قد فغر فاهه مشدوهًا، وحصّة قطّبت حاجبيها استياءً، وبعد لحظةٍ وجيزة تأتآ كلاهما باحتجاجٍ بائس:

- لـ.. لكن.. يااا..

وعلى حينِ غرّة خرسا وابتلعا احتجاجهما البائس وبدا أنهما غصَّا به. أدرتُ بصري نحو أبي، وإذ به كان قد حملق إليهما بعينين تقدحانِ شرارًا، وكان ذلك كافيًا لبترِ لسانيهما والقضاء على محاولةِ الاعتراض الخجولة. التقطا نفسيهما هُنيهةً، واكتفيا بتبادلِ نظراتٍ - مثيرة للشفقة -

فيما بينهما تارة، وتارة أُخرى نحو أمي التي أطرقت رأسها إلى الأسفل هربًا من نظراتهما.

أمّا أنا، فكنتُ في زاويةِ الغرفة، أقفُ طوال الوقت، أتفرّجُ عليهما مكتوف اليدين، كما لو أنّ الأمر لا يعنيني. "أو ربما!" فكّرتُ في نفسي مرتابًا. كان وجه ناصر في هذه اللحظة يصفرُّ قلقًا تارة، وأُخرى يحمرُّ غيظًا، لكن في نهايةِ الأمر كان قد شحُبَ يأسًا. بينما حصّة بقي وجهها مُحمرًّا، وساخطةً أقصى حدود السخط.

في غضونِ ذلك، دخل حمد. ألقى تحيّة سريعة، وطبع قبلتين، واحدة كانت على جبينِ أمي، والثانية استقرّت على رأسِ أبي، ثم لوّح للبقية عداي. "أتراهُ انتبه لوجودي؟"، تساءلتُ في خلدي.

جال ببصره في الغرفةِ وتفحّص وجوههم وجهًا وجهًا، وبفراسةٍ لم أعهدها به من قبل، كان قد قرأ ما جرى قبل دخوله عبر ملامحهم المضطربة، تناول مقعدًا ودنا من أبي قائلًا:

- دع عنك هذين الأحمقين وأمطرني بحكمتك التي لا تنضب أبدًا، أُريدُ مشورتك في أمرٍ في غاية الأهمية.

رنا إليه وعيناهُ يأكلهما الفضول، بيد أنه تظاهر باللامبالاة، فاستطرد حمد على الفور وقد لمعت عيناهُ مكرًا:

- أهُناك أهم من تجارتنا؟

قهقه أبي قهقهة مُتقطّعة، رصينة، بدت مُتغطرسة حدَّ التصنّع، وردّ بينما يُداعب شاربه بإصبعيه:

- ابنُ أبيك.

وواصل حمد بعد قبلةٍ تملّقٍ واضحة، طبعها على ظهرِ كفّه:

- أقترحُ التوسّع في تجارتنا، ما رأيك أن نفتح فرعًا في قطر؟

واصل أبي مداعبة شاربه، "أنجح حقًّا في خطفِ انتباهه عنهما؟"، سألتُ نفسي.

- فكرة رائعة، والحق أنها راودتني منذُ فترة وجيزة.

قال أبي، وأطلق ناصر زفرة قصيرة لحظة ما أطبق جفنيه بسلام، في حين أفلتت حصّة تنهيدة واهنة من حنجرتها، واستراحت في الحال عضلاتُ وجهها من تقلّصها. ردّ حمد:

- أعرفُ أحدًا هناك، سوف يخدمنا في هذا.

أمسك أبي عن الكلام بغتةً، وشرد ذهنه نحو الفراغ برهةً، وبعد لحظةٍ وجيزة افترّ ثغره عن ابتسامةٍ خفيفة، عابرة، كما لو أنّ ذاكرته استعادت شيئًا ما من الماضي، وهتف بصوتٍ دافئ، يشوبُ نبراته الحنين:

- أنت تُذكّرني بنفسي في زمنٍ مضى.

وفي غضونِ ذلك، أشاحت حصّة وجهها بضجرٍ إلى الجهة الأُخرى، وأطرق ناصر بصره نحو هاتفه بعد أن ومضت شاشته، وواصلت أمي صبَّ القهوة وتقديمها إلى أبي، وعاد كُلُّ شيءٍ إلى طبيعته كما لو أنّ شيئًا لم يحدث.

بينما أنا في مكاني، مثل منفضةِ سجائر في ركنِ غرفةٍ أقلع صاحبها عن التدخين، فغزا زواياها الغبار وترسَّب في قعرها، فجرّدها من قيمتها كما لو كانت عدمًا. رحتُ أجولُ ببصري في تلك الأثناء مُتفحّصًا

وجوههم، محملقًا إلى أدقِّ خطوطِ ملامحهم، وبدا أنهم اعتادوا غيابي. وتساءلتُ: "أبات حضوري لا يُشكّلُ فارقًا في العائلة، إلى حدٍّ ألّا أحد شعر بوجودي!".

فُتح الباب في هذه اللحظة بفظاظة، وطرد الصخبُ الهدوءَ الذي لم يمكث طويلًا، أدرنا وجوهنا بحركةٍ سريعة إلى الباب، وتشاركنا التعابير ذاتها، الامتعاض. دلفت عمتي نورية قائلة بصوتٍ أخن، مُتّكئةً على السين:

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.

أجابها الجميع، بيد أنّ صوت أبي كان الأعلى، وانفرجت شفتاه عن ابتسامةٍ باهتة، وقفت عمتي عند الباب لثوانٍ، أدارت وجهها للخلف، وراحت تُزمجر:

- هيه! إلى أين؟ قفي هُنا، عند الباب.

وإذ بخادمتها خلفها، تتلقى الإهانة عبر هزّةٍ خفيفة من رأسها، ومسحة من الهوان عبرت قسماتِ وجهها، بيد أنّ عينيها لمعتا لحظةً وجيزة بتساؤلٍ سُرعان ما أطفأه الخوف، ومضت عمتي مُزمجرة:

- تهزين رأسكِ دومًا، سواءً فهمتِ كلامي أم لم تفهميه.

ثم استعانت بكلتا يديها، وكررت كلامها نفسه، لكن بصوتٍ كانت نبرته في أوجِ ازدرائها:

- هنا. قفي. ولا تتحركي.

وأغلقت الباب بوجهها على الفور، ثم دلفت تتذمر بغطرسةِ الأصلِ الرفيع:

- لو لم تكنْ غبيّة إلى هذا الحد ما كانت خادمة من الأساس.

شزرتها حصّة مُقطّبةً حاجبيها، وكانت هي الوحيدة التي تجاهلت تحيّتها متعمِّدةً، "أو ربما هذا ما بدا لي!"، تساءلتُ في خلدي. نهض حمد في الحال قائلًا وهو يُشير بيمينه إلى مقعدهِ:

- تفضلي يا عمتي.

ثم راح يُقبّلُ جبينها تكلّفًا. جلست آنفةً واضعةً قدمًا فوق الأُخرى، بعدما طبعت قبلة احترام على جبينِ أبي، بيد أنها اكتفت بمصافحةِ أمي مصافحة باردة، وتجاهلت هي الأُخرى حصّة، وكأنها لم تكن في الغرفة من الأساس. "مثلي". فكّرتُ في نفسي، أدارت وجهها نحو ناصر وبصوتها الأخن، المزعج، قالت:

- سلامتك يا ابن أخي.

وتابعت بعد أن تفحّصته بفضولٍ نسائي محض:

- هذه عاقبةُ مَن يقود السيارة وعينه على الهاتف لا على الطريق.

وأطلقت ضحكة صاخبة، مُتقطّعة، تصمُّ الآذان، تكلّف ناصر جاهدًا بابتسامةٍ خفيفة، أضفت على ملامحه مسحة من البلاهة. بينما رمقتها أمي مُتغضّنة الجبين، ووحده أبي الذي تبسّم أو تظاهر بذلك، وواصلت حصّة نظراتها الحادّة مقطّبةً حاجبيها، أمّا حمد فقد التزم الصمت هذه المرّة على غير العادة. ومضت عمتي بمزاحها:

- اعترف، اعترف.

- أبدًا يا عمتي، لقد فرملت السيارات بغتة ولم تسعفني الفرامل.

- بغتة!

وألقت بصرها إلى أبي في الحال، ثم استطردت ساخرةً حدَّ التهكم:

- مسكين، لقد ظلمناه.

وأطلقت ضحكتها الصاخبة، المزعجة مجددًا. ثمّ وقع بصرها صُدفةً عليَّ، "لقد انتبه أحد إليَّ". هتفت، وحملقت إليّ بتمعن فاغرةً فمها، وبعد لحظةٍ ابتلع الصمت خلالها كُلَّ الصخب الذي جلبته معها، سألت أبي بهدوء:

- أهذا ياسين؟

- نعم، هو ياسين، بشحمهِ ولحمه.

- خلته السائق!

ضحك أبي بينما كان يُشير إليّ بيمينه:

- تعالَ أيها السائق، تعالَ وسلّمْ على ماما نورية.

لم تتمالك العمّة نفسها وغرقت في الضحك هي الأُخرى. "يا لها من ضحكةٍ مُستفزّة". فكّرتُ في نفسي بينما كنتُ أمشي نحوها، وخالجني في هذه اللحظة نفورٌ غريبٌ تجاهها، طبعتُ قُبلةً جافّة على جبينها المتمرّغ بمساحيقِ التجميل، وسألتني بصوتٍ يسودهُ الاستفهام:

- ما الذي جرى لك؟

وشرعت تتفحّصني من رأسي حتى أخمص قدمي، ثم أضافت:

- خلتك للوهلةِ الأولى هنديًّا.

حجبت فمها بكفّها عبر إيماءةٍ كأنما تمنع قهقهتها من العبور بيد أنها لم تفلح، وواصلت بعد أن أرخت كفّها وأطلقت قهقهتها المستفزّة، تصمُّ آذاننا:

- ما هذه الملابس الرثّة!

ضحك أبي دون إبطاء، ضحكة قصيرة، مُتقطّعة، بدت مُصطنعة، بيد أنّ البقية اكتفوا بثني شفاهم بنصفِ ابتسامةٍ لم تتجاوز حدود المجاملة، عدا حصّة المتمرّدة على المجاملات الاجتماعية، فقد بقيت مُتجهّمة الوجه، وفي نظراتها الحادّة لمعت ضغينةٌ ما طوال الوقت، "ثمّة خلاف قد نشب بينهما، بلا شك". قلتُ في نفسي. وانتصبت حصّة بغتةً، مُتغضّنة الجبين، وقاطعت الضحك بنبرة فيها مسحة من الامتعاض:

- أتأمرُ بشيء يا أبي؟

- إلى أين؟

- إلى البيت.

شزرتها عمتي، مُقطّبةً حاجبيها هي الأُخرى، أومأ لها أبي برأسه بالانصراف، فدنت نحوه وطبعت قُبلة باردة على جبينه. إلا أنني بصوتٍ يتشبّثُ التردد بنبراته، باغتُّ الجميع:

- سأعود معكِ.

اتّسعت عينا حصّة بدهشة، وتجّمدت في مكانها، رنا إليَّ أبي بتعجب ثم سألني:

- ألا تنتظر نصف ساعة من الزمن، ونعودُ معًا؟

- أشعرُ بإرهاقٍ شديد.

وسعلتُ بشدّة مُتظاهرًا بالتعب، "يا لي من ممثلٍ فاشل". فكّرتُ في نفسي. داعب أبي شاربه بإصبعيه وهو يتفحّصني بحذق، تساءلت أمي في غضونِ ذلك، بصوتٍ يرتعشُ خوفًا:

- أنستدعي الطبيب!

- لا، لا، لا داعي إلى طبيب.

وسعلتُ مرّةً أُخرى بينما كان ذهني يبحثُ عن حجّةٍ أُخرى، بيد أنني لم أعثر على أيّةِ حجّة وبقيتُ صامتًا أُحملقُ في وجوههم، تغضّن جبينُ العمّة بينما كانت ترنو بعينيها اللتين نهشهما الفضول، في حين شرع أبي يتنحنح برهةَ وجيزة، ثم قال بهدوء:

- حسنًا، خُذا سيارتي. قُد أنت، وعودا معًا، واتركا السائق تحت إمرةِ أُمكما، أمّا أنا فسأعود برفقة حمد.

وألقى بصره نحوه بنظرةٍ خاطفة، فانتصب حمد على حينِ غرّة، ودنا قربه بتزلّفٍ مقرفٍ، ثم هتف:

- يا لحظي السعيد.

زفرت حصّة في الحال، زفرةَ ضجرٍ طويلة، وحدجتني بالنظرة ذاتها التي حدجت بها عمتي، ثمّ ارتدت حجابها والعباءة، وبدا عراكًا لا فتاة ترتدي ملابسها وحسب، ومشت تضرب بقدميها الأرض بقوّة.

- 4 -

أدرتُ مُحرك السيارة بعد أن استولى الصمت على أرواحنا طوال الدقائق الثلاث التي قضيناها من باب الغرفة في المستشفى إلى بابِ السيارة في المواقف الترابية في الجهةِ المقابلة، ثم رنوتُ إليها، "هذه هي الفرصة التي أنتظرها؛ كي تعود المياه إلى مجاريها". فكّرتُ في نفسي، ثم بدأتُ بمزحةٍ:

- يبدو أنّ صوتُ مُحركِ السيارة أرق من ضحكةِ عمّتكِ، أليس كذلك؟

بدا أنها تبسّمت للوهلةِ الأولى، بيد أنّ حاجبيها المنعقدين زرعا الشك في قلبي، ازدردتُ ريقي لحظةً، وعزمتُ على تكرارِ المحاولة لكن قبلَ أن أنبس بكلمةٍ كانت قد أخرستني:

- لستُ بمزاجٍ لأيّةِ دُعابات.

وأشاحت ببصرها نحو النافذة، وأضافت بصوتٍ مُتهدج:

- أرجوك ياسين.

تخشّبت ملامحي مشدوهةً في الحال، وانعقد لساني عن الكلام كما لو أنني فقدتُ النطق، وشرع القلق يغرسُ مخالبه في قلبي، "آه، ما أغباني". قلتُ في خلدي، وتابعتُ: "لقد ضلّت مياهنا الدرب إلى مجاريها للأبد". وصوّبتُ بصري - مُقطّبًا حاجبيّ - إلى الشارع، وكان الإحباط قد أحكم قبضته على روحي.

ضغطتُ على دوّاسةِ البنزين وانطلقتُ إلى البيت، كانت الخيبة تطلُّ من مُقلتي، عبر دمعةٍ توسّلتُ بها ألّا تسقط، وشرع ذهني يتيه مُشوّشًا بين الواقعِ والوهم، وعبرت بلقيس من الوهم إلى الواقع على حينِ غرّة، وألقت رأسها على كتفي برفق، مثلما اعتادت أن تفعل بعد عودتنا عَقِب كُلِّ زيارةٍ لأهلي.

ملأتُ صدري بشهيقٍ عميق، فتسرّب شذاها إلى أعماقِ الذاكرة، أشعل فتيل الحنين وأحرق فؤادي شوقًا، وبعد لحظاتٍ كان قلبي المضطرب قد هدأت نبضاته، وغمرت الطمأنينة روحي الملتهبة حنينًا،

وخيل لي بغتةً أنها تهمسُ لي بصوتٍ داعب طبلتي أُذنيّ بنبراتهِ الرقيقة: "لا تحزن، لم تصدّك حصّة عن كرهٍ إنما عن حُبٍّ، ثق بي".

وعلى نحوٍ مفاجئ كانت السيارات قد توقّفت في لحظةٍ عن الحركة، أفل طيفها من ذهني في الحال، وغادر شذاها ذاكرتي، فتحتُ عينيَّ على وسعهما محدّقًا إلى الطريق، وفرملتُ على الفور، صاحت حصّة في غضونِ ذلك، بنبرةِ ذُعر:

- انتبه ياسين!

وأفلتت منها تنهيدة مرتعشة النبرة، بعدما نجونا من حادثٍ كان وشيكًا. مضت لحظة التقطنا فيها أنفاسنا، ثم قالت بعد أن انثنت شفتيها بابتسامةٍ خفيفة:

- الحمد لله. لا أعتقدُ أنّ ثمّة غرفة شاغرة في المستشفى.

بيد أنّ شفتيها العنيدتين سُرعان ما برطمتا ثانيةً، كأنما الابتسامة ذنبٌ في شرعها، والعبوسِ استغفار.

بدا أننا علقنا وسط الزحام، رفعتُ جسدي إلى الأعلى قليلًا؛ كي أرى ما سببه. "نعم، ثمّة حادث هناك". قلتُ في خُلدي، إلا أنّ عرقلة السير كانت ناجمة عن فضولِ سائقي السيارات؛ بالتوقف والنظر إلى الحادث، يا للفضولِ الذي ينهشُ الإنسان، حتى أنّ سائقي السيارات في الشارع المقابل قد توقّفوا في سبيل إشباع فضولهم الذي بلغ حدّ المرض.

انحرفتُ يمينًا بمحاذاةِ الشارع، ولجأتُ إلى طريقٍ مختصرة. وعندما اقتربتُ من البيت، كان ثمّة شعور خانق قد جثم على صدري،

وجعل عملية التنفس التي لا نشعرُ بها عادةً، غاية في الصعوبة، وأضحى في ذروته عندما دلفنا إلى الحارة.

وفي لحظةٍ عابرة، عشتُ خلالها آلافًا من ذكرياتٍ امتصّت كُل بؤس الأرض وبصقته في وجهي، ثم دحضت بمنطقٍ مريب على نحو مُقنع، كُلَّ مُسوّغٍ، فلسفيًّا كان أم دينيًّا، للحياة في ذهني، حتى وجدتُ نفسي في نهاية الأمر، مُتمرّغًا إلى منكبيَّ بوحلٍ من القنوط، أُحاولُ بلا طائل أن أنتشل نفسي منه.

أطلقتُ زفرةً طويلة بينما كان ذهني يتوه في ظلمةِ الأفكارِ، ثمّ ركنتُ السيارة عند المدخل الرئيسي، قُرب الباب الحديدي، بادرت حصّة بفتح الباب فور ما ركنت، أو على نحوٍ أدق، قبل أن أتوقّف تمامًا. ثم أدبرتْ متأففة، وصفقت الباب خلفها بقوة كأنما في ذلك رسالة ألّا ألحق بها. حملقتُ إليها والحنق يملؤني حدّ الغرق، بيد أنني في اللحظةِ الأخيرة أفرغته عبر ضربةٍ شديدة على مقود السيارة. "ما علّتها؟!"، تساءلتُ مُغتاظًا، ثم ترجلت من السيارة وأنا ألعنُ الزمن، وأشتم الحياة، مشمئزًّا من نفسي.

- 5 -

أمسكتُ مقبض الباب وتسمرتُ أمام غرفتي مثل تمثالٍ حزينٍ على موتِ نحّاته، تخشّبت قدماي عن الحركة بضع ثوانٍ، وتعرّقت خلال هذه الثواني كلتا يديّ، ثم فتحتُ الباب ودلفتُ مرتابًا، أغلقته خلفي وأقفلته بإحكامٍ. انتصبتُ عند مدخلها أجولُ ببصري في كُلِّ أرجائها، ومسحةٌ من الكآبة اعتلت قسمات وجهي.

كادت الظلمة أن تبتلعني لولا ذلك النور الذي تسلل بتمرّدٍ عبر نافذة الغرفة، من عمودِ الإنارة مُقوّس العود المزروع في الشارع، بدا المكان أنه سقط من فيلمٍ ما، أحد أفلام الرعب الكلاسيكية، وأنّ ثمّة عفريتًا سوف يقفزُ في أيّةِ لحظةٍ أمامي، بيد أنّ العفريت في فيلمي لم يكن مخلوقًا غريبًا بملامحٍ مرعبة، بل كان كومةَ ذكرياتٍ تعسة، يختبئ بعضٌ منها خلف الستائر، وبعضٌ آخر بين الملاءات والوسائد، وثمّة ذكرياتٌ بائسةٌ أشدَّ البؤس، كانت تختبئ خلف الصور المعلَّقة على الجدران.

تركتُ العتمة تتنفّسُ في المكان قليلًا، وتقدّمتُ بضعَ خطواتٍ إلى النافذة، ثمّ اتّكأتُ على الحائط وأرخيتُ بصري عبر النافذة، أمعنتُ النظر إلى عمود الإنارة مُقوّس العود، بدا شاحبًا بإنارته الخافتة، كأنما يبكي ولا يُنير الطريق، "ثمّة تشابه مريب بيننا". فكّرتُ في نفسي، ثم أسندتُ رأسي إلى الجدار برفق، وكما لو كنتُ أحدّثه، همهمتُ: "أقسى شعور يا صديقي أن تبكي ولا تجد يدًا تمسحُ دمعك".

بغتةً، من رحمِ الصمت المتفشّي في المكان، يطرقُ مسمعي قرعُ قدمين تُهرولان في الغرفة، أدرتُ وجهي نحو قرعِ القدمين في الحال، بيد أنّ السكون كان قد ملأ أرجاء المكان، جلتُ ببصري في أنحاءِ الغرفة أتفحّصها بتمعّن، وذلك النور الذي تسلل عبر النافذة، أضفى مسحة من الرعب في الأجواء. وعلى حينِ غرّة تحرّك باب الحمام لوحده، مُصدرًا صريرًا بعث الفزع في نفسي، ازدردتُ ريقي وقد شرع ينضب، وعيناي اتّسعتا مرعوبتين، تحملقان إلى الباب، ارتبكت أنفاسي، شهيقًا، زفيرًا، على نحو مُتقطّع، وبعد لحظات من الرعب سألتُ بصوتٍ مُتهدج، يشوب نبراته الفزع:

- مَن هناك؟

لم يُجب أحد! كأنما الصمت استوطن الفراغ، ازداد قلبي خفقانًا، ونضب ريقي حتى أضحى لساني جافًا مثل خشبة. وما إن لبثتُ في مكاني ثواني حتى تقدّمتُ على مهلٍ مرتعدًا، أمشي نحو الحمام، وأضحت المسافة التي لا تتجاوز السبعَ خطوات طويلةٌ جدًّا. "لم أخشَ الجن يومًا". فكّرتُ في نفسي بذهن مُضطرب، وكان جبيني قد تفصّد عرقًا، أطبقتُ جفنيّ لحظةً، والفزع ينهشني من رأسي حتى أخمص قدميّ، ثم تمتمتُ:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

قطعتُ المسافة الطويلة، القصيرة، وانقطعت أنفاسي طوال السبع خطوات المتعبة، أضأتُ نور الحمام، لكني تسمّرتُ عند بابه برهةً، استجمعتُ قواي، ثمّ دفعتُ الباب بكلتا يديّ، ودهمتُ بحركةٍ سريعة، رحتُ أدور حول نفسي مُتفحّصًا كل الزوايا مرتاعًا، ورئتاي بالكادِ تلتقطان الهواء، حتى نال الإرهاق مني، وأرداني أرضًا في الحال.

أغمضتُ عينيَّ هربًا من الخوف، ثم ملأتُ رئتيّ بنفسٍ عميق، وشرعت نبضاتي تتباطأ حين أدركتُ ألا أحد في الغرفة سواي، "لكن كيف فُتح الباب لوحده!" فكّرتُ في نفسي.

فتحتُ عينيَّ وتعثّر بصري بحوضِ الاستحمامِ، رفعتُ حاجبيّ مشدوهًا؛ كان الحوض ممتلئًا بماءٍ بدا ساخنًا. "لم أقم أنا بملئه!" تساءلتُ في نفسي مرتابًا، ثم مضيتُ بتساؤلٍ آخر: "أتُراها رسالة من..." وتركتُ جملتي مفتوحة، مُتشبثًا بخيطٍ رفيعٍ من الأمل، ثم أشحت

وجهـــي عـــن حـــوضِ الاســـتحمامِ، والريبـــة حفـــرت ملامحهـــا في وجهي.

ضممتُ قدميَّ إلى صدري، وطوّقتهما بكلتا ذراعيّ، ورعشةٌ عنيفة اغتالت أضلعي، وعلى نحوٍ مفاجئ، تجلّت بلقيس أمامي، كما لو أنها هربت من ذاكرتي إلى الواقع، دنت مني وجلست، رنت إليّ بعينين تنضحانِ عشقًا، ثمّ مدّت يدها إليّ وافترّ ثغرها عن ابتسامةٍ أنارت العتمة في أعماقي الحالكة، ألقيتُ بصري بنظرةٍ أخيرة نحو حوضِ الاستحمام، ثم أرخيتُ نظري إليها بعينين مُنهكتين.

حصّة

"الحُرية: أن نصرخ بـ لا دون أن تغتالَ حناجرَنا رعشةُ خوفٍ"

- 1 -

فُتح الباب بغتةً على نحو فظ يخلو من الاحترام، ودلف أبي في الحال، تعلو قسمات وجهه جلافة الذكور المستفزّة، عاقدًا حاجبيه بشدّة كما لو كان ينتقمُ منهما، رنا نحونا برهةً تفحّص خلالها وجوهنا بدّقة، كأنما يبحثُ عن زلّةٍ ما يُزمجر من أجلها، ثم قال باقتضاب:

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.

أجبناه بصوتٍ واحد، يشوب نبراته القلق، وفي غضونِ ذلك كان ياسين قد دلف بعده، مطأطئًا رأسه إلى الأرض بكآبةٍ ارتسمت على ملامحه، "يا لوقاحته؛ لم يلقِ التحيّة على أحدٍ منّا حتى أمي!" فكّرتُ في نفسي ممتعضة.

تقدّم أبي ببطء، رافعًا رأسه باعتزازٍ بدا مثل قناعٍ مرهق، "أما سئمتم من أقنعتكم هذه!" تساءلتُ في سرّي، ونهضتُ فورًا حين حدجني ثم استطردتُ بنبرةٍ جافّة:

- تفضّل يا أبي.

وأشرتُ بيميني نحو مقعدي، بعدما أطرقتُ بصري هربًا من أن تُسفر عيناي عمّا أضمره في نفسي، بيد أنّ نظرة خاطفة، مليئة بالسخط، انسلّت من مقلتيّ، حملت من الوجعِ ما يُبيحُ قتله على الفور، إلا أنني استدركتُ قائلةً بهمس:

- أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم.

لكن في سرّي تهكمتُ ومسحة من التذمّر تضمّنت كلماتي: "يا لسخرية القدر؛ أبعدما كنتُ المفضلة لديه من أبنائه بات وجهه يتجهّم كُلَّما وقع بصره عليَّ!" وأدرتُ وجهي عن الجميعِ مستاءة، وحملقتُ إلى الفراغِ هُنيهةً، مُسلّمةً ذهني إلى الشرود.

إلا أنّ هذه الهنيهة تمطّت قليلًا، وشرعت تزحف خلالها إلى ذهني جميع تناقضاتي التي أعيشها يوميًّا، ما بين واقعي وما أدعو إليه عبر مواقعِ التواصل الاجتماعي، كانت تغريداتي قد بلغت أقصى حدود التمرّد، وتجاوزت كلّ عرفٍ أحمقًا في المجتمع، وشقّت طريقها نحو الحُرية لكن خلف اسمٍ مُستعارٍ لعين! "آه، ما أقسى أن تعيشَ الأنثى في مجتمعٍ يرى حُريتها انفلاتًا أخلاقيًّا، ويختزل دورها في الحياة بالزواج والإنجاب فقط، وأيُّ شيءٍ آخر يُعدُّ انحلالًا وتمرّدًا مذمومًا". فكّرتُ في نفسي.

خطرن في ذهني في هذه اللحظة، كُلَّ صديقاتي اللاتي تخلين عن أحلامهن، واستسلمن للواقع، وقبلن قانطات بتأديةِ دور المرأة النمطية التي فرضها المجتمع، ولَزمنَ بيوتهن بعد أن دفنَّ أحلامهنّ في مقبرةِ العيبِ والحرام.

أمّا اللاتي رفضنَ الخنوع فقد نبذهنّ المجتمع ونفر العرسان منهن كأنما يُعانين من مرضٍ مخزٍ، ولم تنفك أمهاتهنّ عن إلحاحهنّ البائس بالإقلاع عن أحلامهنّ كما لو كانت ذنبًا يُلحق العار بسُمعةِ العائلة. "يا لسمعةِ العائلة الهشّة التي يخدشها طموح النساء". سخرتُ في خلدي.

في هذه الأثناء طرق سمعي صوتُ أبي بثخانته وسرقني من هذياني:

- احرصي أن يكون زفافه هو وحصّة في ليلةٍ واحدة.

حملقتُ إليه وقد ضل صوتي طريقه نحو شفتيّ المزمومتين، ثم صرختُ: "لا". لكن صرختي كانت في سرّي، تغرقُ في الجبنِ، "ما أثقل هذين الحرفين على لساني". فكّرتُ في نفسي. تضيّقت حدقتا عينيَّ غيظًا، وخفق قلبي خورًا. صوّبتُ نظري إلى ناصر في الحال عسى أن أجد به عونًا، لكنه كان قد رنا إليّ بوهن، "يا للمأساة؛ كلانا كان يبحثُ عن عونٍ ينتشله من هذه الورطة". قلتُ في سرّي، وبعدما تبادلنا النظرات، تأتأنا بصوتٍ قانط، يرشحُ بؤسًا:

- لـ... لكن... يااا...

وخرسنا فور ما رمقنا أبي بعينين تقدحانِ شرارًا، كأنما قد سلبنا قدرتنا على النطق بهذه النظرة، تصاعد قلبي بإيقاعِ خفقانه، كما لو أنّ المأذون يقفُ خلف الباب، ازدرد ناصر ريقه مُصفرّ الوجه، وأطرقت أمي بصرها إلى الأرض معدومة الحيلة، وفي تلك الأثناء المشحونة بالتوتر كان حمد قد دلف للتو، وبدا أنه على علمٍ بورطتنا، "ربما كانت ملامحنا تفضحنا!" تساءلتُ في خلدي. ألقى بصره نحونا بنظرةٍ كأنما يقول من خلالها: "لا تقلقا؛ سأتكفّلُ بالأمر بنفسي". ثم طبع قبلتين،

كانت واحدة من نصيبِ أمي، والأخرى على رأس أبي، واكتفى بتحيّةٍ خاطفة لنا عبر تلويحةٍ سريعةٍ من يده، أمسك مقعدًا بيمينه ودنا من أبي قائلًا:

- دع عنك هذين الأحمقين، وأمطرني بحكمتك، أريد مشورتك في أمرٍ في غاية الأهمية.

أولاه كامل تركيزه في الحال، واعتلت قسمات وجهه مسحة من الحكمة، "أكان حكيمًا بحق، أم أنهما الشيب والتجاعيد وحسب؟" سألتُ نفسي، في حين مضى حمد في كلامه:

- أهُناك أهمُّ من تجارتنا؟

تراخت تقلّصات وجهه بعدما قهقه برصانة، قهقهةً مُتقطّعة، ثم أجاب بصوتٍ بلغت نبراته أقصى الغرور:

- ابنُ أبيك.

وكما لو أننا لم نكن في الغرفة من الأساس، "يا له من حمد!" قلتُ في سرّي مشدوهةً، وواصلتُ: "لقد نجح بلفتِ انتباهه عنّا". ثم أطلقتُ زفرةً عميقةً، كأنما ثمّة قنبلة قد أُبطلت في اللحظةِ الأخيرة، وشرع خفقان قلبي ينتظمُ في إيقاعه، في حين كان ناصر قد أطبق جفنيه كمن نجا من حادثٍ مروّع، وأطلق سراح الهواء الذي كتمه في صدره طوال اللحظات المنصرمة.

ومن جديد أشحتُ بوجهي عن الجميع؛ فلم يعد هنالك ثمّة ما أكترثُ من أجله، أرخيتُ ذهني للماضي؛ كي تبتلعه الذكريات، وأهيمُ بعيدًا من هُنا.

وشرعت الذكريات تتداعى، حتى انردم الحاضر واستولى الماضي على ذهني، وعلى حينِ غرّة تجلّت ذكرى خلتها قد لفظت أنفاسها الأخيرة، أعادتني بضع سنوات إلى الوراء، عندما بلغتُ سنّ العاشرة، حيثُ اعتدتُ آنذاك على إخفاءِ وسادتين تحت قميصي زهري اللون المطبوع عليه صورة دميتي المفضلّة باربي، مُتظاهرةً أنني حبلى، وأذكرُ ذات مرّة، سألتني عمتي نورية:

- لماذا تخفين وسادتين يا حصّة، فواحدةٌ تكفي؟

أجبتها على الفور، بنبرةٍ تشوبها الثقة، وعيناي تفيضانِ براءة:

- لأنني حبلى بتوأم يا عمتي.

كان طموحي قد اقتصر آنذاك على الزواج والإنجاب أو على نحوٍ أدق، هذا ما ظننتُ أنّ المرأة مخلوقة من أجله، "يا للجهلِ المقدّس". فكّرتُ في نفسي، بيد أنّ نقطة التحوّل كانت بعد بلوغي سنّ الرابعة عشرة، عندما قرع النضج بأصابعٍ رقيقة أبواب عقلي، ونفض الغبار عنه، وأضحت الحياة في أوجها حين أدركتُ أنّ الأنثى لم تُخلق للزواجِ والإنجاب وحسب، وأنّ ثمّة هدفًا آخر، أسمى بكثير من ذلك.

بيد أنّ الفكرة بحدِّ ذاتها مخيفة؛ أن تكتشفي أنّ ما نشأتِ عليه هو محضُ هُراء اختلقه الرجل. إلا أنّ مكتبة ياسين كانت خيرَ عونٍ لي في تجاوز الخوف، فقد استعرتُ كتابًا في بادئ الأمر، ثمّ استعرتُ كتابًا آخر، وانتهى المطاف بمكتبته أن انتقلت إلى غرفتي، وشرع هدفي والغاية من وجودي يتّضحانِ وينضجانِ بعد كُلِّ كتابٍ أفرغ من قراءته.

في إحدى المرّات التي كنتُ قد خصصتها للتأمل، تجلّى بغتةً، وبوضوحٍ تام، الهدف والغاية عبر ومضةٍ عبرت ذهني، مثل انبلاجِ الصبح في الأفق، مُنيرًا العتمة التي خلّفها الليل، وقررتُ عندئذٍ نصرة المرأة أينما كانت، ومهما كلّفني الأمر.

افترّت شفتاي المزمومتان عن ابتسامةٍ فاترة، "ما أصعب هذه المهمة". فكّرتُ، ثم جلتُ ببصري في وجوههم وجهًا وجهًا، وذهني ما زال يعوم بين الذكريات، "لا تستسلمي". ثمّة صوتٌ ما في داخلي يحثني على مواصلة الهدف الذي تجلّى في عقلي قبل سنوات مضت، وفي الوقت نفسه هنالك صوت آخر يصرخُ مرتاعًا: "كفّي عن الهذيان، واعقلي". وعلى خلاف الصوت الأوّل، كان يُحاول إقناعي بالتأقلم، وتقبّل الواقع.

وبين الصوت الأوّل والثاني تشعلُ الحيرة فتيل الريبة في عقلي، ويقودني الشك نحو العمق، حيثُ الظُلمة حالكة، والأفكار قد تجاوزت حدود العرف والتقاليد. أطبقتُ جفنيّ وهمهمتُ في سرّي: "اللهم أنِرْ قلبي باليقين". وتسرّبت من حنجرتي آهةٌ عميقة.

- السلام عليكم.

دهم أُذنيَّ صوتٌ أخن، كان مألوفًا لذاكرتي، بيد أنه لم يقرع طبلة أُذني قرابة العام. تلاقت أعيننا لحظةً وجيزة، إلا أنها تمطّت دقائق كأنما اللحظة لم تعد تعبأ ببساطة، لعقاربِ الساعة. كانت العداوة قد تشكّلت عبر تجهّم وجهي، وملامحها الحادّة، ثم أدارت ظهرها على نحو مُتكبّر ونهرت العاملة الخاصة بها:

- هيه! إلى أين؟ قفي هنا، عند الباب.

حملقت العاملة إلى عمتي بعينين اكتنفهما الهوان، واعترى الوهن قسمات وجهها، ثم هزّت رأسها مغلوبةً على أمرها، لكن عمتي تابعت بلا هوادة، وبالتكبر ذاته:

- تهزين برأسكِ دومًا سواءً أفهمتِ كلامي أم لم تفهميه.

ثم لوّحت إليها بكلتا يديها كما لو أنها تُخاطب مختلًّا عقليًا:

- هُنا. قفي. ولا تتحركي.

أغلقت الباب بوجهها، ثم دلفت تتذمر بصوتٍ تشوبُ نبراته الأرستقراطية:

- لو لم تكن غبيّة إلى هذا الحد ما كانت خادمة من الأساس.

زممتُ شفتيّ، وتقلّصت المسافة بين حاجبيّ، "لم تتغيّر البتة". فكّرتُ في نفسي. طبعت قبلة على جبينِ أبي، وبدت قبلة تأدية واجب لا أكثر، ثم جلست، وبين الفينة والأخرى كانت ترمقني شزرًا، "تُختبرُ الصداقة عند وقوعِ خلافٍ ما، فتعرفين حينئذ الصديقة الحقيقية من المزيفة". قلتُ في خلدي.

كانت بمثابة الأخت الكبيرة لا العمّة، وكانت صداقتنا فريدة من نوعها لولا "الربيع العربي" الذي زرع الفتنة بيننا، وفضح حقيقتها، عندما ناصرتُ الشعوب العربية دونما ترددٍ، وانحازت هي للحكومات بشكلٍ سافر. بدأنا نغرقُ في وحلٍ من نقاشاتٍ سياسية، عقيمة بالعادة، حتى انهدم صرحُ الصداقة، وتوارت مودتنا خلف سياج الكراهية، فأضحينا ببساطة عدوّتين لدودتين، كما لو أننا لم نكن يومًا صديقتين.

"كـان خلافًـا تافهًـا". قلـتُ في سـرّي، وقـد اعـترت صـوتي الـداخلي مسحة من الندم، "أكنتُ فظّةً معهـا؟" سـألتُ نفسـي، بيـد أنني أجبتُ في الحال: "لـم أكن يومًا فظّة بل كانت هي العدائية أكثر مما يُحتمل". وبغتةً، انسلّت مـن ذاكـرتي ذكـرى كنتُ قـد حبستها في منطقـةِ النسـيانِ طـويلًا، وتجلّـت بوضـوحٍ في ذهنـي، "تلـك السـهرة المشـؤومة". هممـتُ في خلـدي، كانـت علـى وشـكِ أن تُلغـى، ليتهـا أُلغيـت، "لكنّـا اليـوم نـنعمُ بالسَّلام". فكّرتُ، ثم أطلقتُ في سرّي وابلًا من اللعنـات والسباب على تلك المحطّة التلفزيونية؛ فهي السبب وراء شـرارة الخـلاف التـي نشـبت بيننا.

كان الوقتُ يطوفُ على نحوٍ اعتيادي حدّ الملل، وكانت سهرة مثل كُـلِّ سـهراتِ نهايـةِ الأسـبوع، حيـثُ الرجـال يقضـون مُعظـم وقـتهم في الـدواوين حتـى تصـدح السَّـماء بأصـواتٍ متداخلـة لمـؤذنين تتفـاوت حناجرهم من العذوبةِ إلى النشاز، ويُجرجر النُعاس أمي إلـى سريرها في وقتٍ مُبكر، ليُصبح البيت فيمـا بعـد رهـن تصـرفنا. نقضـي وقتنـا مـا بـين تناولِ الطعام حتى التخمة والنميمة، ثم نعِدُ أنفسنا بحميةٍ غذائية نبدأ بهـا الأسبوع المقبل، حميةٌ لا يحينُ وقتهـا أبـدًا، ونسـتلقي بعـد ذلـك بكسـلٍ على الكنبتين المنفصلتين في منتصفِ غرفة المعيشة، نرنو بعينين يأكلهما الضجر نحو شاشةِ التلفاز، وغالبًا ما تنتهي السهرة بمبيتها في بيتنا.

بيـد أنّ هـذه السـهرة لـم تنتـهِ مثـل العـادة، ففـي حـين كنّـا نغـرقُ في التخطيط لسفرةِ الصيف - حيثُ اختارت لندن بإلحاحٍ شـديد مثل كُـلِّ صيفٍ، بينما اقترحتُ أن نبحث عن دولةٍ لم تطأها أقدام الكويتيين قط -

كان هاتفها قد ومض على حينِ غرّة مشيرًا إلى استقبال رسالةٍ ما، ألقت بصرها بنظرةٍ خاطفة إلى شاشةِ الهاتف، ثمّ قالت بحماسةٍ وهي تُمسك بجهازِ التحكم، مُتجاوزةً موضوع السفرة بيقينٍ تام، أنّ لندن هي الخيار الوحيد مهما تعدّدت الخيارات:

- لنرَ ما تعرضه المحطّة الإخبارية الأولى.
- لماذا؟
- أخبرتني موضي للتو، أنّ ثمّة برنامجًا سياسيًّا رائعًا، يتناول "الربيع العربي".

"هذه الحمقاء". تذمّرتُ في خلدي، وقد تقلّصت المسافة بين حاجبيّ امتعاضًا، لم أستلطفها يومًا بل مقتُّها منذُ اللحظةِ الأولى، ثم رنوتُ إلى التلفاز بعدما تجلّت المحطة على الشاشة، وتابعتُ تذمّري: "تلك المحطة اللعينة؛ لطالما انحازت إلى الأنظمة وشوّهت سمعة الثوّار، واتّهمتهم بالخيانة زورًا وبهتانًا".

وبينما كان البرنامج يستولي على اهتمامها شيئًا فشيئًا، قلتُ باقتضاب:

- أخبار مُلفّقة.

أدارت وجهها نحوي بحركةٍ مباغتة، وقد اتّسعت عيناها مشدوهتين، حملقت إليّ برهةً ثم برمت شفتيها بنصفِ ابتسامةٍ أضفت مسحة من الدهشة على ملامحها، وتهكمت:

- أخبار مُلفّقة!
- نعم، هي بالفعل مُلفّقة.

أجبتها بحدّة، ثم ازدردتُ ريقي واسترسلتُ بحماسة:

- على مدى ثلاثين عامًا والشعب ينهشهُ الجوع، والفقر، والعوز. ثلاثون عامًا يا عمتي وهم على هامشِ الحياة، ثلاثون...

زجرتني على الفور وقد تغضّن جبينها إلى الحد الذي بدا منخرها المعقوف أطول:

- احتفظي بحماستكِ هذه لنفسك؛ فهي لا تقودُ إلى استقرار البلاد البتة، وما يحدث هناك عبارة عن فوضى عارمة، واستغلالٍ دنيء لحاجةِ الناس.

- رائع! ومَن هو المتسبب في حاجةِ الناس؟ أوَليس النظام!

وتابعتُ بالحماسةِ ذاتها:

- كُلُّ شيءٍ ينمُّ عن فشلِ النظام، وقد حان الأوان للتغيير.

- لن يجدوا أفضل من النظام الحالي، فقد وفّر لهم...

قاطعتها بصوتٍ ينضحُ التهكم من نبراته:

- لن يجدوا أفضل!

ثم سألتها وقد اكتنف الاستهزاء صوتي، بعد أن لمستُ جبينها بظهرِ كفّي على نحو ساخر:

- أتشكين من الحُمّى يا عمّة؟

صاحت بملء حنجرتها، بعدما حدجتني مضيّقةً حدقتي عينيها:

- حصّة!

وأضافت بلهجةٍ تهديد:

- احذري أن تتجاوزي حدودك معي.

وأمسكت عن الكلام، اكتفت بالتحديق وعيناها ينهشهما الغضب، تقلّصت عضلاتُ وجهها إلى حدٍّ نجم عنه وجه آخر، يملأ قسماته السخط، حاولتُ ضبط إيقاع قلبي قدر المستطاع، لكن رعشة خفيفة اغتصبت أوصالي، "ربما فضحتني هذه الرعشة!" فكّرتُ في نفسي، وعلى نحو مباغت نهضت، وأدبرت دون أن تنبسَ بكلمةٍ، مُخلّفةً صمتًا مهيبًا، ثم صفقت الباب خلفها بقوّة.

تسمّرتُ في مكاني، أرنو إلى الفراغ لبضعِ دقائق، ثمّ رمشتُ عدّة رمشات أُحاول استيعاب ما حدث، وكان قلبي قد اضطرب إيقاع خفقانه. أدرتُ بصري يُمنةً ويُسرةً غير مُصدّقة ما جرى، رطّبتُ شفتيّ بلسانٍ كان قد جفّ تمامًا، وبيدٍ مرتعشة مددتها نحو الطاولة، تناولتُ كوب الماء، قرّبته من شفتيّ المتعطّشتين، "هذه هي المرّة الأولى التي يُزمجر فيها أحد بوجهي". قلتُ في سرّي، وازدردتُ الكوب دُفعةً واحدة.

ثمّ نهضتُ أذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا أُحاول ابتلاع الصدمة، "عمّتي تنهرني!" تساءلتُ مرتابةً، كان عقلي مشوشًا للغاية، ويهيمُ بين ألفِ فكرةٍ وفكرة، "كيف سمحتُ لها بأن تزجرني؟" سألتُ نفسي. وبعد دقائق من عتابٍ بلغ ذروة القسوة، اتّكأتُ مُنهكةً على النافذة، أخرجتُ هاتفي من جيبِ البنطال، ثم فتحتُ تطبيق تويتر، واتّسعت عيناي على وسعهما حين وقع بصري على تغريدةٍ لها، كانت قد تضمّنت من الوقاحة ما يكفي ليثير استفزازي، لم تجرؤ على مواجهتي هذه الجبانة، فلجأت إلى حسابها

الوهمي وغرّدت: "وحدهم الأغبياء مَن يؤمنون بأنّ ثورات الربيع العربي هي ثورات حقيقية". وختمتها بهاشتاغ أغبياء، تجهّم وجهي في الحال، وتوقّد جسمي كأنما ثمّة بركانٌ انفجر في أعماقي، "لا شك أنني المقصودة من هذه التغريدة". قلتُ في سرّي متيقّنةً، وبعد ثوانٍ كنتُ قد نشرت تغريدة لا تقل وقاحة عن تغريدتها: "الغبي مَن يرى نفسه الأذكى".

ورميتُ هاتفي فوق الكنبة، ثم اتّكأتُ مرّةً أُخرى على النافذة، أرنو إلى السماء، كانت صافيةً والقمر يُلوّن خط الأفق بنورٍ أبيضَ صافٍ، حوله النجوم تتلألأ مثل حرّاسٍ أوفياء. وبعدما هدأت، خرجتُ من غرفةِ المعيشة إلى غرفتي، لكن قبل أن أفتح بابها قرعت طبلة أذني ضحكة حادة، مزعجة، كادت أن تثقبها، انتشلتني من قعرِ الذكريات، وألقت بي فوق سطحِ الحاضر. شزرتها وقد ضيّقتُ عينيّ؛ لم أحتمل وجودي معها في الغرفةِ ذاتها أكثر من ذلك، فانتصبتُ بغتةً، وبلجهةٍ تضوعُ منها رائحة العنف، سألتُ أبي:

- أتأمرني بشيء يا أبي؟
- إلى أين؟
- إلى البيت.

تغضّن جبين عمتي، وأشاحت بصرها بأنفةٍ، خيّم الصمت لحظةً، ثم تناهى إلى مسمعي على نحو مفاجئ صوت مُتهدج هاتفًا بتردد:

- سأعودُ معكِ.

"ياسين!" قلتُ في خلدي مشدوهةً، وسُرعان ما استحال الأمر إلى مشكلةٍ شرعت تنفثُ عقدًا لا حصر لها، ضجّت الغرفة بالآراء

المتناقضة، "بات الجميع خبراء اجتماعيين". فكّرتُ في نفسي، وبينما كانوا يتجادلون بجديّة - أكبر مما يحتمل الأمر - حول عودة ياسين معي أو بقائه في المستشفى، كنتُ قد أطبقتُ جفنيّ بوهن، وحاولتُ ألا أفكر بشيء، كان ذهني مرهقًا كفاية، وأوشكتُ أن أجهش ببكاء لا معنى له، مثل طفلةٍ ترى ضياعها عن أمها وسط زحام السوق هو نهاية العالم، بيد أنني تمالكتُ نفسي في اللحظةِ الأخيرة.

قال أبي حاسمًا الموضوع:

- حسنًا، خذا سيارتي، قُد أنت وعودا معًا، واتركا السائق تحت إمرةِ أمكما، أمّا أنا فسوف أعود برفقة حمد.

حدجتُ ياسين بعينين تفيضانِ غيظًا، وكوّرتُ قبضةَ يميني بقوّةٍ استعدادًا للكمةٍ خاطفة، كان حمد قد بدأ تملقه المعتاد في غضونِ ذلك، لكن بعد ثوانٍ وجيزة كنتُ قد تقهقرتُ عن لكمهِ، شرعتُ أرتدي حجابي والعباءة باستسلامٍ أثار شفقتي على حالي، ثمّ تأبّطتُ حقيبتي وولّيتُ ظهري للجميع أجرُّ نفسي إلى الخارج، والخذلان كان قد محا ملامحي، واستوطن وجهي.

- 2 -

أدار مُحرّك السيارة، ثم مال قليلًا بجسمه باتّجاهي، ألقى بصره نحوي بنظرةٍ خاطفة وأعاده إلى الأمام مرّةً أُخرى، ضغط على دوّاسة البنزين بقوة فأصدر المحرك صوتًا أشبه بسعالِ عجوزٍ أنهكه المرض، ثم استطرد بصوتٍ خجول، مازحًا:

- يبدو أنّ صوت محرّك السيارة أرق من ضحكةِ عمّتكِ، أليس كذلك؟

انثنت شفتاي بما يشبه الابتسامة، بيد أنها شاحبة، ولم تكن على دُعابته وإن كانت مضحكة، بل على محاولته البائسة، "عبثًا تُحاول؛ فلن نعود كالسابق أبدًا". قلتُ في نفسي، وقد خيّم عليَّ إحساسُ سخطٍ ونفور، وباغته قبل أن يردف دُعابته بأُخرى مثل عادته، لا ينفك أن يطلق دُعابة حتى يردفها بوابلٍ من الدُعابات:

- لستُ بمزاجٍ لأيّةِ دُعابات.

وأشحتُ وجهي نحو النافذة؛ أُداري دمعة كانت قد أوشكت على السقوطِ من عينيّ، وأضفتُ على الفور بنبرةٍ ترتعش، بعدما تسلل بصري إليه بنظرةٍ سريعة، مُتفحّصةً ملامحه:

- أرجوك ياسين.

واضطرب وجهه في الحال، حملق نحو الطريق مُقطّبًا جبينه، وشدّ قبضته على المقود، شعرتُ أنّ ثمّة كلمات كان قد غصَّ بها، وأنّ لسانه تعثر عن الرد كأنما شُلَّ عن النُطق، بيد أنني لم أُشفق عليه البتة، وهذا ما أثار دهشتي، ثم قلتُ لنفسي من قبيل عدمِ الاكتراث العميق: "أوَتظنُّ أنّ الزجاج إذا تهشّم، يعود إلى سابقِ عهده!".

تقهقر عن محاولته، وغشت ملامحه الخيبة، في حين رنوتُ نحو الطريق عبر نافذة السيارة، وشرع الشرود يبتلعني، بينما كانت الذكرى ذاتها لا زالت عالقة بذهني، وشيئًا فشيء أعادتني إلى الماضي، وتحديدًا. بعد مُضي نصف ساعة على التغريدة التي أطلقتها في سماءِ

تـويتر، وبينمـا كنـتُ أُدوّن مـا حـدث في دفـترِ يوميـاتي كـان ثمّـة جلبـة قـد انبعثـت مـن الـدور الأرضـي، صـفقةُ بـاب، صـراخ، وكركبـة أشـياء، "مـا الأمـر؟" سـألتُ نفسـي، ثـمّ تناولـتُ هـاتفي مـن فـوق المنضـدة، تفقدتُ الساعة، لم تتجاوز مُنتصف الليل، وفتحتُ - على نحو عفوي - تطبيق تويتر، تأمّلتُ التغريدة ذاتها برهةً، لكـن الأوان كـان قـد فـات على مسحها.

واصـلت الجلبـة طـرقَ مسـمعي، فهرعـتُ باتجاههـا، بـدأت أُذني تتعـرّف علـى صـاحبة الصـياح، "عمتـي!" هتفـتُ في خلـدي، وهبطـتُ السلالم بخطواتٍ سريعة، ثم تسمّرتُ عند مدخلِ غرفةِ المعيشة، وكـاد قلبي يقفزُ من بينِ أضلعي، وثمّة رعشـةٌ اغتالـت أوصـالي؛ كانـت عمتي تقفُ مُنتصبةً في المنتصفِ، تصرخُ بهستيرية مخيفة، دلـف أبـي علـى إثـر الصراخ، وسألها على الفور رافعًا حاجبيه مشدوهًا:

- ما الداعي لكُلِّ هذا الصراخ يا نورية؟

- ابنتك قد أخطأت بحقّي، وتجاوزت حدودها معي.

بيد أنها تسرّعت بانفعالٍ قائلة قبل أن يُقرر أبي موقفه منّا:

- ويبدو أنك لم تفلح في تربيتها.

حـدجها وكـان الشـرُّ يتطـاير مـن عينيـه، تقلّصـت عضـلاتُ وجهـه، وأضحى في أوجِ حنقه بلمحِ البصر، كمـا لـو أنّ الجملـة التـي نطقـت بهـا تضمّنت شيفرةً ما، دفعته إلى الوقوف معـي، ضـدّها، ودون إبطـاءٍ صـاح بملء صوته الغليظ، غاضًا بصره عن السبب الرئيسي للمشكلة:

- أنا لم أفلح في تربيةِ ابنتي!

فغرت فاهها برهةً، وعبر الفزع قسمات وجهها، ثـم ازدردت ريقهـا بصعوبة، وراحت ترمي بصرها يُمنةً ويُسرةً كأنها تبحثُ عمن ينتشلها من موجِ غضبه القادم؛ فقد أدركت للتو غلطتها الفادحة، إلا أنها أدركت ذلك بعد فواتِ الأوان، عبثًا مضت كل محاولاتها في خلقِ مُسوّغ، لكن بينما هي تُحاول تبرير ما قالته كانت يده قد هبطت على خدّها في صفعةٍ مباغتة، أحدثت صوتًا مدوّيًا ارتدّ صداهُ عبر جدران الغرفة، ثم أطبق صمتٌ مروّعٌ ابتلع خلاله الصخب في لحظة، كانت هذه هي المرّة الأولى التي يصفعُ فيها أبي عمتي، وليته اكتفى بالصفعة فحسب، بيد أنه مضى قائلًا بغضبٍ جارف، بينما كان يدفعها بيمينه ويُلوّح باليُسرى:

- أُغربي عن وجهي.

ثم عاود دفعها نحو الباب بكلتا يديه هذه المرّة بقوة، استولى الذُعر على جسدي عبر رعشةٍ عنيفة لا تنفك تهزّ أطرافي، إلا أنني تخشّبتُ عن الحركةِ حين مرّا بجواري، شرع قلبي يتصاعد بنبضاته مرتاعًا، بقيتُ مُحملقة نحوهما فاغرةً فمي على وسعه من هولِ الصدمة، ويداي كانتا ترتعشان بشدّة.

على حين غرّة، تلاشت الذكرى من ذهني، وتوارت خلف سياجِ الحاضر، حين فرمل ياسين السيارة فجأة، صحتُ على الفور بأعلى صوتي عندما أوشك أن يصطدم بالسيارة التي كانت قد فرملت أمامه على نحو مفاجئ:

- انتبه ياسين!

فرّت من جوفي تنهيدة عميقة، بعدما نجونا من حادثٍ وشيكٍ، ثم تهكمتُ بعد لحظةٍ وجيزة:

- الحمد لله. لا أعتقدُ أن ثمّة غرفة شاغرة في المستشفى.

افترّ ثغري عن نصفِ ابتسامةٍ باردة، لكن عندما لمحتُ عينيه تتفحّصانني، تغضّن جبيني في الحال، وتوارت الابتسامة خلف عبوسٍ حاد. وعلى نحو عفوي أطرقتُ رأسي بين قدميّ لثوانٍ وجيزة، ثم رنوتُ نحو الطريق.

مضت دقائق لم أشعر بها، كأنما ارتقت روحي عن جسدي بُرهةً، وسافرت بعيدًا إلى بُعدٍ آخر. كان الصمتُ قد أحكم قبضته على حناجرنا طوال هذه الدقائق. ملتُ بجسدي نحو باب السيارة، وأسندتُ رأسي إلى زجاجِ النافذة، أحدّقُ في أضواءِ السيارات غارقةً بأفكاري.

ثمّ أطبقتُ جفنيَّ مرهقة من التفكير، ومرَّ ببالي مشهدٌ من نسجِ الخيال، حمل عني ثقل الحياة، وسافر بي بعيدًا عن الواقع، ملأتُ رئتيّ بالهواء وعشتُ الخيال بأدقِّ تفاصيله الصغيرة، مُنتشيةً بسحره، إذ هبط بي فوق جزيرةٍ نائية، ومهجورة، وأسكنني في كوخٍ مصنوع من أعوادِ الخشبِ الرقيقة، مسقوف بأوراقِ شجرِ جوز الهند، تلتفُّ حوله شُجيرات قصيرة ولاؤها للجزيرة، وتطلُّ الشمسُ بأشعتها من بين أعوادِ الخشب برفق.

كانت زقزقة العصافير أشبه بأُنشودةٍ صوفية تغمرُ الفؤادَ بالسَّلام، كانت تُنشدها على لحنِ ارتطامِ الأمواجِ بالصخور المحيطة بشواطئها،

والسماءُ صافيةُ الزرقة، مثل عيني فتاةٍ إغريقية لم تبلغَ الحلم، نسمةُ هواءٍ رقيقة حملت بين طيّاتها رائحة البحر، وتسللت به إلى أعماقِ رئتيّ عبر شهيقٍ عميق، ونسمةٌ أخرى كانت قد داعبت خصلات شعري الضَجِر بغنج.

بعد انقضاء هذه الدقائق، عادت روحي واهنةً إلى جسدي البائس، فتحتُ عينيّ على الواقع وكان القنوط قد امتزج بالدم في أوردتي. ركن ياسين السيارة في غضونِ ذلك أمام الباب الحديدي، رنوتُ إلى البيتِ في كَبَدٍ، بدا كئيبًا بنوافذه المسلّحة بالحديد، ولونه القرمزي الذي يفتقر إلى الذوق. ترجّلتُ دون أن أنبس بكلمة؛ فلم يزل مشهد الجزيرة عالقًا بذهني، الكوخ، الشُجيرات، سطوع الشمس، زقزقة العصافير، ارتطام الأمواج بالصخور، ونسيم البحر كان لا يزال يُداعبُ خصلات شعري، كأنما هو الحقيقة وما أعيشه الآن محض خيال.

هرعتُ إلى غرفتي، طفتُ المدخل الرئيسي، والممرّات، اغتصبتُ الخطوات اغتصابًا، صعدتُ السلالم مثل شبحٍ. دلفتُ غرفتي وألقيتُ بنفسي فوق السرير، توغّل الإرهاق في لحظةٍ في جسدي كله، ثم تكوّرتُ تحت البطّانيّة مثل طفلةٍ تختبئ عن العالم المخيف، وتشعرُ بالأمان تحت بطّانيّتها زهرية اللون.

نفضتُ عن ذهني كل الذكريات المخضّبة بالحُزن والخيبة، وأغمضتُ عينيّ ثم استحضرتُ مشهد الجزيرة النائية، المهجورة وسط المحيط، من جديد. استحضرته إلى الحدِّ الذي شعرتُ بالشمسِ تُقبّلُ وجنتيّ بأشعتها الدافئة، وعادت العصافير تُزقزقُ أُنشودتها الصوفية على

لحنِ ارتطامِ الأمواجِ بالصخور، فعاد السَّلام إلى فؤادي، وملأتُ صدري بشهيقٍ عميق تخلله نسيم البحر، ثم غرقتُ في هدوء الليل، وسلّمتُ نفسي للنوم.

- 3 -

قُرِعَ الباب فأيقظني من سُباتٍ خلته سيدومُ مدى الدهر، أو بمعنى آخر، هذا ما رجوته في قرارةِ نفسي، ثم هتف من وراء الباب:

- صلاة، صلاة.

هذا الصوتُ الغليظ لا يُمكن أن تُخطئه أُذناي البتة. أجبته والنُعاس يحتضنُ حنجرتي:

- ها أنا قد استيقظت.

ثم تذمّرتُ في نفسي ساخطةً: "حتى يوم الجُمعة توقظنا من الفجرِ يا أبي، بربّك ألا نستحقُّ يوم راحة في الأسبوع". قرع الباب مرّةً أُخرى مُستطردًا بأعلى صوته:

- الصلاةُ خيرٌ من النوم.

فتحتُ فمي على وسعه في تثاؤبٍ كاد أن يخلع فكّي من مكانه، ثم أجبته بصوتٍ يُحيقُ بنبراتهِ الضجر:

- لقد استيقظت، والله استيقظت، ها أنا أمشي نحو الحمام، ألا تسمعُ قرع أقدامي على الأرض!

وانتصبتُ في الحال، أضربُ بقدميَّ الأرض مُتظاهرة بالمسير؛ كي يكُفَّ عن الزنِّ قليلًا، ثم تمتمتُ في خُلدي بعدما زممتُ شفتيَّ: "أكُلَّ

شيءٍ بالإكراه في هذا البيتِ اللعين.. حتى الإيمان؟!" عاد يطرقُ الباب مجددًا، قائلًا بصوتٍ بدا غاضبًا:

- لا أسمع صوت خرير الماء!

أطلقتُ زُفرةً طويلة، كادت تخرج خلالها روحي، ونهضتُ مُتعكّرة المزاج، وكان قرع خطواتي حقيقيًا هذه المرّة، دلفتُ الحمام، وفتحتُ الصنبور على الفور، تدفق الماء دفعةً واحدة، وواصل تدفقه مُصدرًا خريرًا مزعجًا، وقفتُ مُتسمّرةً لبرهةٍ من الزمن، ثم رفعتُ بصري إلى المرآةِ بينما ذقني كان يتوسَّط العظمتين الناتئتين عند بداية عنقي، بقيتُ مُحدّقةً إلى ملامحي في المرآةِ المستديرة فوق الصنبور، ثم سألتُ نفسي مرتابةً: "أهذه أنا حقًّا؟". كانت الخيبة قد خطّت بريشتها على وجهي لوحةً حزينةً حدَّ البؤس، اصفرَّ لوني اصفرار المرض، وعيناي ذابلتان يُحيطُ بهما هالة من السواد، وشفتاي ذاويتان إلى حدٍّ ضلّت الابتسامة طريقها إليهما. "لمن هذه الصورة المعكوسة في المرآة!" تساءلتُ في سرّي مُتوجسةً من الإجابة، بيد أنّ الإجابة انزلقت لوحدها من بين شفتيّ، وتضمّنت مسحة من الأسى:

- هذه المرأة ليست أنا، بل هي امرأةٌ أُخرى لا أعرفها فرضها المجتمع عليّ.

وأحدتُ بصري عن المرآةِ مُقطّبةً حاجبيَّ، ثم تابعتُ ناقمةً بحسرةٍ:

- لقد خطفوا عقلي باسمِ الدين، وانتزعوا أنوثتي بحجّةِ التقاليد، وسرقوا أحلامي باسمِ الرجولة. لقد مزّقوا طموحي وألقوا به فوق أنقاضِ أحلامي، وبين جيَفِ الأمنيات المتطايرة أشلاؤها.

وأمسكتُ عن الكلام حين ارتعشت شفتاي رعشةً خفيفة، تقلّصت عضلاتُ وجهي، واغرورقت عيناي بالدموع، ملأتُ راحتيَّ المرتعشتينِ بالماء المنهمر من الصنبور، وغسلتُ وجهي، كررتها مرّةً ثانية، وثالثة، وغسلته للمرّةِ الرابعة لكن البؤس بقي عالقًا بملامحي!

وبعد أن توضأت، خرجتُ من الحمام، "حمدًا لله أنّ الحمام قد صُمّم داخل الغرفة". فكّرتُ في نفسي، ثم انتصبتُ فوق سجّادة الصلاة مُضطربة المشاعر، مشوّشة الذهنِ، بيد أنني استعذتُ بالله من إبليس وأقمتُ الصلاة على أيةِ حال، لكن ذهني بقي مُشوّشًا، ومشاعري واصلت اضطرابها. "أتُرى سوف تُقبلُ صلاتي، أم أنني أضحيتُ من أهلِ النار سلفًا؟" سألتُ نفسي في وجلٍ، وفرائصي ترتعد من لهيبِ الجحيم.

قفزتُ فوق السرير بعدما فرغتُ من أداءِ الصلاة، أُرسلُ برقيّات استغاثة للنوم، عسى أن يحنَّ عليَّ ويُحررني من قبضةِ الصحو. تقلّبتُ فوق السرير يُمنةً ويُسرةً، تكوّرتُ أخيرًا وضممتُ ركبتيَّ إلى صدري، أخفيتُ رأسي تحت الوسادة، لكن محاولاتي كلها باءت بالفشل الذريع؛ فقد حلّق النوم بعيدًا عن أجفاني، ولا طائل من كُلِّ هذه المحاولات.

أصدرت معدتي أصواتًا، أو بعبارة أُخرى كانت تطلب الطعام بلُغةٍ كونية خاصّة، وخضعت إرادتي لسُلطةِ الجوع، فنهضتُ دون إبطاءٍ إلى المطبخ أجرُّ رجليَّ بكسلٍ مُتثاقلة الخطوة، كانت أنوار المطبخ مضاءة، وأمي تقفُ قرب مائدة الطعام تعدُّ وجبةَ الإفطار بنفسها، رفعت بصرها عندما أحسّت بدخولي، وقالت بصوتٍ مُفعمٍ بالفرح، مثل فرحةِ طفلٍ ليلة العيد:

- صباحُ الخير يا أجمل حصّة في الدنيا.

- صباحُ النور.

وأردفتُ تحيّتي الجافة بابتسامةٍ فاترة، كانت أمي قد جهّزت في الحال طبقًا مليئًا بالفطائر الشهيّة، داعبت رائحتها أنفي مُستفزة معدتي الفارغة، قدّمتها إلي وسكبت كوبًا من الشاي بالزعفران والهيل ووضعته قربي، ثم مازحتني المزحة المعتادة، قبل أن نتذوّق طعامًا من إعدادها:

- لا فطائر أشهى من التي تعدّها أمّكِ، تذوّقيها لكن حذارِ أن تأكلي أصابعكِ من شدّةِ لذّتها.

- لا شكّ عندي بذلك، سلمت يداكِ على أيّةِ حال.

جلستُ قبالتها، تناولتُ فطيرةً، قسّمتُها إلى نصفينِ، وقضمتُ قطعةً صغيرة منها، رحتُ أمضغها بتأنٍّ، وألقيتُ بصري نحوها مُتفحّصةً قسمات وجهها الهرم. "بربّكِ كيف استطعتِ احتماله طيلة هذه السنوات؟" سألتُ نفسي بدهشةٍ، وبينما تناولتُ كوب الشاي وقرّبته من شفتيَّ، تمتمتُ مُتذمرةً قبل أن أرتشف رشفةً:

- أكان شبابك ثمن هذا الصبر؟

رفعتْ بصرها إليّ وقد ضيّقت حدقتي عينيها، وسألتني بعدما ضغطت بسبابتها والإبهام على شحمةِ أُذنها:

- لم أسمعكِ، ماذا قلتِ يا حبيبتي؟

- كنتُ أسأل فحسب عن البقية، أين أبي، حمد.. ياسين؟

- أبوكِ وحمد قد يدخلان في أيّةِ لحظة.

وكانت قد رنت إلى الساعة المعلّقة على الجدار، وتابعت بالنبرةِ الرتيبة ذاتها، بعد أن صوّبت بصرها نحوي مرّةً أُخرى:

- هذا موعد وصولهما.

ثم أحادت بصرها عني، وحملقت إلى الفراغ لحظةً، بدا أنّ ذهنها سافر بعيدًا خلال هذه اللحظة، تسرّبت من حنجرتها آهة، ثم رمقتني بعينين توهّج فيهما حزنٌ عميق، كأنما ثمّة حريق يشتعلُ في فؤادها، وقالت بصوتٍ يشوبه القلق:

- أمّا ياسين فما زال في غرفتهِ منذُ البارحة، لقد قرعتُ بابه حتى تورّمت أصابعي لكنه لم يفتح الباب.

وأضافت بعد أن أمسكت عن الكلامِ برهة من الزمن، ازدردت ريقها، وزفرت زُفرةً قصيرة:

- ربما لم يسمع طرق الباب؛ فقد بدا البارحة مرهقًا للغاية.

- مرهقٌ أم اعتاد التجاهل!

قطّبت جبينها، وزمّت شفتيها، ثم دافعت عنه بفطرةِ الأم لا المنطق:

- لا تظلميه، فلم يتجاهلنا قط في حياته، لكنه ما زال حزينًا على موتِ زوجته فحسب، أفلا...

وتوقفت عن الكلامِ بغتة، كأنما كانت تتجاوز بعض الكلمات في عقلها، وتُعيد ترتيب بعضها الآخر، ثم مضت تقول:

- آمل أنه قد استرخى في حوضِ الاستحمام؛ فقد أوصيتُ ريتشل بملئه بالماء الساخن ورغوة الصابون.

وأطرقت بصرها لحظةً، افترَّ ثغرها عن ابتسامةٍ طفيفة، وهمست بنبرةٍ دافئة:

- لطالما أحب ذلك.

"لم يتجاهلنا قط في حياته!" كررتُ جلمتها بتهكم في خلدي، ثم تساءلتُ في سرّي: "أهي مُدركة لما يجري حولها، أم أنّ فطرةَ الأُم أعمتها عن حقيقة خذلانه!" ثم قضمتُ قطعةً أُخرى من النصفِ ذاته للفطيرة، وانثنت شفتاي مكوّنتين نصف ابتسامة، بينما انتفخ خدّي الأيسر باللُّقمة، ثمّ استطردتُ وقد خيَّم الاستهزاء على صوتي:

- حمد هو الوحيد الذي يعرف كيف يحتالُ عليكم في هذا البيت.

حدجتني أمي على الفور رافعةً كلا حاجبيها:

- حمد مُحتال! أهذا البريء يعرفُ كيف يحتال؟

- حمد بريء!

فغرتُ فمي، مُحدّقةً إليها بعينين مفتوحتينِ على وسعهما لثوانٍ، وبعد أن عادت قسماتُ وجهي إلى طبيعتها أطلقتُ قهقهةً قصيرة، مُتقطّعة، وقضمتُ بعد ذلك قطعة أخيرة من الفطيرة، ثم ركنتها قرب النصف الثاني فوق المائدة، ومضغتها بينما كنتُ أهزُّ برأسي مُتمتمة بصوتٍ تنضحُ من نبراتهِ السُّخرية:

- بريء!

لاذت بالصمت ولم تُعقّب، ثم أحادت بصرها عني مُتغضّنة الجبين، واستأنفت تجهيز المائدة بالطعام، كأنما حدسها كان يُخبرها أن تتعجّل قبل أن يصلا.

وفي غضونِ ذلك، كان أبي وحمد قد دلفا، ألقيا التحيّة بنبرةٍ ذكورية مُغالى فيها:

- السَّلام عليكم.
- وعليكم السَّلام ورحمةُ الله وبركاته.

قالت أمي مُكشّرةً عن أسنانها في ابتسامةٍ عريضة، بينما تمتمتُ باقتضاب بعد لحظةٍ وجيزة:

- وعليكم السَّلام.

ثم نهضتُ وطبعتُ قبلةً على جبينه. "بعضُ المشاعر تفقدُ قيمتها عندما تقترن بالإكراه". فكّرتُ في نفسي، وبينما كان أبي يجلسُ في مكانهِ المعتاد، رنا إلى أمي، ثم سألها والحنق يعتلي قسمات وجهه:

- أما زال ابنك مُعتكفًا في غرفته منذ البارحة؟
- هدّئ من روعك يا أبا ياسين، ما زال الولد مُرهقًا، دعه ينلْ قسطًا من الراحة.

"ولد!" هتفتُ في خلدي بدهشةٍ امتزجت بالسخط، بيد أنّ حمد استطرد بمزحةٍ غلّف خلالها رأيه صراحةً:

- لا تقلقا عليه، ودعا للجوعِ مُهمة إقناعه بالعدول عن اعتكافه هذا.

حرّكتُ كتفيَّ باستغرابٍ، وتساءلتُ ساخرةً:

- لا وظيفة تُرهقه ولا دراسة تُقلقه، على ماذا تحديدًا ينالُ قسطًا من الراحة.. لا أفهم؟

ألقت بصرها نحوي مُقطّبة الحاجبين، واضعةً سبّابتها أمام شفتيها، ثم استدارت بكامل جسدها نحو أبي قائلة، بعد أن أرخت عضلات وجهها في ودٍّ بدا مُصطنعًا وأقربَ إلى التزلُّف:

- ترفّق به يا أبا ياسين، أنت أعلم بحاله وبالمعاناة التي كابدها في العامين الماضيين.

أطرق بصره إلى طبق الفطائر الذي أمامه، أمعن النظر فيه بجديّة، كأنما يستشيره في مسالةٍ مصيرية، ثمّ تناول فطيرة وقضمها دون أن يجيب، وبينما كان يمضغها كانت عيناه تتفحّصان وجوهنا وجهًا وجهًا، كما لو كنّا محكومين بالإعدام وعليه اختيار واحدٍ منّا كي يعفو عنه. استمرّ في قضمها حتى التهم الفطيرة برمّتها، ثم أدار لسانه على أسنانه الصفراء كأنما يحصيها، مُتلذذًا بما علق بها من فتاتٍ، مُصدرًا صوتًا مُقرفًا في تلذّذه. وفي تلك الأثناء كنّا قد تبادلنا النظرات فيما بيننا دون أن ننبسَ ببنتِ شفة. تناول كوب الشاي، رشف رشفة سريعة، ثم أومأ برأسه قائلًا:

- حسنًا يا أم ياسين، حسنًا، سوف أترفّق به.

لوّحَ حمد بيمينه في هذه اللحظة، تلويحة واحدة، سريعة، دون أن ينتبها إليه، وأشار برأسه نحو غرفةِ المعيشة المجاورة، ثمّ سبقني إليها يخطو مثل اللّص خارج المطبخ، أدركته بعد قرابةِ نصف دقيقة؛ حتى لا يشعرا أن ثمّة سرًّا يُحاك دون علمهما، لا سيما أبي؛ كي لا يخضعنا إلى جلسةِ تحقيقٍ مرعبة.

كان حمد يقفُ مُنتصبًا في مُنتصف الغرفة عندما دلفتُ، صوّب بصره إليَّ، انثنت شفتاه وأطلّت من بين شاربيه ابتسامة

بدت رقيقة، ثم قال بنبرةٍ تفوحُ منها رائحة التزلّف:

- سُبحان الذي سوّاكِ حتى تفوّقتِ بالحُسنِ على سِواكِ.

"يا لك من مُحتال". قلتُ في خُلدي، بيد أنّ كلماته أصابت فؤادي، واحمرّت وجنتاي رغم يقيني أنه مُحتالٌ. مضى في كلامه على أيّةِ حال:

- لقد وهبكِ الله إضافةً إلى جمالكِ الساحر، عقلًا يزنُ بلدًا بحاله، رغمِ سنّكِ الصغيرة.

- أغمد خنجر أكاذيبك في غمدهِ، وأشهر سيف الحقيقة، ماذا تُخبئ خلف هذا التزلف؟

ازدرد ريقه، وأخذ نفسًا طويلًا، ثم برم شاربه بإصبعيه، وعيناه ترمقانني بحدّة، وبعد لحظةٍ وجيزة أجابني بجديّة غمرتها مسحة من المودة:

- لقد سمعتُ بأنّ فهد تقدّم وطلب يدكِ من...

قاطعتهُ في الحال، رافعةً كفّي بوجههِ، مُطرقةً رأسي للأسفل:

- حمد، أرجوك، لا أُريد الخوض في هذا الموضوع نهائيًا.

شعرتُ بجسدي يتّقد، وضرباتُ قلبي تتسارع، كان هذا الموضوع بمثابةِ كابوسٍ يستولي على المرء حين يغفو، ويحرمه نعمة الاستيقاظ. دنا مني، وربّت على كتفي برفق، ثم استطرد بصوتٍ خافت، مليء بالدفء:

- كان الله في عونكِ.

رفعتُ بصري بينما رأسي ما زال مطرقًا للأسفل، حدّقتُ إليه بعينين مشدوهتين، ولمعتا ببريقِ دمعٍ خفيف، "أيعقلُ ما أسمعه!" تساءلتُ في خُلدي، والدهشة تستبدُّ بقسماتِ وجهي؛ فعادةً ما يزدري

مشاعري عبر تعليقٍ ذكوري خادشٍ لأنوثتي! لكنه تعاطف هذه المرّة وتبسّم بينما شفتاه كانتا مضمومتين، ثم استرسل:

- سجينةٌ أنتِ في بيتٍ مشيّدٌ بالتقاليد العتيقة، مُكرهةٌ على زوج لا يليقُ بكِ البتة، ومُستقبلٌ مروّع بانتظاركِ، أيُّ مأساةٍ تعيشين يا حصّة!

رنا إلى الباب هُنيهة، ثم ازدرد ريقه وواصل بعدما تأكد ألّا أحد يتنصت:

- لكن السؤال المهم: هل بإمكانكِ التصدي لأبي؟

أطلقتُ تنهيدةً عميقة، جرحت الحنجرة أثناء خروجها، ثم أجبته بصوتٍ مبحوح، اكتنف بنبراتهِ القنوط:

- لا، لا يا حمد، لا أحد بإمكانهِ التصدي له.

- كوني واقعية إذن.

"كيف؟" سألته لكن بتعابيرِ وجهي، فأجاب ببساطة:

- ألا تُكابري على الواقع.

تقلّصت المسافة بين حاجبيَّ، وخيّمت سحابةٌ سوداء على جبيني، "هذا الواقع سوف يبتلعني يومًا، ويلفظني مسخًا". فكّرتُ في نفسي.

- لكن لا تقلقي يا حصّة، سوف تتأقلمين مع مرورِ الوقت، هذا دأب الإنسان بطبيعةِ الحال.

قال بالنبرةِ الخافتة ذاتها، المليئة بالدفء، وشرع الواقع يبتلعني إن لم يكن قد ابتلعني سلفًا، وها أنا مسخٌ الآن. تابع بعد أن احتضن يدي بكلتا كفّيه برفق:

- كُلُّ الاحتمالات التي تجولُ في عقلكِ الآن، سوف تنتهي بالزواج من فهد، ابنُ عمّكِ أو كما تنعتينه، المتخلّف. وما من شيءٍ سيحولُ دون ذلك، وأنتِ تعرفين هذا جيدًا، إذا عزم أباكِ على أمرٍ ما فلا سبيل لإيقافه.

"أكُلُّ الاحتمالات نهايتها فهد حقًّا؟" سألتُ نفسي، وشرع حلقي يجفُّ من هولِ الفكرة، ورحتُ أُفتّشُ في عقلي عن احتمالٍ واحدٍ يُنجيني من هذه الزيجة، بيد أنني لم أعثر على هذا الاحتمال مُطلقًا. برم شاربه مرّة أُخرى، ورنا إليَّ بعينيه الصغيرتين بتركيز، كما لو كنتُ فنجانًا بيده، وشرع بقراءتي. ثم تنحنح قائلًا:

- أعلمُ أنكِ تسعين إلى تغيير المجتمع عبر حسابكِ الوهمي في تويتر.

"كيف عرف عن حسابي الوهمي!" تساءلتُ في خلدي فاغرةً فمي، غير أنه تبسّم للحظةٍ، "أتراني تساءلتُ بصوتٍ مسموع؟" سألتُ نفسي مرتابة، ومضى في قراءتي:

- وكيف أتيه عن أسلوبكِ الرائع بالكتابة، لكن، أتعلمين من أين يبدأ تغيير المجتمع؟

- من أين؟

- من الفرد نفسه، ثم الأسرة، لذلك، كوني زوجة صالحة، وأمًّا فاضلة، هذه المهمة التي تستحقُّ الإخلاص من أجلها في صُنعِ مُجتمعٍ صالح، لا المحاولات الفرديّة التي يقومُ بها البعض عبر تغريدة طائشة في تويتر لا طائل منها، أو

بلقاء تلفزيوني في سبيل الشُهرة.

وأطرق بصره هُنيهة، أمسك عن الكلام خلالها، ثم صوّب عينيه إليّ بنظرةٍ ثاقبة، ومضى يقول:

- لا يتغيّر المجتمع عبر محاولاتٍ فرديّة، لا تتعدى حدود مواقع التواصل الاجتماعي، ولا تُثير إعجاب أحد عدا متابعيكِ فقط.

جذبت كلماته انتباهي، وأذعنت أذناي إليه بتمرّدٍ، "أم كانتا قد يأستا مني!" لم أصل إلى إجابةٍ لهذا التساؤل، بيد أنّ حزمة تساؤلات أُخرى دهمت عقلي بغتة: "أكُلُّ شيءٍ في هذا البيت مرهونٌ بما خططه أبي لنا، وما نحنُ سوى أدواتٍ تافهةٍ، معدومة الحيلة يُحرّكها بيديه كيفما شاء! أكُلُّ الخيارات المتاحة، هي في الأصل مفروضةٌ علينا! ألا يُمكننا حقًّا اختيار ما ليس متاحًا بقائمةِ الخيارات الخاصّة بأبي!" وخالجني لبرهةٍ من الزمن شعورٌ بالتيه، والإعياء.

وفي خضمِ هذه التساؤلات، كان هاتفه قد رنَّ بغتةً، فحوّله إلى صامت في الحال عبر ضغطةٍ سريعة على جانب الهاتف، ثم قلبه على وجههِ، بعد أن خطف بصره اسم المتّصل، وطلب مني قبل أن ينهض إلى خارج الغرفة:

- فكّري بكلامي جيدًا.

رميتُ عينيَّ خلفه حتى خرج من الغرفة، مُنعطفًا إلى اليسار باتّجاهِ السلّم، وترامى إلى مسمعي بعد لحظاتٍ قصيرة صوت قدميه يرتقيانِ السلّم، درجة، درجة، وبدا وقعهما لمسمعي كأنما كان مُتعجّل الخطى،

"ثمّة ضحيّة جديدة، على ما يبدو!" فكّرتُ في نفسي، ثمّ رنوتُ إلى النافذة ومسحة من التيه تكسو ملامحي، زحفت الوحدة إليَّ وكأنما نبت لها ذراعان، طوقتني بهما في عناقٍ أوجعني. أطلقتُ زفرةً عميقة وأطبقتُ جفنيّ فسقط الأمل من سماءِ الأُمنيات، برفقةِ دمعتين توسّدتا وجنتيّ، ولاح المستقبل في مخيلتي عبر صورٍ سريعة، مثل ومضاتٍ اختزلت ما ستؤول إليه حياتي، وبعد ثوانٍ فتحتُ عينيّ، كان الهلع قد أحاق بقلبي، وأقلق نبضه المنتظم، كأنما عشتُ خلال هذه الثواني المستقبل بأدقِّ تفاصيلهِ المؤلمة.

لقد تقاتلت كُلُّ الاحتمالات في مُخيلتي، بيد أنّ احتمالًا وحيدًا انتصر، كان الزواج واقعًا لا مناص منه. "فمن يجرؤ على الاعتراض في وجهِ أبي!" همهمتُ معدومة الحيلة، خائرة القوى.

وفي خضمِ الوهن واليأس اللّذينِ كانا يبتلعانني توهّجت في ذهني ذكرى، كانت مُهملةً في إحدى زوايا الذاكرة، زاد توهّجها إلى حدٍّ أنها خطفتني من اللحظةِ الراهنة، وأخذتني بعيدًا إلى زمنٍ غابر. كان عمري آنذاك لا يتجاوز التاسعة، ترجّلتُ من حافلةِ المدرسة أمشي نحو البيت، في حين طرق مسمعي بوق سيارة كان قد أطلقه صاحبها على نحو مُتقطّع، استدرتُ بجسدي إلى الخلف نصف استدارة، مُتغضنة الجبين؛ كانت شمسُ آذار تُحدّقُ إليّ مباشرةً، حجبتها بكفّي اليسرى، ولمعت تحت أشعتها سيارةٌ رياضية، حمراءُ اللون قبالة البيت، ويدٌ تمتدُّ عبر نافذتها، مُلوّحةً، وصوتًا مألوفًا لأذني يهتفُ بنبرةٍ تنضحُ بهجةً:

- حصّة.. تعالي..

- ياسين!

هتفتُ بصوتٍ تتراقصُ نبراته فرحًا، واستراحت قسمات وجهي وعلت ملامحي مسحة من البهجة. أنزلتُ الحقيبة المدرسية عن ظهري، ورميتها قُرب الباب الحديدي، ثم هرولتُ إليه بخفّةٍ بعدما تخلصتُ منها. "آه، ما أثقلها". فكّرتُ في نفسي، وتذمّرتُ في خُلدي: "كما لو كان بداخلها حجارة لا كتب دراسية".

وقفتُ بمحاذاةِ سيارته فاتحةً عينيَّ على وسعهما، أُحدّقُ إليها بافتتان، وأطلقتُ تصفيرتين، الأولى قصيرة بينما الثانية كانت طويلة، وكنتُ قد رفعتُ حاجبيَّ بإعجاب، ثم قلتُ:

- ما أروعها.
- هيا اركبي؛ وكوني أوّل الراكبين.

افترّ ثغري عن ابتسامةٍ عريضة، بيد أنّ شفتيَّ كانتا مضمومتين؛ كي لا يظهر السنّان المكسورتان في مقدمةِ فمي، ويبدو مظهري ساذجًا مثلما ظهرتُ في صورِ عيد ميلادي الأخير التي مزّقتها في حينها دونما تردد، وكأنني بذلك محوتُ الذكرى من ذاكرةِ الوجود برمّتها.

- يا لرائحتها الطيبة.

علّقتُ بعد أن ملتُ بجسدي واستنشقتها، ثم جلستُ بداخلها فشعرتُ للوهلةِ الأولى أنني أحد الأقزام السبعة، أفلتت منه قهقهة مُتقطّعة، قصيرة، ثم ردّ:

- لا رائحة تُضاهي رائحة السيارة الجديدة.

ثمّ ضغط على دوّاسةِ البنزين، بعدما أغلقتُ الباب برفق، فانطلقت السيارة مسرعةً مثل طلقةِ رصاصة عبر فوّهةِ مسدّس.

لا يزال شعار الكورفت يتلألأ في ظلمةِ ذاكرتي، لكن أُمنيتي المتوّهجة بأن أحظى بمثلها عندما أنال رخصة القيادة، كانت قد انطفأت ودُفنت في مقبرتي العيب والحرام، مثلما دُفنت باقي الأُمنيات التي راودتني في صغرِي، فقيادة المرأة في عرفِ العائلة تسيء لسمعتها، كأنما سُمعةُ العائلة هشّة إلى حدٍّ تخدشها قيادتي للسيارة. ما زالت ترنُّ في أُذني عبارة أبي الشهيرة: "القيادة لا تليقُ بالنساء البتة، والكورفت تحديدًا لا تقودها امرأة مُحترمة".

ومضت شاشةُ هاتفي، مُصدرًا تنبيهًا عبر اهتزازٍ خفيف لاستقبالِ رسالةٍ نصيّة، وأعادتني بذلك إلى اللحظةِ الراهنة، تلاشت الذكرى طاويةً صفحة الماضي إلى إشعارٍ آخر. أطلقتُ تنهيدةً عميقة، مليئة بالخيبة، ثم أرخيتُ بصري نحو الهاتف بنظرةٍ واهنة، بيد أنّ عينيّ اتّسعتا مشدوهتين؛ عندما تجلّى اسم المرسلة على الشاشة، دعكتهما غير مُصدّقةٍ ما أرى، خلتُني أحلمُ للوهلةِ الأولى!

- سُعاد!

قلتُ بدهشةٍ. كان قد مضى زمنٌ طويل على لقائنا الأخير. "أعامٌ مضى حقًّا!" سألتُ نفسي، وقد خيّم عليَّ إحساسُ شوقٍ وارتباك.

تأملتُ شاشة الهاتف هُنيهة، ثم تناولته وأمعنتُ النظر في رسالتها: "هل أنتِ بخير؟" حدّقتُ بكلماتها مبهوتةً، ترددت أصابعي بالنقرِ على لوحةِ المفاتيح برهةً وجيزة، ثم نقرتُ كاتبةً: "رسالتكِ أثارت حفيظتي، ما الأمر يا سُعاد؟" ردّت بعد لحظةٍ قصيرة: "لقد حلمتُ بكِ حلمًا مرعبًا، قذف القلق في نفسي". قرأتُ رسالتها، وطافت بجسدي على نحو مباغت قشعريرة عابرة، خفق قلبي مُنقبضًا، وتغضّن جبيني، ثم

أعقبت رسالتها برسالةٍ أُخرى قبل أن تلمسَ أصابعي الشاشة: "حلمتُ بأنكِ مُقيّدةٌ بسلاسلٍ جمّة، على قمّةِ جبلٍ شاهق، تُطلقين صرخات استغاثة بيد أنها صرخات يائسة، لا طائل منها، وحولكِ أفواجٌ من الناسِ يطوفون، مُطلقين همهمات مُبهمة، كأنها طلاسم أو صلاةٌ ما في ديانةٍ اندثرت منذُ سالف الزمان. كانت أشكالهم بدائية؛ شعورٌ مُجعّدة، وعيونٌ مُحملقة، وأسنانٌ ناتئة، وأبدانٌ ضخمة غير مُتناسقة، مُغطّاة بجلودِ حيواناتٍ قصيرة، كقبيلة أفريقية انقرضت منذُ قرون خلت، وكنتِ على قمّة الجبل كقربانٍ لآلهتهم المزعومة". وأضافت برسالةٍ أُخرى: "بعيدًا عن كُلِّ الخلافات التي بيننا، لا بُدَّ أن ألتقي بكِ حالًا". أجبتها بلا تردد بعدما دلفتُ إلى تطبيق "واتس أب" ورفعتُ عنها الحظر، نقرتُ على شاشةِ الهاتف بأصابعٍ مرتعشة: "وأنا بحاجةٍ ماسّة إلى هذا اللقاء، مسافة الطريق وأكون في غرفتكِ المطلّة على الحديقة".

ثم نهضتُ ساخطةً من مجتمعٍ ذكوري، لا ينفكُّ يظلم المرأة كلما سنحت له الفرصة، أخذتُ شهيقًا ملء رئتيّ، حاولتُ قدر المستطاع كظم غيظي عبر شهيقٍ آخر، وخطوتُ خارج غرفةِ المعيشة أمشي إلى المطبخ، كانت أمي هناك. لا تزال؛ حيثُ اعتادت تجهيز وجبة الغداء في وقت مبكر من النهار، تقدّمتُ نحوها ببطء، ثم طبعتُ قبلةً على جبينها بغنج، قائلةً بصوتٍ تضوعُ منه رائحة المسؤولية:

- دعيني أُساعدكِ، لا بدّ أنكِ مُتعبة.

حملقتْ إليّ وقد تجمّدت ملامحها هُنيهة، ثمّ استغرقت في الضحك، وتساءلت بنبرةٍ ساخرة:

- حمد مُحتال، ها!

شزرتها زامّةً شفتيَّ، مُتغضنة الجبين، ثم سألتني بعد أن استأنفت طهو الطعام:

- اعترفي يا حصّة، ما الهدف من هذه القبلة المفاجئة؟

أطرقتُ رأسي، وانسدلت خصلةٌ مُلتوية من شعري، دفعتها بأصابعي خلف أُذني، ثم أجبتها وعيناي تروحانِ يُمنةً ويُسرة:

- أريدُ الذهاب إلى زيارة سُعاد.

- سُعاد!

- نعم، سُعاد.

- ألم تكونا...

- لا، لم نكن.

وصوّبتُ بصري إليها بنظرةِ رجاءٍ بيد أنها بدت بائسة، بادلتني النظرة ذاتها لكن مسحة من الشفقة اعتلت وجهها، وبعد برهةٍ من الزمن أومأت موافقةً. ارتميتُ بحضنها امتنانًا، ثم استدرتُ إلى بابِ المطبخ الخارجي، دنوتُ منه بقفزتين أدورُ حولَ نفسي مثل رقصةٍ من رقصاتِ الباليه، ملتُ بجسدي أنادي على السائق بملء حنجرتي:

- محمد.

لم يُجب! رفعتُ حاجبيّ باستغرابٍ، ثم عقدتهما وندهتُ مرّة أُخرى، فأجابني أبي وكان قد دلف للتو:

- لقد أرسلته إلى السوق.

أدرتُ وجهي نحو أمي، مُتغضنة الجبين، وسألتها بصوتٍ يملؤه الاستفهام:

- وكيف سأذهب إلى سُعاد؟

- انتظري محمد يعود...

قاطعها أبي واللامبالاة تضوعُ من نبراته:

- قد يستغرقُ ساعة وربما أكثر؛ فقد أرسلته إلى سوق الفاكهة بمنطقةِ كبد.

حدّقتُ إلى أمي مضيقّةً حدقتي عينيَّ، مُقطّبةً حاجبيَّ، زامّةً شفتيَّ، بيد أنّ أمي تحاشت النظر إليَّ، وأرخت بصرها إلى الأرض، وظلّلت وجهها غشاوة من الوهن. رحتُ أُفتّشُ عن حلٍّ لهذه الورطة، إلا أنّ الحلول توارت مرعوبةً من أبي. زفرتُ زفرةً طويلة، وكان هذا أقصى اعتراض يمكن بلوغه أمام أبي، وبينما كان القنوط يزحفُ إليَّ مثل أفعى غدّارة، طرق مسمعي صوتٌ هاتفٌ تتسيّده الثقة:

- لا داعي للقلقِ؛ فأخوكِ دائمًا بالخدمة.

واستطرد بعدما دنا قربي، وربّت على كتفي:

- هيّا جهّزي نفسكِ.

"حمد!" هتفتُ في خلدي، وقد رنوتُ إليه بنظرةٍ بلهاء؛ لم أكن مستوعبةً ما سمعته، "حمد يعرض خدماته!" فكّرتُ في نفسي، وفي غضونِ ذلك، ضرب كفّيه ببعضهما وصاح:

- هيا، هيا، أسرعي، قبل أن أُغيّر رأيي.

هززتُ رأسي كما لو أنني أنفضُ شيئًا ما علق بشعري، وفي الوقتِ نفسه أستوعب ما يحدث، ثم عدوتُ إلى غرفتي مثل عداءةٍ مُحترفة، وقفزتُ فوق السلالم بحركةٍ بهلوانيّة رائعة، وأنا أصرخُ بصوتٍ يرتعشُ فرحًا:

- انتظرني، دقائق وأكون جاهزة.. لن أتأخر.
- لا تقلقي، سأكون بانتظاركِ في السيّارة.

- 4 -

خرجتُ من البيتِ وشعرتُ بجسدي يتنفّسُ حُريةً بيد أنّها مُقيّدة؛ فالحرية المحاطة بخطوطٍ حمراءٍ كثيرة والمسقوفة بقوانين جمّة، لا تُعدُّ حريةً البتة، إنما هي سجن يولدُ به الإنسان إذا ما خرج من رحمِ أمّه أنثى!

اقتربتُ من سيارة حمد، توقفتُ هُنيهةً، أدرتُ جسدي إلى الخلف، وألقيتُ بصري إلى البيت بنظرةٍ خائرة، راودتني أُمنيةٌ عابرة: أن أستيقظ ويستحيلُ واقعي إلى كابوسٍ مزعجٍ وحسب. ثم أرخيتُ عينيّ إلى الأرض، وعندما أدركتُ حماقة أُمنيتي افترّت شفتاي عن نصفِ ابتسامةٍ شاحبة.

ركبتُ سيارته وتفحّصتها ببصري للحظةٍ، ثم تساءلتُ مُتهكمةً:

- تترك الفيراري في الكراج، وتقود هذه الخردة!

غرق في الضحك ثم أجابني مُتنمّرًا تنمّر الذكور البائس في حقيقته، والذي سئمتُ منه:

- مَن لا يعرفُ الصقر...

وترك جملته مفتوحة كأنما ألقى بي خلال هذه العبارة في زاويةٍ حرجة، بيد أنني أراه قد زج نفسه فيها عندما ازدريتُ ذوقه. أدار المحرك فزأر مثل ذكرٍ هائجٍ، يفتقر إلى المنطق في كلامه، فيلجأ بكل يأسٍ إلى الصياح مثل الديكة. ثمّ حدجني بنظرةٍ ثاقبة، وضرب على المقود بيمينهِ بقوّة قائلًا بملء صوته كأنما يريد دعم ذوقه بمنطق الذكور:

- هذه ألينور يا حصّة ليست موستنغ فحسب، وهي تُساوي ألف فيراري.

ثم أطلق قهقهة تفوحُ منها رائحة الذكور، دارى بها ذوقه الرديء. وكان صوت المحرّك صاخبًا إلى حدٍّ اضطرّنا للحديث بملء حناجرنا، كما لو كنّا نتحدثُ عبر مكالمةٍ دوليّة في سبعينياتِ القرن الماضي.

أشحتُ وجهي ومسحة من التجهم تغشو ملامحي، ثم رفعتُ بصري إلى الأعلى عبر النافذة، كانت السحب تعوم في السماء، كأنما ترسمُ لوحةً فنيّة، تُدعى الأمل. والشمس قد توارت خلفها، بيد أنّ أشعتها تسرّبت في لوحةٍ فنيّة أُخرى، تُدعى التمرّد.

وفي تلك الأثناء كان حمد يضع على عينيه نظارته الشمسية مُتباهيًا بالعلامة التجارية المطليّة بالذهب على طرفيها، وكان اسم الشركة المصنّعة، المطلي بالذهب كارتيير، يتلألأ تحت أشعةِ الشمس، وعندما بلغنا ناصية الحي، سألني مُستفسرًا:

- في الحق، مَن هي صديقتكِ التي تودّين زيارتها؟
- سُعاد.
- سُعاد!

وخلع نظارته مُحملقًا إليّ وقد اتّسعت عيناه، ثم سألني:

- أوَلم ينشب بينكما خلاف؟

تسرّبت من حنجرتي آهةُ ضجرٍ قصيرة. "لقد تكرر هذا السؤال أكثر مما يُحتمل"، قلتُ في خلدي، لكنني أجبته على أيةِ حال بنبرةٍ هادرة:

- لم يكن خلافًا بل كان اختلافًا بسيطًا في وجهات النظر، كما أنّ علاقتنا لم تنقطع يومًا.

- لماذا إذن لم تتبادلا الزيارات طوال هذه المدة؟

تلعثمت الإجابة الحقيقية على شفتينِ كانتا تبحثانِ عن كذبةٍ ما:

- أأ... لأني...

كرر ضحكته الذكورية المستفزة مرّةً أُخرى، فقاطعته في الحال، بتساؤلٍ ساخر، وقد بلغتُ أقصى حدود السأم من تنمّرِ الذكور:

- بحقِّ الله، أنحنُ في جلسةِ تحقيق!

وأضفتُ بعدما تقلّصت المسافة بين حاجبيَّ:

- أعتقدُ بأنك ستُفلح إن عملت محققًا في سلك الشرطة.

وأفلتت مني قهقهةٌ تشفُّ عن ازدراءٍ صارخ، ثم أدرتُ وجهي نحو النافذة مرّةً أُخرى، ورفعتُ بصري إلى السماء من جديد، أحدّقُ بالسحب، كانت قد ازدادت، وأعلنت الشمس خضوعها وتراجعت كل أشعتها المتمرّدة بخيبةِ أملٍ شديدة.

"لم يكن خلافًا بل كان اختلافًا بسيطًا في وجهات النظر". أعدتُ تكرار الجملة، لكن في خلدي، ومسحة من الأسى طافت بملامحي، ثمّ فرّت ذكرى كانتُ حبيسة في ذهني في منطقةِ النسيان طوال العام

المنصرم، حاولتُ حبسها مجددًا بيد أنها أعلنت عن عصيانها بانتفاضةٍ هزّت ذاكرتي، وأعادتني عامًا إلى الوراء.

كان الشتاء قد حلّ منذُ ثلاثةِ أشهر، والسماء ازدحمت بالسحب إلا أنها لم تُمطر بعد؛ بدت سحبًا عابرة مثل طيورٍ مهاجرة. كنّا جالستينِ قرب النافذة المطلّة على الحديقة، في بيتها. حين أدرتُ وجهي نحوها قائلةً بصوتٍ يشوبُ الفخر نبراته، مادّة ذراعي نحوها، مُحتضنة الهاتف بكفّي:

- انظري إلى الحوار الذي دار بيني وبين هذه المسكينة؛ لم تستطع مجاراتي.

لم تُكلّف نفسها حتى عناء النظر، وأجابت بنبرةٍ تهكمية:

- يا لغرورك، ما الذي يجعلكِ واثقة إلى هذا الحد أنها لم تستطع مجاراتكِ؟

- انسحابها من الحوار.. انظري.

وكانت ذراعي لا تزال ممدودة نحوها، وكان الهاتف يُنيرُ وجهها بشاشته المضاءة، بيد أنها لم ترنُ إلى شاشةِ الهاتف لحظةً، وكان بصرها مصوّبًا نحو الحديقة طوال الوقت. قالت بصوتٍ ينضحُ استفزازًا بهدوئه:

- من المحتمل أنها تجنّبت الحوار معكِ عندما أدركت أنه أضحى حوارًا عقيمًا.

- عقيم! كان المنطق بنفسه يُصفّقُ لي.

- وكيف نُحدد مَن منكما كان منطقيًّا أكثر من الآخر؟

- لم تولد أفكاري من الخواء يا سُعاد، بل هي نتاج قراءات كثيرة...

قاطعتني ضاحكةً:

- وربما تكون قد قرأت ضعف ما قرأتِ.

ثم سألتني بعدما ازدردت ريقها، وكانت عيناها تتفحّصانِ طلاء أظافرها الفاقعُ احمرارًا:

- لكن السؤال الذي يُراودني حقًّا، ما الذي تُريدين إثباته لنفسكِ من هذا الحوار؟

- لا شيء؛ فلستُ بحاجةٍ إلى إثباتِ أي شيء.

- لماذا إذن تخوضين هذه الحوارات من الأساس؟

أطرقتُ رأسي هُنيهة، أبحثُ عن إجابةٍ شافية، وتنهيدة مُقتضبة قد تسرّبت من بين شفتيّ، ثم رفعتُ رأسي ورنوتُ إليها، وأجبتها بلهجةٍ دفاعية:

- جُلّ ما أسعى إليه هو نشر الوعي بين الناس، ونفض هذه الخُرافات من عقولهم؛ كي يروا الحياة بصورةٍ أوضح.

- ربما تكون خُرافات من وجهةِ نظركِ، بيد أنها حقائق ثابتة في الوقتِ ذاته من وجهةِ نظرٍ أُخرى.

"أتتعمدُ إغاظتي؟" سألتُ نفسي، ثم شزرتها مضيقةً حدقتي عيناي، لكنها مضت بكلامها بالنبرة التهكمية ذاتها:

- كلنا نسعى خلف الحقيقة، لكن مَن منّا يمتلكها؟ أنتِ!

ثم تناولت فنجانها من فوق المنضدة، وخيّم السكون برهةً من الزمن، رشفت رشفة منه ثم أعادته إلى مكانه فوق المنضدة، وواصلت:

- لكُلٍّ منّا مصادره الخاصّة في البحثِ عن الحقيقة، فما الذي يجعل مصادركِ هي الأصدق عدا أنها مصادركِ؟

- لأنني أبحثُ بكُلِّ صدقٍ...

- آه، حصّة، الجميع يزعمون ذلك.

قاطعتني بازدراءٍ صارخ، وأضافت بنبرةٍ تضجُّ بالغرور بعد أن ملأت رئتيها بالهواء، ثم أفرغتهما دُفعةً واحدة على نحو يوحي بالتهكم:

- في الواقع أنتِ عبارة عن ردّ فعلٍ ناجم عن التشدد الديني في أُسرتكِ فحسب.

ثم ربّتت على كتفي بشفقةٍ أثارت حنقي، واستطردت:

- ويستحيلُ لردّ الفعل أن يرتقي ليكون فكرًا.

وأمسكت عن الكلام فجأة، وفي غضونِ ذلك حلّ صمتٌ وقور على المكان، افترّت شفتاها عن نصفِ ابتسامة، ورنت إليَّ كما لو أنني ساذجة، ثم تناولت فنجانها من فوقِ المنضدة، رشفت رشفةً أُخرى على نحو يشفُّ عن انتصارٍ ما، وأعادته إلى مكانه. أدرتُ بصري عن هذا الانتصار منزعجةً، بيد أنّ الورطة كانت في أيِّ جهةٍ أُصوّبُ وجهي؛ حتى لا تفضحني ملامحي، تفصّد جبيني عرقًا، وبينما كنتُ أُديرُ وجهي يُمنةً ويُسرة مُتصنّعةً البحث عن شيءٍ ما وقع مني، سحبتُ خصلةً من شعري أدرتها حول سبابتي ثم دفعتها خلف أُذني، وكانت أنفاسي تتسابق إلى رئتيَّ، في النهاية استقرّ وجهي نحوها، مُسددةً نظرة ثاقبة إليها، عاقدةً

حاجبيَّ، في حين حاولتُ قدر المستطاع ألّا ألكمها. "ماذا أصاب لساني؟ كيف انعقد عن النطق وكان سليطًا؟" سألتُ نفسي مشدوهةً.

توارت كل الردود التي اعتدتُ أن ألجمَ بها أفواه كل مَن جادلني خلف عجزٍ لم أفهمه، وغصّت حنجرتي بجميع الكلمات التي آلفها لساني. نهضتُ بغتةً، تناولتُ العباءة وحجابي، ارتديتهما بارتباكٍ حاولتُ جاهدةً إخفاءه تحت تعابيرٍ جامدة، ثمّ غادرتُ بيتها دون أن أنبسَ ببنتِ شفة. لم تُكلّف نفسها عناء الاتصال، أو إرسال رسالة نصية تعتذر خلالها، ولم أعد بدوري لزيارتها مرّةً أُخرى.

كان وميض الذكرى قد بدأ يخبو في ذهني شيئًا فشيئًا، وشرعت رئتاي تنتظمانِ في تنفّسهما، هممتُ أُحدّثُ نفسي بصوتٍ خافت، بدا مرهقًا:

- كان اختلافًا بسيطًا في وجهاتِ النظر.

غرق حمد في الضحك على نحو مباغت، فانتفضتُ كما لو أنّ تيارًا كهربائيًا مسّني، خمد وهج الذكرى في ذهني، وعادت حبيسة في منطقةِ النسيان من جديد، وحين توقّف عن الضحك، مضى يقول ساخرًا:

- هذا واضح جدًا.

حملقتُ إليه، زامّةً شفتيَّ، بيد أنه لم يأبه وتابع مُستخفًّا بي:

- على أيّةِ حال لقد وصلنا، هيّا ترجلي. اذهبي إليها وتصالحا.

تغضّن جبيني، وضاقت حدقتا عينيَّ، فاستدرك على الفور مُطلقًا قهقهات مُتقطّعة، كانت مثل فواصل بين كلماته:

- أقصد، تبادلا وجهات النظر، لكن، دون اختلاف هذه المرّة.

وختم قهقهاته بابتسامةٍ عريضة، إلا أنّ شفتيه بقيتا مضمومتين. ترجّلتُ من السيارة واللامبالاة قد نفضت ملامح الامتعاض عن وجهي، واستوطنته. "التجاهل هو الحل"، اعترفتُ لنفسي، ثم ودّعته بصوتٍ تخلو نبراته من أي شعور:

- مع السلامة.
- مع السلامة.

- 5 -

دلفتُ إلى بيتها مُضطربة الخُطى، مُشوّشة الذهن، أزدردُ ريقي ببطء، وأرمي بصري يُمنةً ويُسرة مُتفحّصةً مدخل البيت، "بدا مختلفًا"، فكّرتُ في نفسي، ثم تساءلتُ: "أثمة طاولةٌ جديدة، أو لوحةٌ ما!". وبعد لحظةٍ وجيزة همستُ بصوتٍ رخيم:

- آه، إنها نبتةُ الصبّار.
- أهلًا بالغالية.

هتفت سُعاد وتوهّجت بصوتها نبرةُ فرحٍ رقيقة، مثل ضوء شمعة. كانت تهبطُ السلالم، مُرتديةً فستانًا حليبيًّا، مورّدًا بورودِ التوليب، وكانت ركبتاها نضرتين مثل قمرين مضيئين في ليلةٍ ظلماء، وبدت بقوامها المتناسق وكأنما سقطت من مجلّةِ أزياءٍ عالمية. استقبلتني بابتسامةٍ تجلّت خلالها أسنانها البيضاء، مصفوفةً مثل حبّاتِ لؤلؤٍ نادرَ الوجود. واصلت الترحيب، وثمّة بريقٌ لمعَ في عينيها عندما وقع بصرها عليَّ. "أتُراها نسيت ما حدث بيننا أم تجاوزته!" تساءلتُ في خلدي مُتوجّسةً.

تقـدّمت نحـوي باسـطةً ذراعيهـا النحيلتـين، وعـانقتني عناقًـا هـزّ الشوق الراكد في أضلعي، وتغلغل عطرهـا الفرنسـي الثمين إلـى أعمـاقِ رئتيّ، فتدفّق الحنينُ في أوردتي بقوة، وطوّقتها بكلتا ذراعيّ كما لـو كـان هذا هو العناق الأخير.

ثـمّ رنـوتُ إليهـا أتفحّـصُ ملامحهـا، كـان وجههـا علـى عهـدي بـه، يصـرخُ حُسـنًا. أنفهـا المسـلول كسـيفٍ عربـي أصـيل، وعيناهـا الواسـعتان، الناعسـتانِ، ترنـوانِ إلـيَّ بنظـرةٍ تشـفُّ عـن شـوقٍ أضـناها، افـترّت شـفتاها المملوءتـانِ، كمـا ينبغـي لشـفتي الأُنثـى أن تكونـا، عـن ابتسامةٍ أزاحت بها كُلَّ همومَ حياتي، ثم أطرقتُ رأسـي هُنيهـةً، وتمتمـتُ في خلدي نادبةً: "لتذهب إلى الجحيم كُلَّ النقاشات التي تنتهي بعداوةِ الأصدقاء".

تابعتْ والحفاوة تنبعثُ من نبراتها:

- لم تنيري البيت بهذه الزيارة وحسب بل أنرتِ الحي بأكمله.

أسفرتُ عن أسناني عبر ابتسامةٍ عريضة، ومسحة من الحياء ورّدت وجنتيَّ، ثم قلتُ بصوتٍ رقيق، حاق به الخجل:

- إنما هو مُنيرٌ بأهله.

غمـرني فـرحٌ حـدَّ النشـوة، وخـيَّم الصـمتُ برهـةً وجيـزة، تجمّـدت خلاله الحياة برمّتها، كأنما الكـون كـان يُدوّن هـذه اللحظـة في سـجلاته، وبعدما فرغ حرر الحياة من قبضةِ الصمت. أمسكت بيدي بعد أن طبعت قبلة على خدّي، وقادتني إلى الغرفة المفضلّة لديها، كانت تخبرني عن.. في الحق، لم أسمع كلمة واحدة مما قالت من شدّةِ الفرح.

جلستُ قُرب النافذة المطلّة على الحديقة، فيما كانت سُعاد تُحضّر القهوة بنفسها، رنوتُ إلى الحديقة بعينين مفتونتين، وقلبٍ يتجرّعُ الفرح نبضةً تلو الأُخرى، خيل إليّ للحظةٍ أنّ الورود المرصوصة على جانبي الحديقة تُلوّحُ لي عبر تمايلها مع الريح بتحيّةٍ ما، كما أضافت النخلات العشر المنتصبة في المؤخرة مثل جُندٍ في موكبٍ ملكي شيئًا من الوقار على المكان، وكان إصرار العشب الأخضر على النمو بين البلاط عند المدخل، ملهمًا كفاية للتّشبثِ بالأمل بعدما اندثر بين الركام، وكان لخريرِ الماء المتدفق من النافورة - أندلسية التصميم - في منتصفِ الحديقة إيقاعٌ موسيقيٌّ مُتناغمٌ يدعو إلى الاسترخاء، ثمّ تعالت أصوات العصافير في زقزقةٍ تبعثُ في النفسِ المتوجّسة السَّلام.

وعلى نحوٍ مفاجئ رعدت السماء رعدًا مدوّيًا، ومضت لحظةُ سكونٍ عابرة، حتى شرع المطر يهطلُ بغزارةٍ، كأنما هي إشارة من السماء على مباركتها لهذه الزيارة التي طال انتظارها.

في هذه اللحظة قدّمت لي سُعاد كوبًا من القهوة، ومضت تقول:

- تذوّقيها وقولي رأيكِ بكُلّ صدق.

ثم استرسلت بحماسةٍ:

- لقد اشتريتُ البُن غير المطحون، وآلةٌ جديدة لصُنعِ القهوة، هي الآلة ذاتها التي تستخدمها المقاهي ذائعة الصيت.

لكُلٍّ منّا شغفٌ ما، وكانت القهوة بأنواعها المختلفة هي شغفها الذي لا ينضب، كانت قد بدأت شغفها بركن صغير في زاويةِ غرفةِ

المعيشة قبل ستة أعوام، وانتهى بها المطاف إلى تحويل إحدى غرفِ البيت إلى مقهًى مُصغّر قبل عامٍ ونصف العام.

تناولتُ الكوب بيميني، قرّبته إلى أنفي أولًا، أطبقتُ جفنيّ واستنشقته، ثم رفعتُ حاجبيّ بعد أن فتحتُ عينيَّ إعجابًا برائحتها، ثمّ رشفتُ رشفةً واتّسعت عيناي افتتانًا، وتسارعتُ في رشفةٍ ثانية في الحال، وثالثة، حتى تمكّن الكافيين مني، وانتشر في جسدي كله، وتربّع في ناصيةِ دماغي، وقلتُ بعدما ازدردتُ رشفةً أُخرى:

- ليس لطعمها مثيل، كأنها تُحاكي الروح.

أشرق وجهها بابتسامةٍ بعد أن كان غائمًا بالترقب، ثمّ تناولت كوبها وجلست قربي، رنت نحو الحديقة هُنيهة، ثم رشفت رشفةً وسألتني:

- أخبريني عن حالكِ؟ فلا أعتقد بأنني حلمتُ بكِ عبثًا!

تسرّبت من جوفي آهةً مُقتضبة، اختزلت كل الوجع القاطن في أعماقي، ثم أجبتها:

- حالي! من أين أبدأ يا سُعاد، وكُلُّ حلمٍ راودني دهسته ذكورية المجتمع، ونالت منه فحولتهم المشوّهة.

وأشحتُ وجهي نحو النافذة مُقطّبةً حاجبيّ، كان السخط في داخلي يتغذّى على مشاعري المضطربة، "آه، ثمّة بركانٌ في أعماقي يوشك على الانفجار". غمغمتُ في خلدي، وفي هذه اللحظة كان عطرها الفرنسي الثمين قد داعب أنفي، كانت سُعاد قد دنت مني، ربّتت على كتفي، وبنبرةٍ دافئة، مليئة بالحب، قالت:

- ابدأي أنّى شئتِ، وأفرغي وجعكِ ما استطعتِ، فما دعوتكِ إلى منزلي إلا كي أسمعكِ.

انتصبتُ أمام النافذة أحتضنُ كوب القهوة بكلتا يديّ، ورميتُ بصري نحو الورود في الجانب الأيمن من الحديقة، كان المطر لا يزال يهطل بالغزارةِ ذاتها، كأنما يعزفُ بطريقته الخاصّة سيمفونية بيتهوفن الخامسة، ضربةُ القدر، بيد أنّها لم تكن تُعزف بآلات موسيقية إنما بأصواتِ الطبيعة، ما جعل منها حقيقية أكثر، حاق الوهن بركبتيّ بغتةً فاتّكأتُ بكتفي اليسرى على زجاجِ النافذة، وكان ذهني المرهق قد تعطّل عن التفكير من فرطِ القلق، وأعصابي على حافّةِ الانهيار، وراح صدري يرتفعُ ويهبط مع كُلِّ نفسٍ ألتقطه، تقلّصت عضلاتُ وجهها عندما زممتُ شفتيَّ بقوة، مضيقةً حدقتي عينيَّ، واستطردت بصوتٍ يشوبه القلق:

- ينبثقُ الهمُّ من عينيكِ الغائمتينِ بالكرب على نحو لم أشهده من قبل.

ثم تخلّت عن كوبها فوق المنضدة، وتضوّعت رائحةُ القهوة في الغرفة كلها، كأنما قد تمرّغت في البُن لأسابيعٍ طويلة، ومضت في كلامها:

- ماذا أصابك؟ ما الذي أخمد الثائرة المتمرّدة؟

أجبتها وقد تدفّق الكلام من بينِ شفتيّ الملطختين بأحمرِ الشفاه، مثلَ سيولِ أمطارٍ تجرفُ كل ما تلقفه في وجهها:

- لم تعد شخصيّةُ الثائرة تقطنُ ذاتي؛ بعد أن اعتقل أبي تمرّدي، صودرت رغباتي كلها، وبات الحقد ينهشُ قلبي، ويستحوذُ على عقلي.

ثم أدرتُ جسدي نحوها وتابعتُ بأعلى صوتي المضطهد، حتى كادت تتمزّقُ حبالي الصوتيّة:

- أشعرُ بالضعفِ يا سُعاد، لقد جُرّدتُ من كُلِّ شيء، وفُرضت عليَّ حياةٌ جديدة، حياةٌ اختارها أبي...

وملأتُ رئتيّ شهيقًا عميقًا، وواصلتُ في حين اغرورقت عيناي بالدموع، واغتالت رعشة خفيفة أطرافي:

- حياة لا تُلائمني البتة، والزواج من فهد، هذا المتخلّف، بات في حكمِ المؤكد، قدرًا لا مناص منه، إني أختنقُ يا سُعاد كلّما لاح في مخيلتي المستقبل الذي فرضه أبي.

ومضي الدمع في سبيلهِ، يفرُّ من مقلتينِ احمرّتا نحيبًا، لم تتباطأ سُعاد وطوّقتني بكلتا ذراعيها في عناقٍ طويل، ثم همست ونبرةُ الودِّ تقرعُ طبلة أُذني برفق:

- ابكي يا حصّة؛ فالبكاء يُحرر المرأة من أوجاعها، ابكي.

أجهشتُ في البكاء مثل طفلةٍ صغيرة، كما لو كانت بجملتها قد ضغطت على زرٍّ ما، ففُتح صنبور الدموع في مقلتيَّ، ومضت دقائق مليئة بالنحيب، حتى هبطت آخر دمعة من عيني على كتفها المتمرّغة بالدمع. رعدت السماء في هذه الأثناء مرّةً أُخرى، واستمرّ المطر بغزارته، وبعد لحظةٍ وجيزة تهكمت سُعاد كدأبها:

- إن استمرَّ المطر على هذا النحو نصف ساعة أُخرى، سوف تغرقُ الكويت بأهلها.

أجبتها بعدما انثنت شفتيَّ بابتسامةٍ طفيفة، بالكادِ أسفرت عن السنّينِ اللذينِ في المقدّمة:

- صدّقيني، هي عشر دقائقٍ أُخرى، وتغرقُ الكويت عن بكرةِ أبيها.

قاطعتني مُتنهّدةً تنهيدة طويلة، تشي عن استياءٍ شديد:

- كُلّ الدول ترنو إلى المستقبل في ترقّب، عدا الكويت تخشى أن تضيع في المستقبل، وترنو إلى الماضي في حسرةٍ.

ثم غيّرت دفّة الحديث بعدما أدارت وجهها نحوي ورمقتني بعينينِ يأكلهما الفضول:

- سمعتُ بأنّ ياسين قد عاد أخيرًا.

- ليته لم يعد.

وتابعتُ في الحال؛ عندما لاح بعينيها سؤالٌ آخر:

- لقد عاد شخصًا آخر، لا نعرفه.

- ولكن، أوَلستِ سعيدة بعودته على الأقل!

- لا؛ فلقد تخلّى عني بعزلته المزعومة؟

- عُزلته المزعومة!

وأطرقت رأسها مُتغضِّنة الجبين هُنيهةً، ثم رنت إليَّ واسترسلت:

- لقد تكبّد أخوكِ ما تكبّده من وجعٍ نهش فؤاده بعد وفاة بلقيس، وما كانت عُزلته تصنّعًا البتة، لكنها كانت فشلًا في مواجهة الواقع لوحده، وستزدادُ حالته سوءًا فوق سوء إن سمحتم له في المضي بعُزلته.

- لكن...

قاطعتني مرّة أُخرى، وشرع صوتها يفقدُ الدفء بنبرته، حتى أضحى حازمًا مثل أُستاذِ جامعة يُلقي مُحاضرة عن فيزياء الكم:

- حذارِ أن تقعي في فخِّ الغضب، ويُصبح ياسين كبشَ فداءٍ ناجمًا عن غضبكِ من أبيكِ.

وأضافت بعدما خفضت حدّة صوتها على حينِ غرّة، وتوهج الدفء في بؤبؤي عينيها:

- لا تخذليه يا حصّة، فهو بأمسِّ الحاجة إليكِ؛ أنتِ المفضّلة لديه.

أدرتُ وجهي نحو الحديقة، بحركةٍ تنمُّ عن لامبالاةٍ، وزفرتُ على أيةِ حال كل ما كان في رئتيَّ من هواء، ثم تذمّرتُ بصوتٍ تترجّح نبرته بين الاكتراث وعدم الاكتراث:

- هذا الاهتمامُ المفرط قد أفسده، فأصبح يستسلم لكُلِّ عقبةٍ تعترضُ طريقه.

افترَّ ثغرها عن ابتسامةٍ صفراء، وألقت بصرها إليَّ بنظرةٍ تشفُّ عن ازدراء، قطّبتُ حاجبيَّ، وسألتها بنبرةٍ تقفُ على حافّةِ الغضب:

- ما الداعي لهذه الابتسامة، فلا أعتقدُ بأنني قد ألقيتُ طُرفةً!

- ألستِ أنتِ الفتاة ذاتها التي اعتُقل تمرّدها، وصودرت رغباتها، وتخلّت عن شخصيّة الثائرة؟

انعقد لساني عن الكلام برهةً وجيزة، بيد أنني أجبتها بصوتٍ ينضحُ ثقةً:

- أنا هي بعينها، لكن في نهايةِ المطاف لستُ سوى امرأة في مُجتمعٍ ذكوري بائس.
- لا أختلف معكِ في هذه النقطة، بالفعل نحن نعيشُ في مُجتمعٍ ذكوري، إلا أنّ هذا لا يُبرر استسلامكِ البائس أيضًا.

ومضت تقول بعدما ازدردت ريقها:

- لكن ياسين يمرُّ في حالةِ اكتئاب ثنائي القُطب، ولا أعلم إن كان سينجو منه أم لا!

ثم أطرقت بصرها هُنيهةً، ولاح حزنٌ عميقٌ في عينيها الواسعتين، تراجعت بضع خطوات نحو المنضدة، تناولت كوبها بهدوء، رشفت رشفةً ثم حضنته بكلتا يديها، ورنت إلى الحديقة بعينين غائمتين، توقّف المطر في هذه اللحظة، وساد الغرفة سكونٌ مُهيب، أطبقتُ جفنيَّ وشرعتُ ألتقطُ أنفاسي على نحوٍ مُنتظم، شهيق، زفير، أُرتّب تداخل الأفكار في ذهني، وأبحثُ في ذاكرتي عن ذكرى جميلة أُعيدُ خلالها توازني من جديد، وبعد قرابة نصف دقيقة عثرتُ على إحدى الذكرياتِ الجميلة النادرة، وعدتُ على متنها بضع سنوات إلى الماضي.

كنتُ في غرفتي، وماريا العاملة الفلبينية في صالون التجميل الذي تملكه عمتي نورية، تضعُ على وجهي مساحيق التجميل، كانت هذه المرّة الأولى. "لكُلِّ شيءٍ مرّةٌ أولى" هكذا ردّدت عمتي على مسمعي طوال تلك الليلة. كانت الزينة تحتلُّ كُلَّ أرجاء البيت، وتنتشله من ظُلمةِ الكآبة، كان زفاف ياسين فرحةً بحدِّ ذاتها، غمرت قلوبنا البائسة، حتى العصافير فوق جذعِ النخلة بدت زقزقتها مختلفة في ذلك اليوم.

جـرت أحـداث تلـك الليـة بانسـيابيةٍ مدهشـة، كمـا لـو كانـت مشهدًا سينمائيًّا سقط من نهايةِ فيلم عربي قديم، بلقيس في فستان زفافها الأبيض أشبهُ بأميرةٍ من قصصِ الخيال، وياسين بالزي الرسمي - للمرّة الأولى - مُضحكٌ، بدا تائهًا في "البشت" الذي توارثته العائلة، لكن لم يكن هـذا بـالأمر الجلي؛ لا سيما وأنّ الفرحة كانت تتلألأ في عينيّ العريسين.

- كوني معه.

قالت سُعاد بصوتٍ متهدج، حاق بنبرتها القلق، فتحتُ عينيّ مشدوهتينِ على الحاضر، وشرع وميض الذكرى يخبو شيئًا فشيئًا في ذهني، بيد أنّ عيني العريسين بقيا يتلألآنِ في ظُلمة ذاكرتي، ثم مضت تقول:

- ربما أنتِ غاضبة فحسب، والغضب عادةً ما يحجبُ عنّا رؤية الأشياء بصورتها الكاملة.

واستدارت بكامل جسدها نحوي، رنت إليَّ وحطّت بكفّها على كتفي، ثم تابعت كلامها:

- لن تغفري لنفسكِ إن حدثَ له أي مكروه، ولن ينفعَ الندم في وقتها، صدّقيني.

ازدردتُ ريقي والذُعر استبدَّ بملامحي، "مكروه!" غمغمتُ في نفسي مرعوبةً، وبدأ قلبي يخفقُ خفقانًا عنيفًا. زحف التشاؤم إليَّ مثل ثعبانٍ ماكر ينفثُ سمومه في خلايا عقلي، نزّ العرق من جبيني قلقًا وروعًا. وبعد لحظةٍ وجيزة رفعتُ بصري إلى سُعاد وشرعت عيناي

تتّسعانِ مرتابتين، مرّت لحظةُ صدقٍ توارت خلفها مكابرتي، وتجلّى ضعفي للعيان. رمقتني سُعاد بعينينِ تكترثانِ لأمري، ثم طبطبت على كتفي برفق، ومضت تقول بصوتٍ تمتزجُ نبرة الحزم فيه بالودِّ:

- عودي إليه حالًا، لكن عودي حصّة التي فضّلها على الجميع.

حمد

"السياسة هي فن بيع الوهم للبؤساء"

- 1 -

رنَّ الهاتف بعد أن ترجّلت حصّة على الفور، كأنما كان ينتظرُها أن تترجّل، ألقيتُ نظرةً إلى الهاتف مُتفحّصًا شاشته، ثمّ تركته يرنُّ بضع مرّاتٍ أُخرى؛ عندما تجلّى اسم المتصل على الشاشة. (تنفرُ المرأة من الرجل المتاح لها في جميع الأوقات). كانت هذه المادّة الأولى من الدستور الخاص بي، (دستور العلاقات العابرة) هكذا أطلقتُ عليه، وقد أثبت فعاليته بجدارة. وبعد مضي دقائق من رنينِ الهاتف المتواصل، مسحتُ بإبهامي على شاشته غير آبهٍ، وأجبتُ بصوتٍ أجش ونبرةٍ جافّة:

- أهلًا نوف.

ردّت بوابلٍ من الأسئلة، وقد اختلطت نبرةُ الشوق والحنق في صوتها في آنٍ:

- أين كنت؟ لقد اتصلتُ بك مرارًا لكنك لم تُجب! لماذا لم تُجب؟ لماذا؟

ازدردتُ ريقي ببرود، بينما كنتُ أُخرجُ سيجارةً من علبةِ السجائر بهدوء.

- حمد، أتسمعني!

قالت، وقد انخفضت حدّة نبرتها. ثبّتُّ السيجارة بين شفتيّ، وأشعلتها، ثم سحبتُ نفسًا طويلًا، ونفثتُ سحابةً من الدخان، ثمّ أجبتها بنبرةٍ فاترة:

- آه، حقًّا! يبدو أنني لم أسمع رنين الهاتف بسبب ضجيجِ المحرك، تعرفين (الألينور) صوتها صاخبٌ جدًّا.

وسحبتُ نفسًا آخر بغيرِ اكتراث. (تنجذب النساء عادةً إلى الرجال الأكثر إهمالًا لهن). كانت هذه المادّة الثانية من الدستور الخاص بي. تقهقر انفعالها، وأفلتت تنهيدة واهنة، ثم همست بصوتٍ مُتهدج:

- آه، حبيبي، لقد اشتقتُ إليك، هذا كل ما في الأمر.

أطلقتُ قهقهةً مُقتضبة، ثم أجبتها بالنبرة الفاترة ذاتها:

- سُرعان ما اشتقتِ إليّ، ألم نكن معًا قبل يومين، أم أنكِ تخلّفتِ عن اللقاء؟

زفرت زفرةً عميقة، تضمّنت غُنجًا ممزوجًا باستياءٍ شديد، "أيتها الماكرة" هتفتُ في خُلدي، بيد أنني التزمتُ الصمت؛ وفق المادّة الثالثة (العتب بالصمت أبلغُ من الكلمات). ومَن يبدأ أولًا بالكلام يخسر المعركة حتمًا، وبعد هُنيهةٍ صمتٍ عابرة بدأت هي مُتضرّعةً حدّ الهوان:

- أُقسمُ بالله أنني لم أنوِ التخلّف عن الموعد، لكن الظروف منعتني، وأنا في غايةِ الأسف، أرجوك سامحني، لا أُحبُّ رؤيتك حزينًا.
- حزين! مَن؟ أنا! أبدًا، ولا أعتقدُ بأنّ ثمة شيئًا يستدعي الحزن.

غالبًا ما يمنحك المتوسّل سُلطةً، كأنما يضعُ نفسه تحت رحمتك. واصلت نوف تضرّعها المهين، تخلّت عن غرورها، وسقط كبرياؤها، وأضحت تزنُّ فحسب. وفي هذه الأثناء أعلن الهاتف عن مكالمةٍ أُخرى - على قيد الانتظار - أبعدته عن أُذني قليلًا، وألقيتُ نظرةً نحو الشاشة، خفق قلبي باسمِ المتّصل فزجرتها في الحال:

- كفى ثرثرةً يا نوف، دعينا نخوضُ في هذا لاحقًا؛ فأمي تتصل على خط الانتظار الآن.
- ثرثرة!

قالتها بصوتٍ تختنقُ نبرته، وأمسكت عن الكلام هُنيهةً، تنحنحت ثم مضت تقول وبدا صوتها يخرجُ مخدوشًا من الحنجرة:

- حسنًا يا حمد، حسنًا، سأقبلُ منك هذه الإهانة؛ لا لشيء إلا لأنك غاضب فحسب، سوف أنتظر منك اتصالًا عندما تهدأ.
- حسنًا.

وأنهيتُ المكالمة دون إبطاءٍ، ثم أجبتُ المكالمة الأُخرى بصوتٍ مُختلف، يتّقدُ شوقًا، أحيانًا يضعُ الرجل دستورًا للنساء، ثم يتمرّد عليه مع إحداهن، ليكتب دستورًا آخر - منافيًا للأوّل - لا ينطبق إلا على امرأة واحدة، استثنائية، وهذا ما حدث معي عندما التقيتُ مريم:

- يبدو أنّ الشوّق أحكم قبضته على قلبي، وأضحى مؤخرًا لا يحتملُ بُعدكِ لحظةً.
- آه، حبيبي، ما أوفرني حظًّا بهذا القلب.
- إن كان ثمّة محظوظٌ بيننا، فهو أنا بلا شك.

مهما تمرّدتُ على الدستور الخاص بي، وأنشأتُ آخر، بيد أنّ هنالك مادّة لا يمكن التملُّص منها، وهي بمثابة الحجر الأساس لأيِّ علاقةٍ ناجحة (الكذب). ما أروعه من اختراعٍ بشري عظيم. أطفأتُ سيجارتي في منفضةِ السجائر الخاصّة بالسيارة، واستطردتُ:

- لقاؤنا الليلة سيكون استثنائيًّا حدَّ الخيال؛ فهو عيد ميلادكِ الأوّل في علاقتنا القدرية.
- لقد فقد قلبي إيقاع نبضه من الآن، كيف إذا التقينا!
- لا تقلقي، سأُعيدُ ضبط إيقاعه من جديد، ليكون متناغمًا مع إيقاعِ نبضي، أو بمعنى آخر، سيكون نبضنا نغمةً واحدة.

دلفتُ في هذه اللحظة إلى موقف السيارات الخاص بالمشفى، وتابعتُ كلامي بينما كانت عيناي تبحثانِ عن موقفٍ أركنُ به السيارة:

- لا أودُّ للمكالمةِ أن تنتهي أبدًا، لكنني مُضطرٌّ لإنهائها؛ فقد وصلتُ إلى المشفى لزيارةِ ناصر.
- آه، صحيح، نسيتُ أن أسألك، كيف حاله؟
- الحمد لله، لقد تحسّنت حالته كثيرًا.
- حمدًا لله على سلامته، حسنًا حبيبي، اذهب إليه وسنلتقي الليلة.

- أكيد.
- إلى اللقاء يا حبيبي.
- إلى اللقاء يا حبيبتي.

(الكذب) أوّل مادّة في الدستور الخاص بها، "ينفرُ الناس عادةً من شقاء الحقيقة إلى نعيم الجهل، في الحق، للجهلِ نعيم لا يُضاهيه نعيم في الدنيا". أعترفُ بذلك.

بينما كانت عيناي تبحثانِ عن موقفٍ "للألينور" عبرت أمامي فتاة سمراء البشرة، ذات شفتين مُكتنزتين، وعينين صغيرتين، يعلوهما حاجبان نحيلان، وأنفٌ طفولي صغير، أضفى مزيجًا من براءة الطفولة وجاذبية الأُنثى. كانت ترتدي كنزة صوفية قصيرة، رمادية اللون، وجينز داكن الزرقة، تتأبط حقيبة سوداء كبيرة، كُتب على جانبها (Dior) باللون الذهبي، وبدا متناسقًا مع لون حذائها ذي العكب العالي، وكان شعرها الكستنائي، الكثيف، ملمومًا فوق رأسها على شكل كعكة صغيرة، تتدلّى منها خصلات قصيرة خلف عنقها الطويل، النحيف، وأمام أذنيها الصغيرتين، أضفت على مظهرها الأنيق مسحة من اللامبالاة. عبرت أمامي بقوامها الرشيق مثل عارضةِ أزياءٍ كولومبية.

- أعتقدُ بأنني رأيتها من قبل، لكن أين يا حمد، أين!

تساءلتُ عاقدًا حاجبي، مُنقبًا في دهاليزِ ذاكرتي، وبعد ثوانٍ وجيزة هتفتُ بنبرةِ طفلٍ عثرَ على لعبتهِ الضائعة:

- آه، فاطمة!

- 2 -

كـان ناصـر مُسـتلقيًا علـى ظهـره فـوق السـرير عنـدما دلفـتُ إلـى الغرفـة، بيـدهِ هاتفـه ويـده الأُخـرى كانـت ممـدودةٌ بمحـاذاةِ جسـده، رنوتُ إليه هُنيهةً، ثـم افترّ ثغري عـن نصفِ ابتسـامة، غمـزتُ لـه بعينـي وسألته:

- تبدو سعيدًا!

عقد حاجبيه مُستنكرًا، ثم أجاب سؤالي بسؤالٍ آخر لكن بعد بُرهـةٍ من الزمن:

- أتكرهُ أن يكون أخوك سعيدًا؟
- على العكس، يُسعدني ذلك، كمـا أرى أنـك اسـتعدت عافيتك أخيرًا، يبدو أنّ للحُبِّ قُدرةً عظيمة على الشِّفاء.
- حب! أيُّ حبٍّ هذا الذي تتحدثُ عنه؟

أخـذتُ مقعـدًا وسـحبته إلـى قربـه، جلسـتُ، وأسـندتُ ظهـري بالكامل، ثم وضعتُ قدمًا فوق الأُخرى، وبإبهامي والسبّابة رحـتُ أُفتّلُ شـاربي، بينمـا كنـتُ أجـولُ ببصـري في أرجـاءِ الغرفـة. بعـد ثـوانٍ وجيـزة استقرّ بصري نحوه مباشرةً، أطبقتُ جفنيّ وأخذتُ نفسًا ملء رئتيّ، ثـم فتحـتُ عينـيَّ ورفعـتُ حـاجبيَّ مبهوتًـا. دعـك ناصـر جبينـه وبـدا كأنمـا يتساءل في خلده، ثم سألني بنبرةٍ يشوبها الاستفهام:

- ما الذي تبحثُ عنه؟ أخبرني!
- تضوعُ الغرفة بعطرٍ نسائي رائع، يبـدو أنّ ذوقهـا بـالعطور راقٍ جدًا، ألا توافقني الرأي؟

تجلّت أسنانه عن ابتسامةٍ بلهاء للوهلةِ الأُولى، ثـم تلاشـت بلاهتـه عندما أدرك المعنى، وقهقه قائلًا:

- أتلاقيتما في أحد ممرّاتِ المشفى؟

أومأتُ برأسي وتشدَّقتُ مُبتسمًا، مثل مخبرٍ قبض على لصٍّ هارب بعد مطاردةٍ استمرّت ربع قرن، ثم أجبته:

- بل رأيتها في موقف السيارات، لكنها لم تتعرّف إليّ، أو هذا ما بدا لي!

رنا نحوي بنظرةٍ حاق بها الغموض برهـةً، ثـم أفصـح عـن غموضـه قائلًا:

- أعتقدُ بأنها تعرّفت إليك لكنها فضّلت تجاهلك؛ في الحق، هي لم تستلطفك منذُ اللحظة التي عرفت موقفك من حبنا.

(الحـب هـو الوسـيلة الوحيـدة للاسـتمتاعِ بالأشـياء مجانًـا). هـذه إحـدى القواعـد الـثلاث الأساسية في كتابـة أي دسـتور. قهقهـتُ قهقهـةً مُقتضبة، وعقّبتُ:

- وما هو الحب يا أخي سوى شخصٍ يكذب، ومُغفلٍ يُصدِّق!

ردّ مشدوهًا:

- أتراني كاذبًا!

- لا يا أخي، في حالتك هذه.. أنت هو المغفل.

ثم هتفتُ بصوتٍ صاخب، بعـدما نهضـتُ وملـتُ بنصـفِ جسـدي الأعلى نحوه حتى التصق فمي بأُذنه:

- اصحى!!!

وعدتُ على الفور إلى المقعد أجلسُ من جديد، واضعًا قدمًا فوق الأُخرى، أُفتّلُ شاربي، ومضيتُ أقول بهدوء:

- الحب وسيلة لا غاية.

- وسيلة! وسيلة إلى ماذا؟

سأل باستغراب، مُقطّبًا حاجبيه، إلا أنني أجبتُ غير مُكترثٍ لمشاعره:

- إلى الزواج منك؛ فأنت عريس لا تحلم به، لا سيما وأنك تنحدر من سلالةٍ عريقة، بينما هي...

وتركتُ جملتي مفتوحة، أدار وجهه إلى الجهةِ الأُخرى، مُتغضّن الجبين، "الحقيقة بشعة على الدوام" فكّرتُ في نفسي، وما هو الكذب سوى مُخدرٍ مصيره إلى الزوال. "آه، كم أفسدتك أفلام شاروخ خان" تذمّرتُ في خلدي مُتحسرًا على سذاجته. رنا إليّ مرّةً أُخرى، مُتجهّمًا، وقال بغلظة، بعد أن سافر ذهنه في فضاء الصمتِ هُنيهة:

- أنت رجل ذكي، لكن حياتك مليئة بالتّفاهة.

أسندتُ ذقني بين راحتيّ، واتّكأتُ بمرفقيّ فوق ركبتيّ، ثم ألقيتُ بصري نحوه بنظرةٍ مُتفحّصة، مضت عشرُ ثوانٍ من السكون، أُعدتُ خلالها ترتيب الأفكار في عقلي، ثمّ قلتُ بصوتٍ مُتّزن النبرة:

- بعد عامٍ من الآن، وتحديدًا بعد زواجك من ابنةِ عمّك، ستُدرك وقتها أنك كُنت مُتمرّغًا حتى المنكبين في وحلٍ من التّفاهة بيد أنك أطلقت عليه مسمّى آخر، الحب.

اتّسعت عيناه في الحال، ثم سألني ومسحة من الدهشة اعتلت وجهه:

- ألا تؤمن بالحب؟
- بلى، لكن الحب في مفهومي أعمقُ من هذه العلاقات المشبوهة.
- علاقات مشبوهة!

وأمسك عن الكلام بغتة، زمَّ شفتيه ثم أشاح ببصره يرنو نحو الفراغ، بعدما نفدت كل الحجج - على ما يبدو - التي حفّظته إياها فاطمة، هذه المخادعة، التي تسعى إلى حياةٍ أفضل مُستغلّةً سذاجته، وقلّة خبرته مع النساء.

تناول هاتفه وراح ينقرُ على الشاشة بأصابع بدت متوترة، على الأرجح كان ينقلُ إليها الأخبار أولًا بأوّل، ثم وضعه فوق المنضدة، وشرع يقضمُ أظافره، وعيناه تجولانِ في أرجاء الغرفة، كأنما ينتظرُ حجّةً من فاطمة، يقصمُ بها ظهر المنطق. استفحل الصمت في الغرفة في هذه اللحظة إلى حدٍّ أزعجه، وبعد قرابةِ نصف دقيقة سألني على حينِ غرّة:

- حسنًا، أصدقني القول، ما الذي جذبك إلى السياسة؟

"اللعنة، لقد قفز إلى موضوعٍ آخر قفزة جبانٍ يتهرّبُ من المواجهة". فكّرتُ في نفسي. "سأُجاريه". قلت في خُلدي، وأجبته في سرّي أولًا: "المال والسُلطة". بيد أنّ إجابةً مثل هذه لا يُصرّحُ بها للملأ، لا سيما لمن هم على شاكلةِ ناصر، الذين يتشدّقون بشعاراتٍ مثالية حدّ الاشمئزاز، شعاراتٌ يستحيلُ تطبيقها على أرض الواقع. تنحنحتُ ورحتُ أُفتّلُ شاربي، وأُحدّقُ إليه. ضاقت حدقتا عينيَّ، واختلقتُ إجابةً أخرى مُزيّنة بالمثالية:

- لم تجذبني السياسة يومًا، لكنني أُحاول إنقاذ ما يُمكن إنقاذه.

اتّسعت عيناه دهشةً، ثم تساءل بنبرةٍ يشوبها الذهول:

- أحلمٌ هذا أم حقيقة!

وواصل مشدوهًا:

- أيعقلُ ما أسمعه!

أومأتُ برأسي بوقار شديد، وطافت على ثغري ابتسامة خفيفة بشفتين مضمومتين، أضفت على مظهري مسحة من الجدية، ثم أجبته بصوتٍ رصين:

- قد نختلف بمفاهيمٍ كثيرة إلا بمفهوم الوطنية.

فغر فاهه على وسعه برهةً وجيزة، بينما تابعتُ كلامي بالنبرةِ ذاتها:

- لقد بلغ الفساد حدًّا لا يُمكن السكوت عنه.

"المثالية، أسهلُ شركٍ يُمكن نصبه للسُذّج" تهكمتُ في سرّي، وشرعتُ أُداعبُ طرفَ شاربي بإبهامي والسبّابة، ثم استطردت بعدما ازدردتُ ريقي:

- لا بدّ من أحدٍ يتصدّى للفاسدين.

"لا، لستُ منافقًا، بل سياسيًّا" هكذا أجبتُ على سذاجة الضمير حين حاول تأنيبي. وفي خضمِ الحوار الذي امتدَّ طويلًا اهتزَّ هاتفي فجأة مُعلنًا عن رسالةٍ نصيّة، ألقيتُ نظرةً خاطفة على الشاشة أثناء حديثي، كانت مريم هي المرسلة: "لقد وصلتُ، أين أنت؟" قرأتُ رسالتها عبر الإشعارات، لم أدخل المحادثة. "سُحقًا، لقد سرقني الحوار إلى حدٍّ لم أشعر بمرورِ الوقت". فكّرتُ في نفسي، وقد تقلّصت المسافة بين

حـاجبيَّ، وقبـل أن ينـبس ناصـر ببنـت شَـفَة قاطعتـه في الحـال، بعـد أن ضربت جبيني براحةِ كفّي:

- اللعنة، لقد نسيتُ ما أوصتني به أمي.
- بماذا أوصتك؟
- على بعضِ الحاجيات من السوق.

ونهضتُ في الحال، طبعتُ قبلةً سريعة على جبينه مُتظاهرًا بالعجلة، وواصلتُ كلامي بينما كنتُ ألتقط محفظتي والهاتف من فوق المنضدة:

- أعدك في المرّةِ القادمة سوف أمكثُ وقتًا أطول.

وخرجتُ مسرعًا إلى المصعد بآخر الرواق، بيد أنه كـان مُزدحمًـا، انتظرتُ ثواني لكنني كنتُ متأخرًا كفاية، فهبطتُ فـوق السـلالـم برشـاقة. "مـا فائـدة ممارسـة الرياضـة إذن؟" سـخرتُ في نفسـي، وفي تلـك الأثنـاء كتبتُ إلى مريم: "أنا في طريقي إليكِ، لكن الشوارع مزدحمة". ثم أرفقتُ صورة كنتُ قد التقطتها منذُ خمسةِ أيام - احتياطًا لمثلِ هذه المواقـف - من زجاجِ السيارة الأمامية، يعكسُ زحمـة السيارات، ويلـوح في الأفـق البعيـد أضـواء سـيارتي إسـعاف وشُـرطة، وأضـفتُ نـاقرًا علـى الشاشـة بأصابعي: "يبدو أنّ هُنالـك حادثًـا مروّعًـا، لُطفـك يـا رب". أجابـت دون إبطاءٍ: "قُد على مهلك يا حبيبي، ولا تقلق.. سوف أنتظرك".

وصـلتُ إلـى موقـف السـيارات ألهـثُ تعبًـا. (إن صـدّقت كـذبتك، صدّقها النـاس مـن بعـدك). كـان هـذا أحـد المبـادئ الأسـاسـية في حيـاتي، ركبتُ "الألينور" ثم أدرتُ المحرك، وانطلقتُ في أقصى سرعة.

- 3 -

في غضونِ خمس عشرة دقيقة كنتُ قد وصلت إلى منطقة السالمية، وركنتُ خلف سيارتها المركونة في الساحة المجاورة، ترجّلتُ أمشي نحوها بخطواتٍ ثابتة، رافعًا صدري للأعلى.

- المسكينة، لقد انتظرتني حقًّا!

همستُ بنبرةٍ ساخرة، ثم قرعتُ بأصابعي على نافذتها برفق، فانتفضت فزعًا، ورنت إليّ بعينين قلقتين، كان وجهها غائمًا بالتوجّس، تناولت حقيبتها وترجّلت تُدمدم بعتبٍ ممزوجٍ بالخوف:

- ما هذا المكان المشبوه يا حمد!

قاطعتها بوردة توليب، كنتُ قد اشتريتها من محلِ الورد القريب من العمارة، ثم أمسكتُ يدها على الفور قائلًا:

- لا تهمُّ الأماكن التي تجمعنا، لكن المهم أن نكون معًا فحسب.

أطرقت بصرها إلى الأسفل، وقد احمّرت وجنتاها، أحكمتُ قبضتي على يدها، ثم ناولتها الوردة بيدي الأُخرى بعدما أرخيتُ بصري إلى عينيها الخضراوين. قرّبتها إلى أنفها الصغير، المدبب، واستنشقت من شذاها شهيقًا عميقًا، ثم قالت بصوتٍ عفوي:

- آه، أحبك.

كانت وردة التوليب قد أنستها القلق الناجم عن المكان المشبوه، تأبّطت ذراعي بشوقٍ حاق به رهبة المرّة الأولى. مشينا متلاصقين تحت جنحِ الظلام إلى الباب الخلفي للعمارة، كان عمود الإنارة مُعطّلًا فكادت الظُلمة أن تبتلع الطريق بأكمله، لولا ذلك النور الخافت الذي

تسرّب كبساطٍ ملكي من الباب الخلفي إلى آخر الشارع.

كان المصعد بانتظارنا عندما دلفنا، وبرغمِ إضاءته شبه المعتمة كان احمرار وجنتيها وبياض بشرتها قد توهّجا مثل شمسٍ ساعة الغروب، فلم أصمد ولثمتُ خدّها في المصعد، ترنّحت مُضطربة، ازدردت ريقها، قطّبت حاجبيها، ودفعتني ثم شدّتني إليها في ارتباكٍ مريب، ارتعشت شفتها السُفلى رعشةً خفيفة، وكان بصرها يفرُّ مني يُمنةً ويُسرةً، ويداها ترتعدان بشدّة، ثم هتفت بصوتٍ مُتهدج:

- حمد!! نحنُ في المصعد.

توقّف المصعد عند الطابق الخامس قبل أن تنهي جملتها، وطافت بجسدها - المرصوص بفستانٍ نحت مفاتنها نحتًا إغريقيًّا - قشعريرة، فور ما فُتح باب المصعد. وهبّت بوجهينا رائحةٌ عطنة انبعثت من الرواقِ المفضي إلى الشقة، كأنما ثمّة مُستودعٌ للخمور في الطابقِ ذاته. لمحتها بطرفِ عيني تلتقطُ أنفاسها بمشقّة، شدّت قبضتها المرتعدة على يدي، وكانت رجلاها تتوقفان لحظة ثم تواصلان السير لحظةً أُخرى، بيد أنها ألقت اللّوم على حذائها ذي الكعب العالي. توقّفت على حينِ غرّة عندما فتحتُ باب الشقة، إلا أنني وضعتُ راحةَ كفّي على آخرِ ظهرها بود، وهمستُ بنبرةٍ دافئة:

- تفضلي.

تقدّمت بضعُ خطواتٍ ثم توقّفت - مرّةً أُخرى - تلهثُ كأنما قطعت مسافة طويلة، حملقت إلى المكان بعينين مرعوبتين، وأدارت جسدها بحركةٍ سريعة عندما أغلقتُ الباب، وشرد ذهنها قليلًا، كأنما

تُعيد ترتيب أفكارها من جديد، ثمّة فوضى عارمة بعقلها، أشعر بذلك مثلما أشعرُ بوجودها قربي. قالت بصوتٍ بدا جاف الحنجرة:

- أريدُ كأسًا من الماء.

وراحت تتفحّص الشقة بعينيها مُحملقةً، ترمي بصرها نحو السقف تارة، والجدران تارة، وتارة أُخرى نحو الأرض، ووزّعت بصرها في كل أرجاء الشقة متوجّسة، بقيت مُتسمرة عند مدخلِ الشقة، واعتلى وجهها مسحة من الندم.

تركتها عند المدخل ودلفتُ إلى المطبخ أجلبُ لها كأسًا من الماء، عسى أن يهدأ قلقها قليلًا، ثم تساءلتُ في خلدي مرتابًا: "أيعقلُ أن تكون هذه المرّة الأولى لها!" ثم نفضتُ الفكرة من رأسي بحركةِ نفي مؤكدة، وتمتمتُ:

- لا، لا أعتقد البتة، جميعهنّ يُجدنّ التمثيل فحسب.

كانت لا تزال مُتخشبةً في مكانها بعدما خرجتُ من المطبخ، ناولتها الكأس فأمسكته بيدٍ مُرتجفة، "لقد بالغت كثيرًا بتمثيلها". فكّرتُ في نفسي، رمقتني بنظرةٍ غامضة لم أفلح في فكِّ شيفرتها. "ويبقى عقلُ المرأة لغزًا لا يمكن استيعابه". تذمّرتُ في خُلدي قانطًا.

ثمّ أمسكتُ يدها مُداعبًا بأصابعي أصابعها الناعمة، وهمستُ بصوتٍ أجش:

- لا داعي للقلقِ يا حبيبتي.

رنت إليّ بالنظرة الغامضة ذاتها، "بحقِّ الله، ما الذي يدورُ في ذهنها؟" سألتُ نفسي حائرًا، وبعد لحظةٍ عابرة طافت بشفتيها الرقيقتين

ابتسامة، بدت مريبة، بيد أنّ ياقة فستانها الواسعة خطفت بصري وصوّبته إلى مُستهلِّ نهديها المستديرين، المتراصّين في فستانها الضيّق، كانا مثل تفاحتين في أوجِ نضجهما. رطّبتُ شفتيَّ بمسحةٍ خفيفة بلساني، ثم أطلقتُ زفرةً مُقتضبة، تتّقدُ حرارةً كأنما خرجت من فوّهةِ بركانٍ هائج، لم أعد أحتملُ أكثر؛ فهمتُ إلى شفتيها الشهيّتين في لحظةٍ حميمية لكن الكأس كانت قد وقعت من يدها بغتة، وانتفضت مذعورة، فولّت هذه اللحظة الحميمية بغير رجعةٍ، تغضّن جبيني، وزممتُ شفتيَّ. "يا له من حظٍّ عاثر". قلتُ في سرّي.

ثمّ جلسنا على الأريكة في غرفةِ المعيشة، بعدما لملمتُ شظايا الكأس المكسورة. تركت مسافة بيننا أثناء جلوسنا كأنما في ذلك رسالة ألا أقترب منها، واحترمتُ رغبتها. بعد أن غرقنا في الصمتِ لثوانٍ خلتها ساعات، سألتني بصوتٍ يرتعش:

- هل لي أن أسألك سؤالًا؟

أومأتُ برأسي ثم رنوتُ إلى الساعة الخشبيّة المعلّقة على الجدار خلفها لحظةً وعدتُ مُحدّقًا إلى عينيها. سألتني مُضطربة النبرة:

- ألم أسقط من عينك بعد دخولي الشقة؟

لم أتنبّأ بهذا السؤال فحسب، بل كنت أنتظره بفارغ الصبر، وأجبتها على الفور بانفعالٍ شديد؛ فالهدوء والتردد لا يُعطيان الإجابة أيّة مصداقية، وهذه من بديهيات الكذب:

- مُستحيل، كيف يخطر ببالك مثل هذا السؤال؟ كيف يا مريم؟ وأنا الذي أحسبكِ زوجتي منذ الآن، وسمعتكِ هي سمعتي.

وأمسكتُ عن الكلام بغتة، ثم أدرتُ وجهي مُتجهّمًا إلى الجهةِ الأخرى، وأخرجتُ من جيبِ البنطال علبةَ السجائر والقداحة في الحال، تناولتُ سيجارةً ثم أشعلتها على نحوٍ ينمُّ عن غضب، أخذتُ منها نفسًا طويلًا حتى تمرّغت رئتاي بالنيكوتين، ثم نفثتُ سحابةَ دُخانٍ كثيفة، أخذتُ نفسًا ثانيًا، وثالثًا، ورابعًا، على التوالي، مثلما أفعلُ عادةً عندما أكون غاضبًا بحق.

ألقت بصرها نحوي بنظرةٍ وشت عن شعورها بالذنب، ثم أرخته إلى المسافة المحظورة التي أبقتها بيننا، وقطعتها بيدٍ زاحفةٍ بتؤدة نحو يدي، واحتضنتها بشغفٍ ممزوجٍ باعتذار، أطرقتُ عينيّ إلى يدها مُقطّبًا حاجبيّ، ثم سددتهما إلى عينيها مباشرةً، حاولتُ ألّا أرنو إلى نهديها المستديرين قدر المستطاع؛ كي لا يعثر الشك على طريقٍ إلى قلبها. وجودنا هُنا لا يعني ممارستنا للجنس، كان لا بدّ من إقناعها بذلك؛ كي يتسنّى لي ذلك. (الشعور بالأمان هو كُل ما تحتاجه الأُنثى كي تتخلّى عن حذرها). كانت هذه المادة العاشرة من الدستور الجديد الخاص بها، والمكررة بالدستور العام.

بدأ القلق يتلاشى من قلبها، والتوجّس يغادر عقلها، عادت اللحظة الحميمية التي خلتها لن تعود، رنت إليّ مُسبّلةً جفنيها وقد عضّت على نصفِ شفتها السُفلى بإغواءٍ أثارني، ثم هتفت بصوتٍ ينضحُ أنوثةً من نبرتهِ الخافتة:

- احضني.

- 4 -

خرجنا معًا من البابِ الخلفي ذاته للعمارة، متأبطةً ذراعي بعشقٍ ضعف الذي كان قبل أن ندخل، مشينا نترنّح شوقًا إلى الساحة المجاورة، وقد أسندت رأسها إلى كتفي.

- لم أكتفِ منك.

همست بأُذني عندما عانقتني قرب سيارتها عناقًا حارًّا، وتنهّدتُ هاتفًا:

- آه، كم أحبكِ.

ثم ودّعتها بقبلةٍ طبعتها على شفتيها الرقيقتين، ورحتُ مباشرةً نحو سيارتي، "لا ريب أني أحبها". قلت لنفسي. فتحتُ باب "الألينور" وتابعتُ: "مثلما أحببتُ قبلها، وسأُحبُّ بعدها". أدرتُ المحرك وواصلتُ وشفتاي انثنتا بنصفِ ابتسامةٍ: "ما ذنبي إن كان قلبي يسعُ كُلّ نساء الدنيا!" ثم ضغطتُ على دوّاسةِ البنزين مرّتين بقوّة، وصدح صوتُ المحرك صاخبًا.

- هذه الموسيقى التي تطربُ الأُذن، لا تلك التي تسمعها حصّة.

قلتُ بتهكم، وانطلقتُ في طريقي إلى الدوانية، بيد أنّ الزحام كان قد بدأ من المنعطف المفضي إلى طريق الملك عبد العزيز. "تزدادُ السيارات عامًا بعد عام، والطرقات هي ذاتها!" تذمّرتُ في خلدي لكن مزاجي لم يتعكّر مثل العادة، بل رفعتُ صوت المذياع عندما سمعتُ صوت عبدالكريم عبدالقادر يُغنّي: مرني. كانت المحطة الإذاعية قد خصّصت له ساعة تُذاع فيها أفضل أغنياته.

وبعد نصفِ ساعةٍ من الطرب بصوتهِ الجريح، مضى الوقت دون أن أشعر بزحمة الطريق. وصلتُ الدوانية أخيرًا في منطقةِ العدان، ركنتُ السيارة خلف سيارات الرّفاق، ودلفتُ دافعًا الباب بكلتا يديّ قائلًا:

- السلام عليكم.

ردّ الجميع لكن بأصواتٍ مُتفرّقة، ونهضوا من أماكنهم على الفور، كما لو أنني ضغطتُ زرًّا ما، صافحتهم واحدًا تلو الآخر، مع قبلةٍ على الخد الأيمن للمقرّبين، وثلاثِ قبلات على الخد الأيمن للبقية، في الحقيقة هي ليست قبلة بالمعنى الصريح، لكنها عبارة عن تصادم الخدين في ترحيبٍ مُفعمٍ بالرجولة.

ثمّ جلستُ في الركن المفضّل لدي، قرب شاحن الهواتف، وشحنتُ هاتفي قبل أن تنفد البطارية منه. صاح في تلك الأثناء خالد، عازف العود المبدع الفارغ في آنٍ:

- كلكم مرتزقة، تدافعون عن الحكومة مقابل ثمن، ولا يهمكم المواطن المتعسر في مديونيّاته.

وأشار في اتّهامٍ آخر، بلهجةٍ عدائية:

- قلوبكم مليئة بالحسد.

كان للجملة التي ختم بها كلامه وقعٌ ثقيل على أُذني علي، طبيبِ الأسنان المتعجرف، الذي يحشر أنفه في ما يعرف وما لا يعرف. "وددتُ مرّةً أن يحشر أنفه في طب الأسنان ويكتفي بالحديث عن تخصصه فقط". فكّرتُ في نفسي.

- قلوبكم مليئة بالحسد!

كرر طبيبُ الأسنان جملته بدهشة، رافعًا حاجبه الأيسر، ثم مضى يقول بتهكم:

- أولًا، التعميم لُغة الحمقى.

اتّسعت عينا خالد، وتجهّم وجهه، بيد أنّ علي تابع مسترسلًا بانفعالٍ شرع يتصاعد حتى بلغ ذروته، حين نطق الكلمة الأخيرة وتطاير معها قليلًا من لُعابه:

- أمّا ثانيًا، فكُلُّ مَن يُطالب الحكومة بسداد مديونيّاته هو في الحقيقة شخص ساذج، غير مسؤول، وأناني، لا يكترثُ لمصلحةِ الوطن.

وفي خضمِ الجدل الروتيني، الممل، دنا مني خليفة، الشهير بخليفة ميونخ. "لو لم أسعَ له في لجنةِ العلاج في الخارج، ما كان ارتدى قميص فريق بايرن ميونخ ذاته على امتدادِ الأربعةِ أعوامِ المنصرمة، وأضحى مُتعصبًا للفريق كأنما وُلد من أمٍّ ألمانية!" تذمّرتُ في خلدي، وواصلتُ مُتهكمًا: "اغسل القميص على الأقل". اقترب مني إلى حدٍّ حبستُ أنفاسي قدر المستطاع، ربّت على كتفي وهمس ينفثُ رائحةً كريهة من فمه:

- من الغريب أنك لم تنجرف بهذا النقاش، واكتفيت بالفُرجة!

فتلتُ شاربي بينما كنتُ ألتقطُ أنفاسي ببطء شديد، ثم أجبته:

- بعض النقاشات مضيعة للوقت.

ثم ألقيتُ بصري نحوهما بنظرةٍ ثاقبة، مضيفًا:

- لا سيما مع أحمقين غرّهما الثناء الزائف الذي يتلقيانه عبر مواقع التواصل الاجتماعي.

تنفّستُ بمشقة؛ مختنقًا من رائحةِ إبطيه وفمه الكريهة، أخرجتُ علكةً وناولته إياها؛ علّها تُخفف من حدّة رائحة فمه. "ألا تكفي رائحة إبطيه!" همهمتُ في سرّي، ثم استرسلتُ:

- هذانِ الأحمقانِ مهووسانِ بالتميز، بيد أنهما متشابهان حدَّ البؤس؛ فالعزف المتقن لمقطوعةٍ موسيقيةٍ ما، وتكرار أفكار الفلاسفة على مسامعنا وجهان لعملةٍ واحدة؛ كلاهما يُقلّد ولا يبتدع.

هزّ رأسه هزّة خفيفة تنمُّ عن تأييد، ازدردتُ ريقي ثم تابعتُ:

- كُلُّ ما فعلته مواقع التواصل الاجتماعي هو أنها جعلت للحمقى والتافهين منبرًا، والمفارقة الساخرة تكمنُ في عدد متابعيهم المهول.

توقفتُ عن الكلام هُنيهةً، أخرجتُ علبة السجائر من جيب البنطال بهدوء، وتناولتُ السيجارة الأخيرة في العلبة، ثم عصرتُ العلبة بقبضةِ يدي، وقذفتها نحو سلّة المهملات قرب مدخلِ الدوانية، بيد أنني أخطأت فوهة السلّة، وسقطت العلبة قرب كومةٍ من علب السجائر، والمناديل الورقية. ثبّتُّ السيجارة بين شفتيّ، مدّ خليفة يده بالقداحة، أشعلها، ثم مضيتُ أقول مُستعيرًا كلام طبيب نفسي - سمعته مؤخرًا - ونسبتُ كلامه إلى نفسي أو بمعنى آخر لم أذكر المصدر:

- أعتقدُ أنّ المشكلة تدور حول الذات، وشعورها بالنقص، فتلجأ إلى تضخيم الأنا، عبر تقمّص شخصية مثالية، في مواقع التواصل الاجتماعي، ومن المؤسف يا صديقي أنّ أوّل المخدوعين بهذه الشخصية المزيفة هو صاحبها نفسه.

"لولا غباء الجماهير ما كان هؤلاء يومًا مشاهير". هتفتُ في خلدي، ثم سحبتُ نفسًا عميقًا من سيجارتي ونفثتُ الدخان في وجههِ دُفعةً واحدة؛ عسى أن يطمس دُخان السيجارة رائحةُ العرق المنبعثة من إبطيه.

في هذه اللحظة دلف سالم، هاتفًا بصوته الثخين:

- أما زلتم عند النقاش ذاته! يا لكم من حمقى.

أدار علي وخالد وجهيهما نحوه لحظةً وجيزة، بيد أنهما استأنفا نقاشهما البائس كأنما لم يسمعاه. تقدّم سالم خطوة غير عابئ بهما، جال ببصره يتفحّص وجوه الرفاق، حتى تصادفت أبصارنا في نقطةِ تلاقٍ، وسأل بصوتٍ تشوبه الدهشة:

- متى وصلت؟

تشدّقتُ مُبتسمًا، ونهضتُ في الحال أُصافحه، قهقه قهقهة مُقتضبة، بينما كان يُصافحني؛ إذ دسستُ بيده خلال المصافحة مفتاح الشقة، وقلتُ بصوتٍ تنضح نبرته امتنانًا:

- لا تنفك عن إنقاذي في كُلّ مرّة.

أطرق بصره هُنيهةً، وشوّح بكفّه غير مُكترثٍ، قائلًا:

- لا شيء يُذكر.

رفعت إبهامي للأعلى مُحتضنًا بقية الأصابع براحةِ كفّي، وبنبرةٍ مُتّزنة قلتُ:

- نعم الصديق أنت.

حدجنا خليفة مستنكرًا، ثم سألنا مُتغضن الجبين:

- ألم تنضجا؟

ثم سدّد بصره إلى سالم بحدّة، وعاتبه:

- أنت مُدرّس تاريخ، لا يليقُ بك هذا الفعل.

رمقني سالم بعينين مشدوهتين برهةً، ثم غرق في الضحك على حين غرّة، وتساءل متهكمًا:

- ألا يُمارس المدرّس حياته اليومية!

أطرق خليفة بصره، وضرب كفًّا بكف مُتمتمًا:

- لا فائدة من الحديث معك.

احتدم النقاش بين الأحمقين بغتة في هذه الأثناء، صاح علي بملء حنجرته، مُحمرّ الوجه:

- اخرس يا ابن الـ...

فقاطعه خالد بمنفضةِ السجائر، إذ رماها بقوةٍ نحوه، بيد أنه أخطأ وجه علي وارتطمت المنفضة بالجدار خلفه، مُحدثةً صوتًا مُدوّيًا ابتلع صخب الجدل هُنيهةً، إلا أن عليًّا انتفض مثل المجنون، مُتهجّمًا على خالد، مُطلقًا سيلًا من الشتائم السوقية، عمّت الفوضى واشتبكا بالأيدي بعراكٍ عنيف، في حين كانت آخر تغريدة لهما في تويتر عن تقبّل الرأي الآخر!

أم ياسين

"يتضاعف الوجع عندما يقترن بالجحود"

- 1 -

اتّكأتُ على بابِ حجرةِ ياسين أقرعه برفق، وندهتُ بنبرةٍ واهنة مرّاتٍ عدّة، لكنه لم يُجب، ظلَّ بابه موصودًا بوجهي، انقبض صدري وأضناني القلق، فرفعتُ بصري إلى الأعلى، لاجئةً إلى ربي أُناجيه بتضرّع:

- اللهم احفظه من شرِّ نفسه، وأعدهُ إلى رُشده، اللهم...
- أم ياسين!

قطع حبل مناجاتي صوت غليظ فجأة، لكنني ألفتُ غلظته مع مرورِ السنين، انبعث صوته من حجرةِ المعيشة في الدور الأرضي، تقدّمتُ نحو السلالم، اتّكأتُ على الدرابزين بكلتا يدي، وأجبته:

- مرني يا أبا ياسين؟
- حضّري لي كوبًا من الشاي الأحمر، بسرعة.

"آه، ليت الوزارة لم تُحله إلى التقاعد القسري". تذمّرتُ لكن ما حيلتي غير التذمّر في سرّي، لقد تذمّرتُ سرًّا طيلة حياتي حتى أضحى

الصمتُ جزءًا من هُويتي؛ زوجة وأم تخدمُ أُسرتها بصمت، حتى خيل إليهم أنني أعيشُ هانئةً برفقتهم.

- أم ياسين!

صوّت مرّةً أُخرى، وأجبته بصوتٍ مُجهد:

- حالًا.. حالًا يا أبا ياسين.

وهبطتُ السلالم إلى الطابق الأرضي، دلفتُ المطبخ، سخّنتُ الماء في الحال، ثم جهّزتُ كوبه المفضّل. رنَّ هاتفي في هذه الأثناء، رفعتُ شاشته نحو بصري، وأمعنتُ النظر في اسمِ المتصل، اتّسعت عيناي، ثم ضغطتُ الزرَّ الأخضر ثلاث مرّاتٍ متواصلة حتى استجابة شاشة الهاتف إلى اصبعي. "الهواتف الذكية مُعقدّةٌ جدًا لمن هنّ بعمري". فكّرتُ في نفسي، وأجبت مشدوهةً:

- سُعاد! لا بدّ وأنكِ أخطأتِ الاتصال!

وضحكتُ ضحكةً طويلة، مُتقطّعة، ضحكة مَن تتوقُ إلى الضحك، ثم تابعتُ:

- أين كنتِ طيلة هذه الأشهر المنصرمة؟ لقد افتقدتك كثيرًا.

- أنا أكثر يا خالة، لكنها الحياة ومشاغلها.

- كان الله في عونكِ يا حبيبتي، بالمناسبة حصّة في طريقها...

- إليّ.

قاطعتني، وأضافت بصوتٍ ينبعثُ من نبرته القلق:

- ولهذا السبب اتصلت بكِ.

انسلّت آهةٌ مُقتضبة من حنجرتي، اختزلت جزعي كله، ومضت تقول:

- لقد حلمتُ بها حلمًا أشبه بالكابوس، أخبريني يا خالة أتشكو من خطبٍ ما؟

تسرّبت تنهيدة طويلة حملت معها كُلَّ الوجع الذي بداخلي. "لا أدري ما خطبها! وهذه مأساتي". قلتُ في سرّي واجمةً، لكنني استدركتُ على الفور:

- هي هكذا دومًا، مُتقلّبة المزاج، حتى مع ياسين، تصوّري!
- ياسين! أعاد إليكم؟
- عاد.. أو دعينا نأمل ذلك.

ثم مضت ثوانٍ شيّد الصمت خلالها حصونًا بيني وبينها. "تُرى أين شرد ذهنها!" تساءلتُ، إلا أنّ سُعاد دكّت حصون الصمت بغتةً، قائلة:

- أسمعُ جرس الباب يُدق، أعتقدُ أنّ حصّة وصلت.

ودّعنا بعضنا وداعًا اعتياديًا، على أملِ لقاءٍ قريب يجمعنا، أغلقتُ الهاتف ثم رنوتُ إلى الفراغ والأفكار تعصفُ بذهني من كُلِّ حدبٍ وصوبٍ. "لُطفك يا رب". هممتُ في خلدي. وأطلقت في هذه اللحظة غلّاية الماء صفيرًا حادًّا مثل قطار بخاري قديم، وشرع البخار يتصاعدُ من فوّهتها.

تناولتُ الغلاية من مقبضها، وسكبتُ الماء في الكوب، ثم وضعتُ ملعقتينِ كبيرتين من ورق الشاي الأحمر، ورحتُ أُحرّكُ الملعقة في جوفِ الكوب بشكل دائري، وبسرعةٍ ثابتة قرابة العشرِ ثوانٍ، ثم وضعته فوق

صينية بلاستيكة بيضاء، مُزيّنة بورودٍ جوريةٍ حمراء في زواياها الأربع، وخرجت من المطبخ أمشي إلى حجرةِ المعيشة بقدمين هرمتا على المشي.

كان أبو ياسين يجلسُ على مقعده المفضّل عندما دلفتُ، وشرع بالتذمّر عند رؤيتي، بنبرته الساخرة:

- أتستغرقين ساعةً في إعدادِ كوبٍ واحد!

وتعالت قهقهته قبل أن يُضيف:

- لقد هرمتِ يا أم ياسين.

حدّقتُ إليه بعينين امتصَّ الذُل شبابهما، وابتلع الإذعان حُرّيتي حدّ الخنوع، وبرغمِ أنّ الإهانة باتت روتينًا يوميًّا بيد أنّ كرامتي لم تعتد عليها البتة. "يا رب ألهمني الصبر". همهمتُ في خُلدي، وتقدّمتُ نحوه بينما كان يتطلّع إليّ بعينيه الجاحظتين، فيما كنتُ أضع الصينية فوق المنضدة الخشبية، ثم استدرتُ دون أن أنبس بكلمة، لكنه صوّت سائلًا:

- أين المعقّد، ابنكِ؟

التفتُّ إليه وشزرته. "لو كانت لديَّ شجاعة الرد!" فكّرتُ في نفسي، ثم أجبته باقتضاب:

- في غرفته.

زفر زفرةً طويلة، وهزّ رأسه مقطّبًا حاجبيه، ثم صاح:

- هذا المجنون سوف يضطرّني يومًا إلى خلعِ بابهِ عنوةً.

"إلى متى تُعالج المعضلات بالعنف!" تساءلتُ قانطةً، وملأتُ صدري بشهيقٍ عميق، حبسته في رئتيّ لثوانٍ، ثم حرّرته قائلةً:

- هدِّئ من روعك يا أبا ياسين، لقد كبر الأولاد على تعنيفهم.

انتفض مُنتصبًا، مُتغضن الجبين، والشرار يتطايرُ من عينيه المحملقتين إليّ، وزجرني بملء حنجرته:

- اخرسي يا امرأة.

ومضى في كلامه مُشوّحًا بإصبعه في وجهي:

- أوَتعلّمينني كيف أُربّي أولادي!

- ما قصدتُ هذا...

قاطعني مُزمجرًا:

- مهما كبروا فهم أولادي، ولي كامل الحق بتربيتهم كيفما أشاء، أتفهمين!

وأمسك عن الكلام، استولى الصمت على حناجرنا وساد السكون في أرجاء الحجرة. بلعتُ ريقي بجهدٍ كأنما ثمّة لُقمةٌ عالقة في قصبتي الهوائية. رحتُ أجولُ ببصري مُتفحّصة الحجرة، جُدرانها، ولون الطلاء المائل إلى الصُفرة، السجّادة التركية في المنتصف، وأثر الزمن الذي كان واضحًا بألوانها الباهتة، والأرائك الشعبية المهترئة، والسقف الملطّخ ببقعٍ سوداء ناجمة عن تسرّب مياه الأمطار على امتداد السنوات المنصرمة، ووجه أبي ياسين بصرامته القاسية، الممتلئ بتجاعيد نجمت عن تجهّم قسماته المستمر. ثم سألتُ نفسي بدهشةٍ: "كيف مضت هذه السنوات بلمح البصر؟" وشعرتُ بمرارةٍ عندما أدركتُ أنّ الدهر قد سرق أجمل سنوات عمري.

تناول كوبه بعد أن جلس بتعجرفه المعتاد، رشف بضع رشفات، ثم أعاده فوق المنضدة الزجاجية، مُتذمّرًا من جنسِ حوّاء منذُ بدء

الخليقة، ملقيًا باللّوم على المرأة في كُلِّ خطب وقع على هذا الكوكب، ثم نهض من مقعدهِ بعدما أنهى كوبه، وولّى مُدبرًا، بيد أنه واصل تذمّره ناقمًا على حياته التي أهدرها برفقتي، وراح صوته ينخفض تدريجيًّا حتى ابتلعه العدم، وساد الحجرة سكونٌ تام.

- 2 -

وقفتُ في مُنتصفِ الحجرة، محنية الظهر، وحيدةً في مهبِّ الوجع، أُديرُ بصري حولي، ويغتالُ قلبي الندمُ. تخشّبت قدماي عن الحركة، واستحالت الثواني إلى ساعاتٍ، كما لو أنني خارج حدود الزمن، وسافرتُ بروحي مُمتطيةً ذكرى قديمة، قادتني إلى زمنٍ خلا، وبقي جسدي خاويًا في مُنتصفِ الحجرة.

كان واضحًا منذ البداية أن يوسف لا يصلحُ زوجًا لي، منذ أوّل شجار وقع بيننا عقِب يومين من زفافنا، حين دلفتُ عليه حُجرة المعيشة، وابتسامتي ملء وجهي، كانت عيناي آنذاك في أوجِ شبابهما، ندهتُ عليه والفرحة تحتضنُ صوتي:

- يوسف، لقد قبلوني في وزارةِ الخارجية.

أجابني بغلاظة دون أن يُدير وجهه نحوي:

- لكن المرأة مكانها البيت.

رفعتُ حاجبيّ، وشرعت عيناي تتّسعان، توارت ابتسامتي خلف ملامح الدهشة، ثم بلعتُ ريقي متوجّسةً، وسألته بصوتٍ يرتابُ بنبرته:

- لكن عندما تزوجتني...

صاح بغتة:

- لا توجد نساء يعملن في العائلة، أتفهمين!

وأضاف بحزمٍ لا يخضعُ للنقاش:

- وظيفة الزوجة هي إعدادُ الطعام، وانجاب الأولاد، وتنظيف المنزل، ألا تفهمين؟

- لكن...

وباغتني بصفعةٍ بعثرت الكلمات من رأسِ لساني، اغرورقت عيناي بالدموع، على حينِ غرّة تناول محفظته ومفتاح سيارته، ثم خرج من البيت يتأففُ، متذمرًا من جنسِ حوّاء منذ بدء الخليقة، ملقيًا باللوم على المرأة في كُلِّ خطبٍ وقع على هذا الكوكب.

وقفتُ وحيدةً في حجرةِ المعيشة، مُنتصبةً فوق السجادة التركية التي أهدتها لي أمي هدية زواجي، أتفحّص الغرفة حولي بعينين غشاهما الدمع، لا زالت الجدران تفوحُ برائحةِ الطلاء، والأرائك الشعبية مُتقنة التنجيد، بألوانها الزاهية، لكن شعوري لم يكن حميميًّا إزاء المكان، بل خالجني شعورٌ بالكراهية، كأنما هو سجن. بعد لحظةٍ هتفتُ مُعترضةً للجدران:

- لا، لن أسمح له بمعاملتي هكذا، أبدًا.

وهرعتُ إلى حجرةِ النوم، كان لا بد من اتخاذ موقفٍ؛ كي لا تُصبح كرامتي مداسًا، تناولتُ الحقيبة ذاتها التي جئتُ بها قبل يومين، ملأتها بمتاعي، ثيابي، ومجوهراتي، ثم غادرتُ البيت، أجرُّ حقيبتي خلفي سيرًا على الأقدامِ، إلى الحي المقابل، حيثُ بيت

أهلي على ناصيته. "لن يقبل والدي بهذا أبدًا، وأخي، سندي، لن يقف ساكتًا إزاء هذه الإهانة". قلتُ لنفسي بمواساة، بينما أمسح دمعي بظهرِ كفّي.

كان فالح، سندي، قد خرج لتوّه عندما اقتربتُ من بابِ البيت، وقبل أن يُشعل سيجارته انتصبتُ أمامه، فحدجني مُتسمّرًا لحظةً وجيزة، ثم سأل بدهشةٍ:

- ما الذي تفعلينه هُنا بعد مُنتصفِ الليل؟

وأرخى بصره نحو الحقيبة، ثم أتبعه بسؤالٍ آخر:

- وما الداعي من جرجرةِ الحقيبة خلفكِ؟

لم أتمالك نفسي، وأجهشتُ بالبكاء:

- لقد صفعني يوسف...

قاطعني مُتجهّم الوجه، بنبرةٍ هادئة بيد أنها على حافّة الغضب:

- وأين المشكلة إن صفعكِ زوجكِ؟

حملقتُ إليه فاغرةً فمي على وسعه، لم تستوعب أُذناي ما طرق طبلتهما، فسألته بصوتٍ متهدج بعد برهةٍ حاولتُ خلالها ابتلاع الصدمة:

- ألا ترى في ذلك مشكلة؟

- أين هي المشكلة؟ زوجكِ وصفعكِ!

ارتعشتا شفتاي بذهولٍ. "أهذا هو سندي؟!" سألتُ نفسي مرتابةً.

شعرتُ لبرهةٍ أنّ الأرض تهتزُّ تحت قدمي، كأنما القمر اصطدم بالأرض، وصدقت نبوءة العلماء، وشارفت الحياة على النهاية.

إلا أنني تمالكتُ نفسي، وحاولتُ تجاوزه والولوج إلى البيت عبر الباب الرئيسي، لكنه سدَّ طريقي بذراعه مفتولة العضلات، وصاح بوجهي بنبرةٍ ثخينة:

- عودي إلى زوجكِ؛ فلا مكان لكِ هُنا.

اضطربت رئتاي بشهيقٍ، زفيرٍ، بنحوٍ مُتقطّع، احمرّ وجهي حنقًا، وتسارع قلبي بدقّاته، ارتجفت يداي، وتفصّد جبيني عرقًا. "أحلمٌ هذا أم حقيقة!" تساءلتُ في سرّي، ثم صرختُ بصوتٍ واهن، ترتعشُ نبرته:

- ابتعد، ابتعد عن طريقي.

خرج أبي في تلك الأثناء مُزمجرًا:

- اخرسا كلاكما، وإلا قطعتُ لسانيكما.

صاح فالح بصوتٍ جهوري مُهيب:

- انظر إلى ابنتك لقد تركت بيت زوجها بعد يومين من الزواج، ماذا سيقولُ الناس عنّا؟

وشرع يضربُ كفّيه ببعضهما مُتمتمًا بصوتٍ خافت لكنه مسموع:

- ابنتك ستُدنّس اسم العائلة.

أرخيتُ بصري للأسفل وتملّكني شعور بالإعياء، وكان الجزع ينهشُ بسالتي، تقدّمتُ نحو أبي، وركبتاي تصطكان، انتصبتُ قبالته، وقلتُ بصوتٍ مُتهدج:

- لقد صفعني...

بيد أنه قاطعني بجلافة مُكفهرَّ الوجه:

- اخفضي صوتكِ يا امرأة.

وتلفّت حوله؛ يتأكد ألّا أحد من الجيران يشهدُ الحدث، ثم واصل مُقطّبًا حاجبيه الكثيفين:

- عودي إلى زوجكِ حالًا؛ ولا تجلبي العار للعائلة.

"العار!" قلتُ في سرّي، وتجمّدت قسماتُ وجهي، كأنما الصدمة شلّت تعابيري، وبعد لحظةِ الجمودِ هذه، أرخيتُ جفنيَّ بوهن. "ليتني مُتُّ". تمنيتُ في خلدي، وعاد فالح مُتذمّرًا:

- ما هذه المصيبة التي حلّت على رؤوسنا؟ ماذا سيقولُ الجيران عنّا؟ لقد فضحتنا هذه اللعينة.

أسدل الخذلان ستائره وادلهمّ الكون في وجهي، ودهست ذكوريتهم الحق، ومثل نعجةٍ تُساقُ إلى المذبح، سُقتُ إلى يوسف، أمسك فالح بحقيبتي ورماها في صندوقِ السيارة بغلٍّ كان تفسيرهُ عصيًّا على عقلي، وبينما كنتُ أقفُ مشلولةَ الحركة، شدّني أبي من ذراعي وجرّني إلى السيارة، أدخلني وأجلسني على المقاعد الخلفية، أو بمعنًى أدق، دفعني بقوة، ثم صفق الباب فاهتزّت السيارة برمّتها، وصاح إلى السائق بصوتٍ ترتعدُ نبرته من الفضيحة:

- اذهب بها إلى بيتِ يوسف حالًا.

جرى كُلُّ شيءٍ بسرعةٍ فائقة لم يستوعبها عقلي، كأنني في كابوسٍ مزعج أُحاول بلا طائل الاستفاقة منه، كانت إحدى ليالي شبّاط الباردة، من العام 1976. انطلق السائق بالسيارة فور ما أنهى أبي جملته، كان فالح وأبي يقفان مُلتصقي الكتفين، يتشاركان ملامح الحنق، وهاجسُ العار يُخيّم على وجهيهما، كأنما اقترفتُ ذنبًا عظيمًا حين رفضتُ إهانة يوسف!

توقفت الذكرى عند هذا الحد، وشرع وميضُ الذكرى يتلاشى شيئًا فشيئًا، في حين استيقظ الحاضر بمرارته وفتح عينيَّ على الحجرةِ ذاتها، لكن بعدما شاخ أثاثها، وهرمت جدرانها. كان الهدوء مُتسيدًا المكان حتى قرع طبلة أُذني صوتٌ ملائكيٌ على حينِ بغتة:

- جدتي، جدتي.

انتفض جسدي، وأدرتُ عينيَّ حولي بإيماءةٍ تُعبّر عن ضياعي برهةً وجيزة، ثم اهتدى بصري إلى وجهها المشرق بعفويةِ الطفولة، وارتسمت على شفتيَّ المرتعشتين ابتسامة خفيفة، بيد أنها سُرعان ما شدّت رحالها عن شفتيَّ. جثمتُ على ركبتيّ وداعبتُ أنفها المعقوف بسبّابتي، قائلةً بصوتٍ حاقت بنبرته الرقّة:

- تدلّلي يا حبيبة الجدّة.

وشرعتُ أقبّلها بشدّةٍ تُزعجُ الأطفال عادةً، ثم مسحتُ برفق على ضفيرتها المجعّدة بباطنِ كفّي.

- أريدُ مشاهدة التلفاز.

قالت وارتسمت على وجهها تلك التعابير التي أعجزُ عن هزيمتها. "هذا مكرُ أبيكِ". فكّرتُ في نفسي، وقرصتُ خدّها المترف، المغري للقرص على الدوام، ثم اشترطتُ عليها:

- كُلي أولًا.

- التلفاز أولًا.

وغرقتُ في الضحكِ، كما لم أضحك من قبل، "عنيدةٌ مثل والدكِ". قلتُ في سرّي، ثمّ اقترحتُ:

- ما رأيكِ أن تأكلي أثناء مشاهدة التلفاز؟

أومأت برأسها ورمشت بإيماءةٍ تُعبر عن موافقتها، وانثنت شفتاها بنصفِ ابتسامةٍ شقيّة، أضفت مزيجًا ساحرًا بين البراءة والشقاوة. حملتها رغم تحذير الطبيب ألا أحمل شيئًا ثقيلًا. "لقد هرمنا، وأضحى الموت قابَ قوسين أو أدنى". همهمتُ في خلدي، وذهبنا إلى المطبخ، أنا أعدُّ لها الطعام ريثما شرعت بمشاهدةِ التلفاز الذي وضعته على الجدار قبالة مائدة الطعام من أجلها.

- 3 -

أجلستُها على المقعد المخصص لها، ثم تناولتُ نصفَ فطيرة من طبق الفطائر ذاته الذي أعددته في صباحِ هذا اليوم، وضعته فوق طبقها المزيّن برسوماتٍ لشخصيّاتٍ كرتونية لا أملكُ أدنى فكرةً عنها، ثم سكبتُ كأسًا من عصيرِ البرتقال الطازج، وجلستُ على المقعدِ المقابل لها من المائدة، أسندتُ ذقني إلى راحتيّ ورحتُ أتأمّلُ ملامحها. "سُبحان الخالق". فكّرتُ في نفسي؛ لقد ورثت عن أمها عينيها الواسعتين، وشفتيها المكتنزتين، بيد أنّ جينات ياسين كانت حاضرةً بقوّةٍ في عظمتي وجنتيها الناتئتين، وورثت أنفي المعقوف الذي ورثته بدوري عن والدي، وسُمرة جدّها. أمعنتُ النظر إلى ملامحها جيدًا، كانت خليطًا عجيبًا من صفاتنا وأطباعنا، وليس ثمّة صفةٌ واحدة أو طبع وحيد يخصّها بذاتها، كما لو كانت انعكاسًا لسلالةِ العائلة فحسب.

قضمت قطعة صغيرة من نصفِ الفطيرة، وراحت عيناها ترنوانِ إلى التلفاز، ثم سألتني بغتةً بينما كانت تمضغُ على مضض:

- لماذا لا يُحبني بابا ياسين؟

رفعتُ حاجبيّ فاغرةً فمي. "كيف خطر ببالها مثل هذا السؤال؟" سألتُ نفسي حائرةً، ثم ازدردتُ ريقي، وأجبتها:

- على العكس يا حبيبتي، بابا ياسين يُحبكِ حُبًّا كبيرًا.

أطرقت بصرها إلى طبقها المزيّن برسوماتٍ لشخصيّاتٍ كرتونية هُنيهةً، واصلت مضغ القضمة الأولى، ثم رفعت بصرها إليَّ فجأة، وسألت:

- إذن، لماذا لا يلعبُ معي؟

انسلّت من حنجرتي زفرةٌ مُقتضبة، ثم تبسّمتُ بشفتين مضمومتين، احتضنتُ يدها الصغيرة بكلتا يديّ قائلة بصوتٍ رقيق النبرة:

- لأنه لا يزال مريضًا يا صغيرتي، لكن فور ما تتحسن حالته سيلعبُ معكِ ليلَ نهار، أنا متأكدة من ذلك.

"أكانت هذه كذبةً أم أُمنية!" حار عقلي متسائلًا، قضمت قضمةً أُخرى، واستولى التلفاز على اهتمامها من جديد، وفي تلك الأثناء كان الماضي يتسلّلُ إلى الحاضر، حاملًا معه الذكرى نفسها، لكن حين انتبهتُ إليه كانت الذكرى قد استحوذت على ذهني. "آه، لقد خلتها مضت في سبيلها بغيرِ رجعة". فكّرتُ في نفسي، ثم أغمضتُ عينيّ مستسلمةً لها.

كان أمير، سائقنا الوفي، يرنو إليّ خلال المرآة الأمامية بعينين قلقتين، وقال بصوتٍ حاقت بنبرته الشفقة:

- ماما صغير، لا تزعلي من بابا كبير؛ هو يُحبّكِ كثيرًا.

كان يُحاول - بلا طائل - مواساتي، إلا أنني لم أُحر جوابًا، وبقيتُ صامتةً طوال الطريق أتساءل: "كيف سأعيش بلا كرامة!" وظلّت عيناه تراقبانني بقلق متزايد.

وقفتُ قرابةَ الدقيقة عند مدخلِ البيت، بعدما ترجّلتُ من السيارة، مُنتظرةً مُعجزةً من السَّماء، تحولُ بيني وبين الولوج، بيد أنّ عصر المعجزات كان قد انتهى ببساطة. دلفتُ إلى البيت، أو بمعنًى أدق، السجن، ورأيتُ يوسف جالسًا بتعجرف على مقعدهِ في حجرةِ المعيشة، واضعًا قدمًا فوق الأُخرى، يُشاهدُ نشرةَ أخبار الساعة الثالثة صباحًا، بمزاجِ مَن ربح المعركة. ألقى بصره نحوي بنظرةِ تعالٍ، وراح يُحرّكُ سبحته بين أصابعه، ثم رنا إلى التلفاز بغيرِ اكتراث، وقال بصوتٍ جلف النبرة:

- احفظي هذه المعلومة في أهمِّ منطقةٍ في عقلكِ الناقص: المرّة القادمة سيكون قبركِ هو السبب الوحيد لخروجكِ من هذا البيت.

"أثمّة حلٌّ فقهي يُبيحُ الانتحار!" تساءلتُ في سرّي ريثما كنتُ ألتقطُ أنفاسي بمشقّة، مكسوّةً بالذُل، وكرامتي أضحت مداسًا، طأطأتُ رأسي، وتناهت إلى سمعي نصيحة جدّتي، التي ردّدتها على مسامعِ أمي على الدوام: "الزوجة الصالحة تصبرُ على زوجها، وترضى بما كتبه الله لها".

بغتة طرق مسمعي صوتُ ارتطامِ قطعةٍ حديدية بالبلاط، أعادتني إلى الواقع، أدرتُ وجهي بحركةٍ عفوية باتّجاهِ الصوت، ووقع بصري على ملعقةٍ مرمية فوق البلاط، سددتُ نظرةً إلى بلقيس مُتغضنةُ الجبين.

- لقد وقعت لوحدها.

قالت بصوتٍ مُفعم بالثقة، والهدوء. "يبدو أنّ الكذب فطرةٌ إنسانية". فكّرتُ في نفسي، ثم عقّبتُ رافعةً حاجبيّ:

- سُبحان الله! أنبتت للملعقةِ أرجلٌ؟

ضحكت ببراءةٍ تسحرُ القلوب، ثم هزّت كتفيها قائلة:

- لا أدري، ربما!

قهقهتُ قهقهةً مُتقطّعة، بينما نهضتُ ألتقط الملعقة، اكتفت بلقيس بقضمتين من نصفِ الفطيرة، إلا أنّ قضمتها الثانية ما زالت تُقلّبها في فمها، بينما جثمتُ على ركبتيّ أمسحُ البلاط. "هذه آخر مرة أُعير خادمتي إلى جارتنا أم صادق". تذمّرتُ في خلدي، ثم تابعت قانطةً: "ينتهي العمر ويبقى العمل أبديًّا".

أبو ياسين

"الدكتاتور الضحيّة"

- 1 -

دلفتُ إلى حجرة النوم أزفرُ ضجرًا، وصفقتُ الباب خلفي ساخطًا، "لم أسعَ يومًا إلى هذه الحياة، زوجةٌ نكديّة وأولادٌ مُتمرّدون". تذمرتُ في خلدي مُتغضّن الجبين، ثم وقعت عيناي مصادفةً على صورةٍ محشورة داخل إطار صغير، بني اللون، تُثير البؤس في نفسي كلما تعثّر بصري بها، تناولتُ الصورة من فوقِ منضدةٍ مصنوعةٍ من خشبِ السنديان، ما زالت الحجرة تضوعُ برائحةِ السنديان كأنما قُطع توًّا من جذعِ الشجرة. رنوتُ إليها مُقطّب الحاجبين، وقد ضاقت حدقتا عينيّ، كان أبي ينتصبُ قربي في الصورة، ممسكًا بيدي مُكشّرًا عن أسنانه بابتسامةٍ أسفرت عن سنّيه الذهبيتين في طرفي فمه الكبير، بينما كنتُ أُحدّقُ إلى عينِ عدسةِ التصوير وعيناي ترشحانِ حُزنًا لا يليقُ برجلٍ في ليلةِ زفافه.

أعدتُ الصورة إلى المنضدة وأطلقتُ آهةً عميقة، كأنما عشتُ تفاصيل ليلة الزفاف أو بعبارةٍ أُخرى، أكثر دقّة، كابوس ليلة الزفاف مرّةً

أُخرى. تمدّدتُ فوق السرير مُنقبض الصدر، ورئتاي بالكادِ تلتقطانِ الهواء. "كيف انتهى بي المطافُ هكذا، عجوزٌ تعسٌ؟" تساءلتُ في نفسي، ثم أرخيتُ جفنيّ خائر القوى، وشرعت الذكرياتُ تصطفُّ اصطفافًا عسكريًّا في ذهني بمناورةٍ لاغتيالِ الحاضر. كان مستقبلي مشرقًا بالطموح، بيد أنّ تقاليد العائلة ابتلعته مثلما يبتلعُ البحر قرص الشمس بهدوءٍ مُخيف ساعة الغروب.

فجأة يعبر طيف نادية ببالي، يخفق قلبي كما لم يخفق من قبل، كانت مضطربة الملامح، شاحبة الوجه، تُحملقُ إليّ بخيبةٍ، والهالةُ السوداء أسفل عينيها تشي بنحيبٍ أنهكها، أعادني طيفها العابر ستًّا وثلاثين سنةً إلى الوراء، التقطتُ أنفاسي بصعوبة، ولعنتُ نايف في خلدي، لعنته مرارًا، وأطلقتُ عليه سيلًا من الشتائم؛ كل البؤس الذي أعيشه اليوم بسبب حقده عليّ في زمنٍ خلا، بدأتُ أسبرُ غورًا في الماضي، حتى خيل إليّ أنني أستنشقُ هواء القاهرة.

ما كنتُ لأصادق أمثاله لولا أنّ أباه كان من أصدقاء والدي المقرّبين، وشاء القدر أن يكون هذا الحقود المليء بالعُقدِ النفسية برفقتي عندما عبرت نادية من أمامنا لأوّل مرّة في الجامعة، توقّفت عند المدخلِ لثوانٍ، انحنت تلتقطُ شيئًا وقع منها، ثم انتصبت من جديد ودفعت خصلةً من شعرها خلف أُذنها وتابعت سيرها، وسط حشدٍ من عيون الشُبّان، يتلهفون لاغتنامِ فرصةِ الحديث معها.

كان عطرها قد علق في رئتيّ لحظة عبورها، فحبستُ أنفاسي مُنتشيًا بشذاها، وراح بصري يلهثُ خلفها مفتونًا، ليست مثلنا من طين إنما

خُلقت من نور الصباح، ومن زُرقةِ المحيط كانت عيناها المنسبلتان، وشعرها الكستنائي الداكن ينسدلُ إلى خصرها المتمايل غنجًا كلّما خطت خطوة.

- يوسف!

صاح نايف بغتةً، ثم وكزني فوق كتفي بقلمهِ المقضوم من المؤخرة، شعرتُ بوكزته لكنني بقيتُ ساكنًا عن الحركةِ برهةً من الزمن، ثم أدرتُ بصري نحوه بهدوء، ومسحة من البلاهة اعتلت قسماتِ وجهي، أجبته بعد أن أفلتت مني تنهيدة طويلة:

- هذه فتاةُ أحلامي.

أجابني مُتهكمًا:

- بالفعل، هي كذلك، ولن تُبارح أحلامك أيضًا.

ثم أطلق ضحكةً حادّة وصاخبة على نحوٍ مُتقطّع، كانت أقرب إلى صافراتِ إنذار من ضحكة إنسان. حدجته في الحال زامًّا شفتيَّ، مُقطّبًا حاجبيَّ، فاختنق بضحكته وراح يسعلُ متورّطًا، وطأطأ رأسه للأسفل مثل عادته كلّما تورّط. أدرتُ وجهي إليها من جديد هائمًا، لحقتها بعينيَّ حتى عبرت البوابة، وتوارت خلف الأسوار، "ثمّة أمر ما يجذبني إليها، غير الجمال". فكّرتُ في نفسي.

ثمّ حاكت المصادفة لقاءاتٍ عدّة، جمعتنا ضمن نطاق أنشطة الجامعة، وساهمت هذه اللقاءات في تكوين انطباعٍ أثار اهتمامها، إذ حشرني في إطارِ الطالب المثابر الوقور، وأكثر ما جذبها إليَّ أنني الطالب الوحيد الذي لم يُعاكسها في الجامعة، وهذا ما أضاف على المثابرة

والوقار مسحة من التفرّد بشيءٍ مُختلف عن البقية، واصلت المصادفة حياكة فصول روايتنا بإتقانٍ مُبهر.

تتابعت اللقاءات، لقاءً بعد لقاءٍ، واقتربنا من بعضنا أكثر خلال العام الدراسي، بيد أنها أبقت على حاجزٍ وحيدٍ بيننا على الدوام، حتى شارف العام الدراسي على نهايته، ورسمت المصادفة بريشتها على لوحِ القدر أعظم نهاية لهذه اللقاءات، أو بعبارةٍ أُخرى، أكثر دقّة، أعظم بداية، فما النهايات إلا بدايات لقصصٍ أُخرى أكثر عُمقًا.

في أحدِ الأيام، وبينما كنتُ عائدًا إلى السكن، عرجتُ مصادفةً على حي شعبي مُختصِرًا الطريق، لمحتُ نادية من مسافةٍ بعيدة، كانت تمشي بخطواتٍ سريعة، وغاضبة، مُتجهّمة الملامح، أمعنتُ النظر، فلاحظتُ ثلاثةَ شُبّانٍ خلفها، لا ينفكون عن مضايقتها علنًا، هرعتُ إليها دون إبطاءٍ، واعترضتُ طريق الثلاثة مباشرةً، حملقت نادية إليّ بعينين مشدوهتين ومرتبكتين في آنٍ، كان من بين الثلاثة شاب ضخمُ البنية، يحملُ بيدهِ هراوةً مُدببة من الأعلى، بدا زعيم الاثنين الآخرين، اقتربت نادية مني وهمست بنبرةٍ يشوبها القلق:

- دعهم وشأنهم؛ هؤلاء مشاغبون لا ينبغي التورّط معهم.

"هذه فرصتي". قلت في سرّي، وافترّ ثغري عن ابتسامةٍ خفيفة، ثم انحنيتُ - نصف انحناءة - نحوها، وطمأنتها بصوتٍ خافت، يزخرُ ثقةً:

- لا عليكِ، سأتكفّل بهم.

ثم أدرتُ وجهي نحوهم عابسًا، تقدّمتُ خطوةٍ، رافعًا صدري، وصحتُ بنبرةٍ ثخينة:

- عودوا أدراجكم ولا تضطروني إلى استعمالِ القوة.

عبرت شفتيّ الشاب الضخم نصف ابتسامة ساخرة، وقهقه الشابان الآخران بصخب، ثم استهزأ الشاب الضخم قائلًا:

- استعمل القوة، أرجوك.

قطّبتُ حاجبي، وزممتُ شفتيّ، ثم رفعتُ كفّي عاليًا دون تردد، وهبطتُ بها على خدّه في لطمةٍ مباغتة. تسمّر الشاب الضخم في مكانهِ هُنيهةً، وجحظت عيناه مصدومتين، بيد أنّ الشابان اللذان كانا معه تقدّما نحوي في آنٍ واحد، تفصّد جبيني عرقًا، واضطربت دقّاتُ قلبي، وريثما كانا يُموّهان بيدهما، كانت الهراوة ذات الرأس المدبب قد هبطت على مُنتصفِ رأسي، ترنحتُ مثل سكرانٍ يُمنةً ويُسرة، أُحاول بلا طائل استعادة توازني، وغشت عينيّ مسحة ضبابية حجبت عني الرؤية، ثم باغتني أحدهم بدفعةٍ لئيمة أردتني أرضًا، وشرعوا يركلونني ثلاثتهم بقوة. اعتلى الحي صخب اخترقته نادية مولولةً، خارت قواي وغبتُ عن الوعي تدريجيًا.

- 2 -

استعدت وعيي في مكان بدا غريبًا للوهلةِ الأولى، لا أذكرُ شيئًا، فاقدًا الشعور بالزمن، كأنما استيقظتُ في الجهةِ الأُخرى من العالم! بيد أنّ روائح الأدوية قد وشت بالمكان، وتدفّقت أحداثُ حياتي دفعةً واحدة، أنعشت خلالها ذاكرتي. "يا لخيبتي؛ لقد ضُربت ضربًا مُبرحًا أمام نادية". قلتُ في خلدي متحسّرًا. حاولتُ النهوض لكن جسدي بدأ

يئنُّ ألمًا، وتسرّبت من حنجرتي آهة كئيبة، مُتقطّعة، ثمّ تناهى إلى سمعي صوتٌ رقيق للغاية، مثل نسمةِ هواءٍ في شتاء تشرين الثاني، داعبت مسمعي برقّة:

- حمدًا لله على سلامتك.

ألقيتُ بصري باتّجاه الصوت بنظرةٍ واهنة، واتّسعت عيناي في الحال؛ كانت نادية بشحمها ولحمها تجلسُ قربي، وترنو إليّ بعينيها الزرقاوين. أطلقتُ زفرةً عميقة، وانثنت شفتاي بابتسامةٍ بلهاء، بعدما أدركتُ أنّ الحاجز الذي أبقته بيننا على الدوام قد تساوى بالأرض، وبدأ قلبانا ينبضان أوّل دقّات الحُب.

تسلّل رنينُ الهاتف إلى مسمعي، وحرّر ذهني من قبضةِ الماضي، فتحتُ عينيَّ ببطء، ثم اعتدلتُ بجسدي فوق السرير، كان الهاتف لا ينفكُّ يرنّ، ألقيتُ بصري نحوه، ثم تناولته على مضض، مسحتُ بإصبعٍ مرهق على شاشته، وأجبتُ:

- أهلًا طلال.

- يبدو صوتك مُتعبًا، أتشكو من خطبٍ ما؟

هكذا سألني فور ما سمع صوتي، تنحنحتُ؛ كي أحرر حنجرتي من نبرةِ البؤس، ثم استطردتُ:

- ربما هي نزلةٌ رئوية فحسب!

- أذهبت إلى الطبيب؟

- لا شيء يستدعي إلى ذلك؛ مجرّد نزلة رئوية، لا داعي للقلق.

- عليك أن...

وتوقف عن الكلام بغتةً، ثم أضاف مستسلمًا:

- حسنًا، حسنًا، لكن لا تنسَ اجتماعنا في الغد.

واسترسل على الفور:

- لقد أبدى نايف رغبته في ترشحِ ابنه عبدالعزيز في انتخابات المجلس البلدي، وقد طلب مني مناصرة العائلة لابنه...

- نايف!

قاطعته بصوتٍ بدت نبرته على حافّةِ الحنق، بيد أنني تداركتُ حنقي، ومضيتُ أقول بهدوء:

- لا يا طلال، مستحيل؛ عبدالعزيز لا يصلح البتة.

أمسك طلال عن الكلام هُنيهةً، ولعنتُ نايف في سرّي، ثم سألني متوجّس النبرة:

- أصدقني القول يا أبا ياسين، أرفضك لعبدالعزيز ناجمًا عما فعله أبوه في القاهرة؟

- أبدًا.

أجبته بسرعة بالغة لا يشوبها تردد، ثم ازدردتُ ريقي وأضفتُ بتروٍّ بعدما تصنّعتُ قهقهةً مُقتضبة:

- ما حدث في القاهرة ابتلعه النسيان منذ زمن بعيد، لا داعي لذكره.

"بيد أنّ النسيان قد غصّ بجُرحي، وبصقه في وجه الزمن". قلتُ في خلدي، لكن ما الجدوى من الشكوى الآن، وقد مضت ستةٌ وثلاثون عامًا على الحادثة، دفعتُ ثمنها من سنوات عمري!

- طلال، لا بدّ من دعمِ أحدٍ آخر.

قلتُ حازمًا، وطلال، أخي، يعرفُ حزمي جيدًا، غاص في صمتهِ لبضعِ ثوانٍ ثم قال على مضض:

- سوف أتدبّر الأمر، لا تقلق.

أنهيتُ المكالمة مُتجهّم الوجه، أرنو إلى الصورة فوق المنضدة مُحدّقًا إلى وجهِ أبي. "كيف لك أن تبتسم.. كيف!" تساءلتُ في نفسي، ثمّ وضعتُ الهاتف فوق السرير قرب الوسادة، وواصلتُ بيأس: "سامحك الله يا أبي، سامحك الله".

- 3 -

وقفتُ محدودبَ الظهرِ، وخطوتُ نحو الحمام مُثقلًا بالماضي، فلم أتخطَّ حادثة القاهرة البتّة، وكانت تنقضُّ عليَّ عند كُلِّ مُنعطفٍ يتعثّرُ ذهني به. دلفتُ إلى الحمام ووقفتُ قبالة المرآة، شرعتُ أُحملقُ إلى وجهي كما لو أنها المرّة الأولى التي أرى فيها وجهي، يا له من شعورٍ غريب، أن ترى وجهك بالمرآة ولا تتعرّف إلى نفسك، كأنما قد مضت عقودٌ من عمرك بطرفةِ عين، ولم تعش منها دقيقة واحدة.

ومض وجه نادية في مُخيّلتي فجأة، وانعكست صورتها على المرآة، أسدلتُ جفنيّ، وشرعتُ أتنفّسُ ببطء، ضربت ذاكرتي ومضات من الماضي بسرعةِ البرق، ابتسامتها المفعمة بالأمل في ومضةٍ خاطفة، وعيناها الصافيتان مثل سماءِ الصيف في ومضةٍ أُخرى، لم أكن أشعر بخفقانِ قلبي إلا حينما أُمسك بيدها، كانت قد خلقت مني يوسفًا آخر،

متمرّدًا، حرًا، لا يعبأ بكلامِ الناس، ولا يكترث لتقاليد بالية.

حتى جاء نايف لزيارتي ذات يومٍ نحس، دلف إلى الشقة وبدا مُشوّشَ الذهنِ، مُصفرَ الوجه، جلس على الأريكة وكان جبينه يرشحُ عرقًا رغم زمهرير شهر شُباط، رمي بصره يُمنةً ويُسرة وازدرد ريقه بنحوٍ يُثير الريبة، راح يُطقطقُ أصابعه كلّما وقع بصره عليّ، ثم طأطأ رأسه إلى الأرض.

- لقد رأيتُ نادية مع رجلٍ غريب عند مدخلِ السينما.

هكذا قال دون أيّةِ مُقدمات، تجهّم وجهي، وجلتُ ببصري في أرجاءِ الغرفة. "أيعقلُ أنها تخونني!" تساءلتُ في سرّي، ثم حاولتُ التشكيك في كلامه لاشعوريًّا، ربما كان ذلك بدافع الحب:

- ربما كانت تشبهها...

قاطعني مضطربًا، مُتلعثمًا، كأنما الكلمات تدفّقت من فمه بسرعةٍ فائقة، أكبر مما ينبغي:

- لا، لا، أبدًا، لا تشبهها بل هي، أنا متأكد مما رأته عيناي.

- ألم تكن ثملًا عندما رأيتها؟

انتصب في الحال، ترتعدُ أطرافه، تصبّب عرقًا، وواصل كلامه وبصره ما زال مصوبًا للأسفل، كما لو أنّ ما يتفوّه به كان مكتوبًا فوق بلاطةٍ ما تحت قدميه:

- أبدًا، فأنا لم أحتسِ الشراب منذُ أسبوع.

ثم صاح بنبرةٍ هستيرية:

- هي، هي، لقد رأيتها بأمّ عيني.

"أيعقلُ أنها تخونني!" كرّرتُ التساؤل في ذهني، وقد بدأ الشكُّ يقتحمُ عقلي عنوةً، اضطربت أنفاسي، وسال من جبيني خيطٌ رفيعٌ من العرق، تفحّصتُ ملامحه مرّةً أخيرة بعينٍ ثاقبة، ثم سألته بعدما استحوذ عليّ الصمتُ قرابة نصف دقيقة:

- متي رأيتها معه؟
- البارحة.
- البارحة!

رفعتُ حاجبي الأيمن، مُحدّقًا به بحدّة، أومأ برأسه على الفور، ثم نشّف جبينه المتصببُ عرقًا بكُمٍّ قميصه، فسألته دون إبطاء:

- أتذكرُ الساعة، كم كانت حينها؟
- لم تتجاوز الثامنة مساءً.
- أأنت متأكد مما تقوله يا نايف!
- متأكدٌ مثلما أنا متأكد من رؤيتك أمامي في هذه اللحظة، لطالما انتابني شكٌّ أنها عا...

قاطعته بصفعةٍ على خدّه، فغر فاهه مصدومًا، ووضع يده بحركةٍ لا إرادية فوق خدّه الملطومة، ثم دفعته بكلتا يديّ بقوة، وصحتُ في وجهه:

- لقد كانت معي البارحة.

ومضيتُ أصرخُ بملء حنجرتي:

- طوال اليوم، كانت معي طوال اليوم أيها الحاقد اللعين.

اتّسعت عيناه، وارتعشت شفتاه، حاول الفرار بيد أن قدميه كانتا قد تجمدتا عن الحركة، تلعثم ويده المرتعدة ما زالت على خده الملطومة، تجرّع الصدمة لحظةً ثم تأتأ:

- أأأ.. يبدو أني قد...

لكمته بيميني، وأخرى بيساري، اختلَّ توازنه وسقط، مُتعثّرًا بخطواته، ثم زجرته بينما كان يتلوّى على الأرض:

- إلى متى قلبك لا ينبضُ إلا حقدًا، وشفتاك لا تنطقانِ إلا كذبًا؟

وركلته على جنبيه عدّة ركلات، ثم رفعته من تلابيبه، ودفعته إلى خارج الشقة مُزمجرًا:

- اغرب عن وجهي، واحذر أن أراك في طريقي صُدفةً.

صفقتُ الباب خلفه بقوة، ورحتُ أذرعُ الحجرة ذهابًا وجيئة ممتقع الوجه، أزفرُ حنقًا، والدمُ يفورُ في شراييني، ثمّ انتصبتُ في وسط الشرفة المطلّة على النيل أرنو ببصري نحو المراكب، مُتغضن الجبين، مُكوّرًا قبضةَ يميني بشدّة. بدأ النيل يتلاشى شيئًا فشيئًا، والمراكب تختفي تدريجيًّا، حتى وجدتُ نفسي بغتةً في الحمام محدودب الظهر، أحملقُ إلى المرآة، زامًّا شفتي، لا أرى إلا عجوزًا بائسًا، خذله الزمن. ثمّ غسلتُ وجهي لكن الماء لم يمحُ خيبةً علِقت بملامحي منذ سنين، وأضحت جزءًا من هُوّيتي. هرعتُ إلى الدولاب، تناولتُ ثوبًا على عجلٍ وخرجتُ مُسرعًا.

- 4 -

ركبتُ السيارة وأدرتُ محرّكها دون إبطاء، ضغطتُ بقدمي على دوّاسة الوقود مرّتين بقوة، ثمّ وضعتُ ناقل الحركة على حرف (D) وانطلقتُ بأقصى سرعة. لم ينفك وجهُ نايف - في هذه اللحظة - يومض في ذهني ومضةً تلو الأُخرى، بمنخره الأفطس، وأسنانه الصفراء، المتفرّقة في فمهِ الكبير، وشعره المجعّد، وضحكته المستفزة ترنُّ في أُذني. شرع رنينها يتصاعد حتى بلغ مُنتهاه، صحتُ بغتة بعدما ضربتُ المقود بكلتا يديّ:

- اللعنة.

أخذتْ ومضات وجهه الكريه تتلاشى، وضحكته المستفزّة تنخفضُ تدريجيًّا، حتى ساد السكون في ذهني للحظةٍ، ثمّ راحت تتسلّلُ ذكرى أُخرى، مُعتّقة بعبقِ المرارة أعادتني رهينة الماضي، كان قد مضي أسبوع على المشاجرة، حيث اختفى نايف عن الأنظار بعد ذلك، ولم يرهُ أحد - من أصدقاء البعثة الدراسية - داخل الجامعة أو خارجها، وسمعتُ أقاويل مفادها أنه عاد إلى الكويت في ظروفٍ غامضة.

وبينما كنتُ في الشرفة المطلّة على النيل، أجلسُ رائق المزاج، أحتسي قهوتي تحت أشعةِ شمسِ شُباط الباردة، وأنغام أغنية (أنت عمري) تُطربُ حتى الجدران، وحفيف الهواء تتخلله زقزقة العصافير، وبين الفينةِ والأُخرى تصدحُ أبواقُ السيارات، وأصواتُ الباعة الجوالين عاليًا، في البداية، كانت هذه الأصوات المتداخلة مع بعضها تُعدُّ ضجيجًا مزعجًا، لكن بعد مضي عدّة أسابيع اعتادتها أذناي وأضحى هذا

الضجيجُ مثل لحنٍ شعبي أنطربُ له أشد الطرب. وبعد كُلِّ رشفةٍ قهوة، يلوح ببالي طيف نادية، وفي كُلِّ مرّةٍ، كان طيفها يزورني بسيناريو جديد، وفجأة، يقطعُ حبلَ أفكاري رنينُ الهاتف. "لا تنفكُّ تتصل كُلَّما اشتاقت إليّ". همهمتُ في خُلدي، وتشدّقتُ بابتسامةِ طفلٍ عابثٍ، ريثما كنتُ أخطو نحو الهاتف بأرجلٍ تقودها اللّهفة، رفعتُ السماعة وهمستُ بصوتٍ يتراقصُ شوقًا:

- وأنا أيضًا اشتقتُ إليـ...
- يوسف!

قاطعني صوتٌ أجش على الطرفِ الآخر من المكالمة، نشف الدمُّ في أوردتي، إذ نطق اسمي بنبرةٍ ارتعدت لها فرائصي، تنحنحتُ وأنفاسي تختنقُ ذُعرًا، ثم تلعثمتُ قائلًا:

- مـ.. مَن.. مَن المتحدث؟
- أنا والدك أيها العربيد.

حملقتُ إلى الفراغ بعينين مشدوهتين، ثم غصيتُ بريقي من هولِ الصدمة، ورحتُ أسعل بشدّة، بيد أنه واصل مُزمجرًا:

- لم أرسلك إلى القاهرة للعربدة لكن للدراسة.
- عربدة! لا يا أبي أنت...

صاح بملء صوته:

- اخرس، واحزم أمتعتك وعُد إلى الكويت فورًا.
- لا أستطيع العودة الآن؛ الاختبارات على الأبواب، لكن فور انقضاء فترة الاختبارات سأعودُ إليكم حاملًا الشهادة.

صرخ متوعّدًا:

- انسَ أمر الشهادة الآن، وحسبي أن تعود في أولِ رحلةٍ قادمة إلى الكويت، وإلا جئتُ إليك بنفسي وجرجرتك من تلابيبك.

ثم أنهى المكالمة في الحال، وأغلق الخط تاركًا الريبةِ تنهشُ أفكاري، غرق المكان بصمتٍ مُهيب، تك، تك، تك، كان صوت عقارب الساعة قد أضفى روعًا شديدًا إلى حالةِ القلق والتوتر اللتينِ تجتاحانني. مضت دقائق وأنا في مكاني، بيدي سماعة الهاتف، فاغرًا فمي، مُتخشّب الملامح، ابتلعت الصدمة لساني، وتعطّل عقلي عن التفكير، وشعرتُ بالوهنِ يمتصُّ عافيتي، حتى هوت السماعة من يدي بغتة وارتطمت ببلاطِ الشقّة، لم أُحرّكْ ساكنًا، وبقيتُ مُتسمرًا في مكاني، أحملقُ بدهشةٍ نحو الفراغ، "ما الذي يجري!" تساءلتُ في خلدي.

ازدردتُ ريقي بصعوبة، وشعرتُ بالغثيان، خذلتني قدماي، وهبطتُ فوق الكنبة الصغيرة قرب منضدة الهاتف المستديرة، مثل نجمٍ سقط من الفضاء. "نادية!" هتفتُ في سرّي، واللّوعة تغرسُ مخالبها بروحي، ثم سألتُ نفسي مُكتسيًا بالحيرة: "ماذا سأقول لها؟".

في غمرةِ الحيرة، أسدلتُ جفنيَّ مضنًى، زحف القنوطُ إلى عزيمتي، والتفّ حولها مثل أفعى، تسارعت نبضاتي وتفصّد جبيني عرقًا، ورعشةٌ خفيفة اغتالت أضلعي، تعثّر الكلام على الشفتينِ المرتبكتين، كان قلبي يصرخُ مُعترضًا، لكن صرخته ضلّت طريقها إلى النور، وبقيت في مكانٍ ما، تائهةً في عتمةِ مخاوفي.

بعد نصفِ ساعةٍ من الذهول، استجمعتُ شتاتي، وحملتُ نفسي إلى مكتب رمسيس للسفريات في ناصية الشارع، يغتصبُ الجُبن خطواتي، ويقمعُ الخوف اعتراضاتي. دلفتُ إلى مكتب السفريات مسلوب الإرادة، "مَن ذا الذي يجرؤ على معارضة أبي!" قلتُ في سرّي، كأنما أُحاولُ ببؤسٍ إقناع نفسي ألا حيلة لديّ. "لكن، ما ذنبُ نادية، تدفع ثمن غلطة لم ترتكبها، أو بعبارةٍ أُخرى، أكثر دقّة، ثمن غلطة ارتكبتها أنا؟" أرهقني السؤال حدَّ الضياع، تشوّش ذهني، وتقهقرت شجاعتي.

- أهلًا بالسيد يوسف، تفضّل يا بُني!

قال مدحت، موظف مكتب رمسيس للسفريات، إذ اعتاد زيارتي نهاية كُلَّ فصل دراسي، وكان قد أضحى صديقًا، أو بعبارة أكثر دقّة أخًا كبيرًا، بعدما أنقذني من أيدي الثلاثة الذين تشاجرتُ معهم، أو على الأقل هذا ما روته لي نادية فيما بعد. تقدّمتُ نحوه ببطء، وجلستُ على المقعد قبالة مكتبه الصغير، وبصوتٍ مُنهك قلتُ:

- أهلًا بك عم مدحت، هلّا حجزت لي تذكرةً على أقرب رحلة إلى الكويت؟
- أقرب رحلة! والدراسة؟
- الدراسة، لا أعتقد...

وأطرقتُ رأسي لحظةً، ثم أضفت:

- لديّ ظرفٌ طارئ.

تغيّرت سحنته في الحال، وأمطرت تعابيره قلقًا، ثم سألني بنبرةٍ مرتعبة:

- ما الأمر أخبرني؟ أثمّة ما يُمكنني عمله!

وأدار وجهه يسارًا، ثم صاح:

- أحمد، هات كأسَ ماءٍ.

- حالًا يا عم مدحت.

هكذا ردّ أحمد بصوتهِ الرنّان. تنحنحتُ، ثم أجبته على سؤاله:

- لا أدري ماذا أقولُ لك!

جاء أحمد في هذه اللحظة، حاملًا صينية فوقها كأسُ الماء، وقد نجم عن برودته قطراتُ الندى على زجاج الكأس.

- قدّمها للسيد يوسف، حبيبنا.

قال مدحت، وواصل:

- لا تقلق، ستنتهي الأمور على خير، بإذن الله.

خرجتُ من مكتبِ رمسيس للسفريات بيدي تذكرةُ العودة، وكانت الشمس قد أوشكت على الغياب، وسحابةٌ سوداء تطوفُ فوق رأسي.

- كيف سأواجهها؟

دمدمتُ أُحدّثُ نفسي، كانت مواجهة نادية مهمة مستحيلة، لذلك فكّرت، بل قررت ترك رسالة لها عند البواب، مليئة بالهراء، وأرحلُ بهدوء "يا لجُبني!" فكّرتُ في نفسي.

رجعتُ إلى الشقة، واستلقيتُ فوق السرير، والإرهاقُ يتلقّفني، أُحدّقُ بالسقف كما لو كنتُ أنتظرُ منه حلًّا، مضت دقائق حتى أسدل النعاس أجفاني، ورحتُ في نومٍ عميق، وحين أفقتُ في صباحِ اليوم التالي، كنتُ يوسف آخر، مُستسلمًا، وخانعًا إلى أوامر أبي، حملتُ

حقيبتي بعدما وضعتُ فيها كُلَّ ملابسي وحاجياتي، ثم خرجتُ أجرُّ خلفي خيبتي، أوقفتُ سيارة أجرة وذهبتُ إلى مطار القاهرة الدولي.

وصلتُ مطار القاهرة قبل إقلاع الطائرة بساعتين، وكان الصمتُ قد استحوذ عليّ طوال الطريق. جلستُ على مقاعد الانتظار والقلق ينهشُني، وبينما كنتُ أنتظر اقتحم رأسي المستدير سؤال لحوح بفظاظةٍ: "ما الذي يجري؟" لكن السؤال كان عاقرًا، وظلّت الأحداث بالغموضِ نفسه. "ثمّة حلقةٌ مفقودة!" تساءلتُ في خُلدي، وكلّما اقترب موعد الإقلاع زاد قلبي بنبضه توترًا.

صعدتُ سلّم الطائرة مُنقبض الصدر، شاحب الوجه، ثم جلستُ على آخرِ مقعدٍ مُقطّبًا حاجبيَّ، يستبدُّ بملامحي قلقٌ وارتباكٌ شديدان، ثم ألقيتُ بصري عبر نافذة الطائرة عندما بدأت بالإقلاع، بنظرةٍ شاردة. "ترى هل سيتبدّل الحب في قلبها إلى كراهية؟"، تساءلتُ في خلدي، وطأطأتُ رأسي.

بغتةً، يسرقني الحاضر عبر دوي اصطدامٍ، ارتطم وجهي على إثره بمقودِ السيارة، سقط عقالي من فوق رأسي، وتبعثرت الذكريات في فناء ذاكرتي، فتحتُ عينيَّ على وسعهما، جفّ ريقي، ومضت لحظةُ تيهٍ عابرة حتى استطاع ذهني بعد ذلك، استيعاب ما حدث، وتمتمتُ مُتذمرًا:

- اللعنة؛ على ذكرِ نايف تأتي المصائبُ.

ترجّلتُ من السيارة وراحت عيناي تتفحصانِ سيارة الرجل الذي اصطدمتُ به. "لقد تدمّرت خلفية سيارته تمامًا". فكّرتُ في نفسي، كان سائق السيارة قد ترجّل هو الآخر، شابٌّ في مُقتبل العمر، لا زال شاربه

يُحارب في سبيل الظهور. "لماذا يضع قبّعته بالمقلوب!" تساءلتُ مستنكرًا، ثم تفحّصتُ هيئته وازدريته في سرّي: "لِمَ يرتدي ملابسَ رياضيةً فاقعة اللّون لا تليقُ البتّة مع سُمرةٍ بشرته!" تقدّم نحوي عابسًا للحظة، بيد أنه ابتسم عندما اقترب مني، مدّ يده وصافحني قائلًا بنبرةٍ ودودة:

- آمل أنك لم تُصب بأذى!

تقهقر حنقي، وخجلتُ من ازدرائي له، ثم أجبته:

- لا، لله الحمد، لم يُصبني أيُّ أذًى، كما أعتذرُ منك؛ كانت غلطتي. أعترف بذلك، فلم يكن ذهني حاضرًا.

ثم أدخلتُ كلتا يداي في جيبي الدشداشة أبحثُ عن محفظتي، ومضيتُ أقول:

- لكن لا تقلق؛ سوف أتكفلُ بمصاريف تصليحها بالكامل.

- لا داعي لذلك.

قاطعني الشاب بلباقة، ثم ربّت على كتفي، وتابع:

- لدي تأمين على السيارة، ولا أحتاجُ منك إلا مرافقتي إلى مركز الشرطة فحسب.

واصلتُ لعن نايف في سرّي، كأنما في لعنه تعويذةٌ ما لطرد النحس، تنحنحتُ ريثما شرعتُ أنشّفُ جبيني المبتل عرقًا بطرفِ الغترة، ثم أعدتها فوق كتفي، ولوّحتُ له بيميني نحو نهاية الطريق.

- مركز الشرطة في ناصيةِ الطريق، هناك.

قلتُ بهدوء، ثم ركب كلانا سيارته وانطلقنا مُتّجهين فورًا إلى مركز الشرطة.

- 5 -

جلسنا على مقاعد مهترئة في غرفةٍ صغيرة، جدرانها مُتصدّعة، وطلاؤها الأبيض اصفرَّ تحت وطأةِ الزمن، تضوعُ منها رائحة السجائر، كما لو أننا في غرفةٍ مخصصة للتدخين، كانت الغرفة أشبه بمعتقلٍ منها بصالةٍ انتظار لولا النافذة المستطيلة المطلّة على حديقةٍ عاث فيها الخراب، وأضحت في نهاية المطاف مكبَّ نفايات.

انتظرنا ضابط مركز الشرطة لخمسٍ وثلاثين دقيقة، رغم أنّ المركز كان يخلو من أيّ مراجعين، سوانا. أنا والشّاب الذي اصطدمت سيارتي بسيارته. "لو كان الأمر يستحق لاتصلتُ بابن عمي اللواء، وأنهيتُ الموضوع في أقلِّ من خمسٍ دقائق". تذمّرتُ في خلدي، بينما كنتُ أتأفف ضجرًا.

ثمّ جلتُ ببصري في أرجاء المركز، وافترّ ثغري عن ابتسامةٍ شاحبة أضفت على ملامحي مسحة من الأسى. "كان المفترض أن يكون هُنا مقر عملي، مُحققًا". فكّرتُ في نفسي، ثم ومض وجه أخي طلال في ذهني على حينِ غرّة، بيد أنّ وجهه بدا شابًّا، وكان شبابه قد جرجرني نحو الماضي شيئًا فشيئًا، حتى تمرّغت ذاكرتي بالذكريات. كان ينتظرني لوحده في المطار، على غيرِ العادة، تلفّتُّ حولي بحركةٍ سريعة تعلو قسمات وجهي الريبة، ثم سألته:

- أين البقية؟

انثنت شفتاه بابتسامةٍ واهنة، ثم صافحني مصافحة دبّت الرعب في نفسي، قائلًا بصوتٍ يشي بمصيبةٍ ما:

- الحمد لله على السلامة.

زاد عقلي اضطرابًا. ناولته حقيبتي فاغرًا فمي على نصفه، وسرتُ خلفه يتملّكني قلقٌ شديد. مشينا طويلًا بين السيارات حتى بلغنا سيارته، كان قد ركنها في آخر موقف. أدار المحرك بعدما ركبنا في الحال، وانطلقنا عائدين إلى البيت. مضت الدقائق العشر الأولى بصمتٍ مُطبق إلى حدٍّ أن صوتَ المحرك كان صاخبًا حد الإزعاج، وبغتةً، أدار وجهه نحوي، ثم سألني بنبرةٍ يشوبها الدهشة:

- بربّك قل لي، ما الذي فعلته؟ لا بدّ من خطبٍ ما جنّن أبي!

حدجته مُستنكرًا، ثم ازدردتُ ريقي، وتنحنحتُ كما لو كنتُ أُحاول اكتساب مزيدًا من الوقت؛ كي أُفكّر بإجابةٍ ما. "ما الذي يجري؟" واصلتُ طرح السؤال ذاته على نفسي، وبعد لحظةٍ وجيزة بدت طويلة بذهني، أجبته بنبرةٍ مُتّزنة، أو بعبارةٍ أُخرى أكثر دقّة، هذا ما ظننته:

- سوء فهم، حتمًا هناك سوء فهم.
- لا أعتقدُ أنّ هنالك سوء فهم، فما قاله نايف...
- نايف!

قاطعته في الحال مُقطّبًا حاجبيّ، وأمسكتُ عن الكلامِ برهةً، ثم مضيتُ أقول، والكلمات تنزلقُ بحنقٍ من شفتيّ:

- ماذا قال؟ أخبرني حالًا.. ماذا قال لأبي؟
- لستُ متأكدًا، لكن سمعته يتكلم عن ملاهٍ ليلية، وراقصةٍ أُسمها نادية.

اتّسعتا عيناي، وشعرتُ بدوارٍ يجتاحني فجأة، ثم صحتُ بملء حنجرتي:

- راقصة!

وضربتُ كفًّا بكفٍّ مشدوهًا، وواصلتُ بصوتٍ حاق بنبرته الغيظ:

- كاذبٌ حقود، لم تكن راقصة بل طالبةٌ مُجتهدةٌ وزميلةٌ مُحترمةٌ بكلية الحقوق في القاهرة و...

- أتعرفها؟

قاطعني بصوتٍ مذهول النبرة، ألقيتُ بصري نحوه بنظرةٍ خاطفة. لم أُجب، ثم أطرقتُ رأسي هُنيهةً، بيد أنه تجاوز السؤال ومضى يقول بلامبالاة:

- قل هذا الكلام لأبي، فلا أعتقدُ حتى بأنه سوف يسمعك؛ لا سيما بعد أن صدّق حكاية نايف كما لو أنها وردت في التنزيل الحكيم، ثم أنه اتخذ قرارًا نهائيًّا بشأنك، وأنت تعرفه حق المعرفة إذا ما قرر أمرًا ما، فلا يُمكن أن يعدلَ عنه البتة.

رفعتُ رأسي للأعلى، وملأتُ رئتيَّ بالهواءِ ما استطعت، ثم أطلقتُ زُفرةً طويلة، كأنما ثمّة حملٌ ثقيلٌ كان جاثمًا على صدري. أسدلتُ جفنيّ وأسندتُ رأسي للخلف بوهن، ثم تناهى إلى ذهني أبي، بملامحه المخيفة، مُتغضّن الجبين على الدوام، زامّا شفتيه، يوصدُ أبواب الرحمة في وجهي. ارتعش قلبي في هذه اللحظة، وخيطٌ رفيعٌ من العرق شرع يسيلُ من جبيني، ثم بدأ تحت إبطي، وفي مُنتصفِ ظهري، حتى انتهى بي الأمر مبللًا بعرقي مرعوبًا من لقائه، ازدردتُ ريقي وقد

جفَّ تمامًا، ثم سألته والريبة تسكنُ نبرة صوتي:

- وما الذي قرره؟

أجابني بعدما أفلتت منه تنهيدةٌ عميقة:

- أولًا: لن تعود إلى الدراسة في القاهرة مُجددًا...

قاطعته بدهشةٍ:

- مستحيل!

- اهدأ، فلم يكتفِ أبي بذلك، إذ قرر أيضًا عقد قرانك على نورية.

- نورية ابنةُ عمي!

أومأ برأسه، وقد خيّمت الشفقة على ملامحه، ألقيتُ رأسي بين راحتي، والصدمة تجلدني. "ترى ما الذي يُمكنني عمله؟" سألتُ نفسي والقنوطُ يُحاصرُ إجابتي، ثم رفعتُ رأسي ورنوتُ إلى السماء عبر زجاجِ السيارة الأمامي، وغربان البؤس تحومُ فوق دماغي. "يا رب" تضرّعتُ إلى الله في خُلدي.

أطبقتُ جفنيّ لحظةً، لاح خلالها طيف نادية ببالي، كما لو أنّ الحجاب قد كُشف عن بصري. رأيتها في هذه اللحظة، تمسكُ رسالتي - المليئة بالهراء - بيدٍ مُرتعشة، وقلبٍ اضطربت وتيرةُ نبضاته، ثم شرعت تقرأها، ومع كُلِّ سطرٍ تافهٍ كتبتُه، كانت تهبطُ من عينيها اللتينِ وعدتهما ألا يبكيا دمعة لا أستحقّها. "جبان". قالت بقلبٍ مكسور، ثم حشرت الرسالة بقبضتها، وضغطت عليها بما تبقّى لها من قوّة، أو هذا ما صوّره خيالي أنها ستفعله!

شرعت أحلامي تتهاوى حلمًا بعد الآخر، كنّا قد خططنا لكُلِّ شيء في حياتنا، ورسمنا مستقبلنا بأدقِّ تفاصيله الصغيرة، بدءًا من قضاء شهر العسل في جنيف، كما جلسنا لأيامٍ طويلة نتخيل أثاث حجرة النوم الكلاسيكية، وحجرة المعيشة بألوانها الدافئة، حتى طلاء الجدران كنّا قد اتفقنا على اللون الأزرق الضارب إلى الأخضر، كما اتفقنا أيضًا أن نُطلق على مولودنا الأوّل ياسين في حال كان المولود ذكرًا، وحصّة إن كانت أُنثى، لقد اتفقنا على كُلِّ شيء. كانت الحياة تُشرّعُ ذراعيها لنا، لكن القدر كان قد رسم ببساطةٍ، نهاية أُخرى.

- سيد يوسف، سيد يوسف.

تناهى إلى مسمعي صوتٌ مُهذّب، انتشلني من غياهبِ الذكريات وألقى بي فوق سطحِ الحاضر، أدرتُ وجهي نحوه أرنو إليه بعينين مفتوحتين على وسعهما، ومسحةٌ من البلاهة تطوفُ بقسماتِ وجهي، ثم سألني وفيما كان يُربّتُ على كتفي:

- هل أنت بخير؟

رمشتُ عدّة رمشات؛ كأنما أُحاولُ استعادة ملامح وجهي من قبضةِ البلاهة، ثم همهمتُ بصوتٍ مهموم:

- أرجو ذلك.

- كان الله في عونك.

قال الشاب المهذّب بنبرةٍ بدت صادقة، ثم أضاف ريثما كان ينهض:

- هيا، لقد حان دورنا، أخيرًا.

وقفتُ محدودبَ الظهر، ثم خطوتُ مُتثاقلًا نحو حجرةِ ضابط المركز - وكانت في نهايةِ ممرٍّ ضيّق - بدأ الإرهاقُ يجتاحُ قسمات وجهي، حتى دلفنا حجرة الضابط، وجبيني كان مُتفصّدًا.

لم يستغرق الأمر سوى سبع دقائق، بدءًا من دخولنا، كان الشاب المهذّب قد نال ما يرجوه، وأخذ ورقةً من الضابط إلى شركةِ التأمين؛ كي تتكفّل بتصليح سيارته بالكامل، كررتُ اعتذاري له بيد أنه قاطعني على الفور:

- لا داعي للاعتذار؛ جميعنا مُعرّضون لمثلِ هذه الحوادث، جُلّ ما يهم سلامتنا، أليس كذلك؟

أومأتُ برأسي إيماءة سريعة، ثم مدّدتُ يميني له وصافحته مودّعًا، مضى في سبيله، واتّجهتُ أنا إلى سيارتي، ركبتها وأغلقتُ الباب، استعدتُ رتابة أنفاسي، وقبل أن أُدير المحرك كان ذهني قد استأنف شروده، وتعفّر بالماضي. انسلّت من حنجرتي آهةً مُقتضبة، عندما تذكّرتُ قسمات وجهه المكفهرّة حين التقيته بعد عودتي من المطار مباشرةً، كان قد شزرني بعينين يتطاير منهما الشرار، إذ كان ينتظرني عند مدخلِ البيت، متّكئًا على عصاه التي ورثها عن جدي، نشف الدم في أوردتي في هذه اللحظة، واستحال قلبي إلى إيقاعٍ عراقي من شدّة الفزع، تسمرّتُ في مكاني برهة من الزمن، مرتعد الفرائص، ثمّ تقدّمتُ نحوه ببطء، وركبتاي تصطكانِ، بيد أنه صاح في وجهي بلهجةِ أمر قبل أن أطبع قبلتي على جبينه الواسع:

- جهّز نفسك؛ غدًا ستتزوج من نورية ابنةِ عمك.

- لكن.. ودراستي!

قلتُ بصوتٍ مهزوز النبرة، فاستشاط حنقًا من اعتراضي رغم أنه كان اعتراضًا خجولًا، واستطرد بغلظةٍ:

- دراستك.. أم هي الراقصة أيها العربيد.

استولت الصدمة على جميعِ خلايا مخي، وشلّت تفكيري؛ عندما قرعت أُذني كلمة الراقصة، انعقد لساني عن الدفاعِ عنها، كما لو كان متواطئًا. "أهو احترامٌ أن تسمح لأبيك بإهانةِ حبيبتك أم جُبن!" تساءلتُ في سرّي مرهق الذهن، وبقيتُ مُتسمّرًا أمامه، مرتعشًا، ونوبةُ هلعٍ تسري في شراييني. "ليت الأرض تنشقُّ وتبتلعني". رجوتُ الله في خلدي، وبينما كانت سُمعتها تتلطّخُ بوحلِ البِغاء، كان العجزُ يعتصرني، ويضنيني الخور. التقطتُّ أنفاسي على نحوٍ مُتقطّع، وعيناي تفرّانِ من عينيه كأنما بالحب قد ارتكبتُ جريمةً لا تُغتفر.

خيِّل إليّ في تلك الأثناء، أنّ نايف يرقصُ حولي - بعوده النحيل - رقصته البلهاء، ساخرًا، مُنتقمًا. "فتاة أحلامك لن تُبارح أحلامك". ظلّ يرددها على مسمعي بعد أن لحّنها لحنًا شعبيًّا يتناغم مع أيةِ كلمات، مهما بلغت حدّ السذاجة. "أتُهدم حياتي برمّتها بناءً على كذبة؟" سألتُ نفسي مبهوتًا.

انتفض جسدي بغتةً، واصطدم ذهني بالحاضر؛ عندما دهم أُذني صوتُ بوق سيارة أُطلق من العدم، توارت الذكرى خلف ستارٍ رقيق، متأهّبةً للهجوم في أيةِ لحظة، وخلّفت في القلب شرخًا لا يلتئمُ أبدًا. كانتا يداي ترتعشان كأنما أبي لا زال أمامي، يقفُ مُتّكئًا على عصاه التي ورثتها من بعده، مُكفهرّ الوجه، ويصيحُ في وجهي موبّخًا.

على حينِ غرّة ومض وجه ياسين في مخيلتي، تقلّصت المسافة بين حاجبيّ، وزممتُ شفتيّ، ثم أدرتُ محرك السيارة، مُنطلقًا إلى البيت بينما كنتُ أتذمّر بصوتٍ عالٍ مثل المجنون:

- لو تطلّب الأمر مني خلعِ بابِ غرفته، سأخلعه، لكن لن أتركه هكذا أبدًا.. أبدًا.

- 6 -

دلفتُ حارتنا أقودُ السيارة بأقصى سرعة، وبغتةً فرملتُ فاغرًا فمي، انزلقت السيارة واصطدم إطار العجلة الخلفي بالرصيف، رنوتُ إلى البيت بعينين مبهوتتين، وقلبٍ خوّار؛ كان الشارع قد تلوّن بنورين أحمر وأزرق، انبثقا من المصباح الكهربائي مُستطيل الشكل، المثبّت فوق سقفِ سيارة الإسعاف، المركونة قبالة الباب الحديدي، فيما كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً.

- يا رب لطفك.

رجوتُ المولى مُتضرّعًا، ثم ترجّلتُ وخطوتُ نحو البيت بخطواتٍ قلقة، كانت سيارة طلال خلف سيارة الإسعاف، بيد أنّ صدري انقبض عندما رأيتُ سيارة فالح مصفوفة بمحاذاة محوّل الكهرباء؛ فلم تطأ قدماه بيتي منذُ أن قررت بإلحاحٍ - قبل ثلاثةِ سنواتٍ - أن يخلف ابني حمد عمّه طلال في مجلس الأمّة بدلًا من ابنه.

"ما الذي يجري؟" سألتُ نفسي، وتسمّرتُ عند المدخلِ الخارجي هُنيهةً، أجولُ ببصري حولي مرتاعًا، ثمّ هرعتُ إلى الداخل، صادفتُ

طلال عند مدخلِ الباب الداخلي، شاحب الوجه، مُتغضّن الجبين، سألني بنبرةٍ يشوبها الغم فور رؤيتي:

- بربّك أين كنت طوال اليوم؟ فلقد حاولنا الاتصال بك مرارًا لكن هاتفك كان مغلقًا على الدوام.

حملقتُ إليه مرعوبًا، أُحاول تفسير ما يجري، لكن عقلي كان مشوّشًا كفاية، فقدتُ التوازن فجأة، وكان الهواء ينفدُ من صدري، في حين كان أنفي يواجه صعوبة بالغة باصطياد الأوكسجين، فتحتُ أوّل ثلاثة أزرار من الدشداشة، وكان طلال حاضرًا؛ إذ أسندني إلى يديه في الحال، ثمّ قادني إلى الداخل على مهل، بينما كان يهمس بأُذني:

- اهدأ يا أخي، جميعنا معك.

وقفتُ في الرواق المفضي إلى حجرةِ المعيشة محدودب الظهر، أتكئ على طلال بوهن، وقد انتزع الفزع ملامح الهيبة من وجهي.

في تلك الأثناء كان ثمّة رجلٌ غريبٌ أبيض البشرة، هبط فوق السلالم، بدا أنفه طويلًا جدًّا بين نظارته السميكة وشاربه الكثيف، يرتدي قميصًا وبنطالًا ناصعا البياض، بدا مسعفًا للوهلةِ الأولى، أمعنتُ النظر بسحنته. "بالفعل، هو مُسعفٌ". قلتُ في سرّي، تقدّم نحو طلال ببطء، ألقى بصره نحوي بنظرةٍ غائمة بالتعاطف، ثم صوّب عينيه إلى طلال، ربّت على كتفه ثم أبلغه بصوتٍ ثخين مثل مذيعٍ في نشرةِ الأخبار:

- البقاء لله.

شرع طلال يضربُ كفّيه ببعضهما وهمهم مغمومًا:

- إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

اتّسعت عيناي، وشعرتُ بوخزةٍ في قلبي. "البقاء لله بمن؟" سألتُ نفسي متوجّسًا، وامتصّ الوهن لوني، اختلّ توازني مرّةً أُخرى، وخانتني قدماي، رميتُ بحملي على أخي، بيد أنه لم يعد قادرًا على حملي، فمدّ المسعف يده المشعرة بمساعدةٍ كان طلال في أمسِّ الحاجةِ إليها، رنوتُ إليه بعينين مليئتين بالأسئلة، بيد أنني اكتفيتُ بسؤالٍ واحدٍ:

- مَن هو المتوفى؟

تبادلا النظرات فيما بينهما لثوانٍ، ثم أجلساني في مُنتصفِ الرواق، قرفص أخي على ركبتيه، دنا مني، وكان المسعف قد ابتعد، ثم همس في أذني مرتعش النبرة، بعدما حضنني:

- ياسين.

- ياسين!

صحتُ بملء صوتي، ثم ازدردتُ ريقي الذي كان قد نضب تمامًا، وأضفت مذعورًا:

- لا، لا، بالله عليك أين ابني؟ أعدك أنني لن أُوبّخه أبدًا.

أرخيتُ بصري كما لو أنّ الحقيقة أرهقتني، اغرورقت عيناي بالدموع، ثم سددتُ نظرةً إليه، ومضيتُ أقول متهدج الصوت:

- كُفّ عن المزاح يا أخي..

فُتح الباب بقوة في هذه اللحظة، دلفت حصّة تلهثُ، مُتقطّعة الأنفاس، مُضطربة الخطوة، صاحت بحنجرةٍ مبحوحة:

- أين ياسين؟ أخبروني أين أخي؟

كان الدمع يغشي عينيها المحمرّتين، ورعشةٌ شديدة تنفضها من رأسها حتى أخمص قدميها، راح صدرها يرتفع ويهبط مع كُلِّ نفسٍ تلتقطه، تقدّم طلال إليها، وطوّقها بين ذراعيه برفق.

- اهدأي يا حصّة.

قال محزونًا، وصاحت بيد أنّ صوتها كان مخنوقًا بالعبرة:

- أين أخي؟

- ادعي له بالرحمة.

أجهشت بالبكاء دون إبطاء، فحاول طلال جاهدًا تهدئتها بيد أنه لم يفلح، قفز حمد السلالم بسرعةٍ، وهرع إليها، حضنها مربّتًا على رأسها بحنان.

- اطلبي له الرحمة، فهو بحاجتها الآن أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

قال بنبرةٍ مُتّزنة، متماسكًا.

وبعد عشرين دقيقة، مضت بفوضى عارمة، قُرع الباب بغتةً.راح طلال يفتحه، دلف رجلان يرتديان لباسًا موّحدًا، قميصًا بني اللون بكمّين قصيرين، وبنطالًا أسود فضفاضًا، معهما نقالة، كان أحدهما ضخم البُنية، فارع الطول، كثيف الشارب، حليق الرأس، بدا مصارعًا رغم ملامحه الطيبة، انحنى عند الباب كي يتمكن من الدخول، أمّا الآخر كان قصير القامة، ممتلئ الجسم، ذا ذقنٍ مُهملة، أشعث الشعر، تشوبُ قسماته مسحة من المكر، وكانت تفوحُ منهما رائحة الموتى.

ألقيا التحية بوقار ينسجمُ مع حالة الحزن التي تعتلي وجوهنا، قادهما طلال إلى غرفةِ ياسين في الطابق الأول، وبعد مضي قرابة الدقيقة

- قضيناها نتجرّع الصدمة، كُلٌّ حسب طريقته - هبطا السلالم برفقة طلال، يحملان ياسين على النقالة مُغطّى بقطعةِ قُماشٍ بيضاء. تخشّبت ملامحي صدمةً من هولِ المشهد، وانعقد لساني عن الكلام، لم يكن عقلي في هذه اللحظة قادرًا على استيعاب ما تراهُ عيناي. "أمات حقًّا!" تساءلتُ مشدوهًا، وتابعتُ: "أمن العدلِ أن يشهد الأب موت ابنه؟!".

في غضونِ ذلك، كان فالح قد هبط السلالم برفقة نورية، بدا وجهها مُلطّخًا بالوجع، كأنما العمر في لحظةٍ قد تقدّم بها عقدًا من السنين، وقفا في أوّلِ الرواق هُنيهةً، هرعت حصّة نحوهما تصيح:

- لقد مات ياسين يا أمي، لقد مات.

ورمت نفسها في حضنِ نورية، تعالت أصوات العويل، غرق المكان في نحيبٍ كادت أن تبكي له الجدران، خيّم على وجوهنا الألم، وحلّ الحُزن ضيفًا ثقيلًا على قلوبنا.

عاد المسعف نفسه في هذه الأثناء، بيد أنّ مظهره كان مختلفًا؛ عندما خلع نظّارته السميكة، وأضحى أنفه أقصر قليلًا، بيده ورقةٌ بيضاء تمرّغت أطرافها بالدم، سلّمها إلى طلال قائلًا:

- لقد وجدتها مرمية على الأرض قرب المرحوم.

أخذ نفسًا مُقتضبًا، واستطرد بصوتٍ خافت:

- تبدو كأنها وصية كتبها قبل أن...

وأمسك عن الكلام برهةً وجيزة، أطرق رأسه، ارتدى نظّارته مجددًا، وعاد أنفه طويلًا مثلما كان، ثم ختم كلامه:

- الله يرحمه برحمته.

وبعد دقائقٍ كان الجميع قد غادروا برفقة ياسين، أو بعبارةٍ أُخرى، أكثر دقّة، جثّة ياسين، لحقوا بسيارة الموتى إلى المقبرة، وساد البيت سكون مهيب، أسندتُ ظهري إلى الجدار في مُنتصفِ الرواق، أضمُّ ركبتيَّ إلى صدري بكلتا ذراعيّ، تباطأ قلبي بنبضه، شعرتُ بموجةِ بردٍ تجتاحُ جسدي، وفي هذا السكون المخيف لا شيء يطرقُ مسمعي إلا تنفّسي المضطرب.

ألقيتُ بصري حولي مُتفحّصًا المكان، بدا مهجورًا بلمحِ البصر، وأضحى موحشًا، خيّم عليّ إحساسُ ريبٍ وخور، وشعرتُ أنّ الموت ما زال يجوبُ أرجاء البيت. "أيقبضُ روحًا أُخرى، أم اكتفى بروح ابني!" تساءلتُ في خلدي مرتابًا.

تسلّل صوت عبدالباسط عبدالصمد إلى أُذنيّ، أسدلتُ جفنيّ برفق، فهبطت دمعتان، وانسلّت تنهيدة عميقة من شفتين ترتعشان، أرخيتُ السمع إلى ترتيلهِ العذب لآياتٍ من الذكرِ الحكيم، وشعرتُ بأنني أغيبُ عن الوعي تدريجيًا، غشت عيناي غشاوة طفيفة في البداية، بيد أنها راحت تزدادُ شيئًا فشيئًا حتى انعدمت الرؤية، تباطأ نبضي أكثر، واستقرّ تنفّسي، كان صوت عبدالباسط آخر ما طرق مسمعي: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

النهاية

أحبائي الذين أرادوني شخصًا آخر...

لم يعد باستطاعتي التظاهر أكثر؛ وهذا الآخر لا يشبهني. مَن أنا إذن؟ في الحق أنني أجهلُ حقيقتي، وهذا القناع البائس أرهق ملامح وجهي. آه كم أحتاجُ إلى التجرّدِ من اسمي، من مجتمعي، من أفكاري. كم أحتاجُ إلى التجرّدِ من جسدي لأعرف ماهيتي. إن الحياة حين تقسو على أحدٍ ما، تصنعُ منه فيلسوفًا بائسًا، لا يرى في الموت إلا بطاقة عبور وحسب.

ياسين

أفواه مُكمَّمة

أحمد محمد الطرّاح

توارت كل الردود التي اعتدتُ أن ألجمَ بها أفواه كل مَن جادلني خلف عجزٍ لم أفهمه، وغصّت حنجرتي بجميع الكلمات التي آلفها لساني. نهضتُ بغتةً، تناولتُ العباءة وحجابي، ارتديتهما بارتباكٍ حاولتُ جاهدةً إخفاءه تحت تعابيرٍ جامدة، ثمّ غادرتُ بيتها دون أن أنبسَ ببنتِ شفة. لم تُكلّف نفسها عناء الاتصال، أو إرسال رسالة نصية تعتذر خلالها، ولم أعد بدوري لزيارتها مرّةً أُخرى.

كان وميض الذكرى قد بدأ يخبو في ذهني شيئًا فشيئًا، وشرعت رئتاي تنتظمانِ في تنفّسهما، هممتُ أُحدّثُ نفسي بصوتٍ خافت، بدا مرهقًا:

- كان اختلافًا بسيطًا في وجهاتِ النظر.

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

نيل وفرات.كوم
nwf.com
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN: 978-614-01-3093-7
9 786140 130937